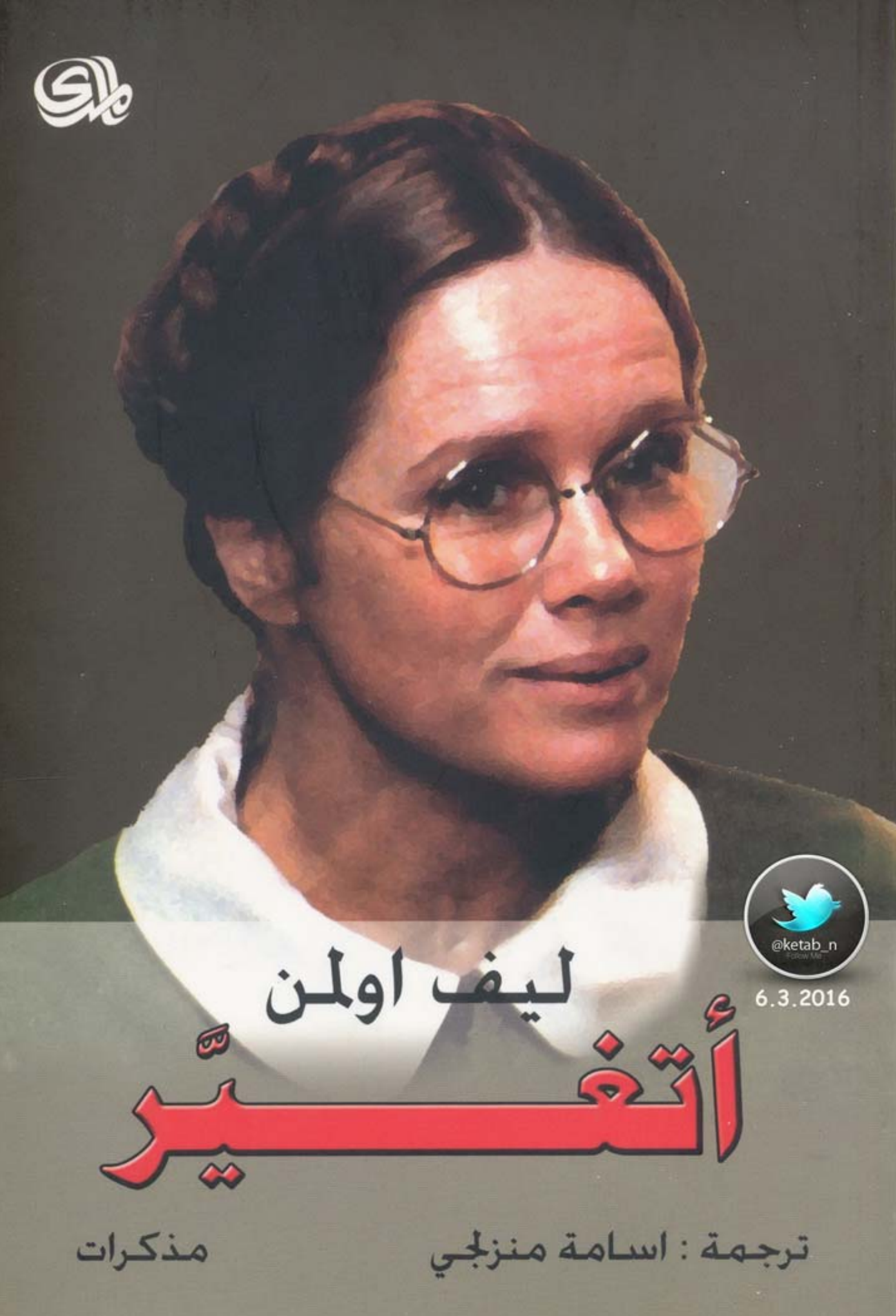


ليف اولمن

أتغيّر

ترجمة : اسامة منزلجي

مذكرات

ليف أولمن



ترجمة

أسامة منزلجي




أتغيّر



Author: Liv Ullmann
Title: Changing
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2007
Arabic Copyright © Al- Mada الحقوق العربية محفوظة

المؤلف : ليف أولمن
عنوان الكتاب : أتغيّر
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ ٢٣٢٢٢٧٦- -فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

إهداء المؤلِّفة

إلى ابنتي، لين.

أحيانا أعطي أسماءً للأشخاص في هذا الكتاب
لكني في الغالب لا أفعل
أحيانا ستظهر الشخصيات بأسمائها
وتارة بدونها.
لكنها جميعا صحيحة،
وما أكتبه عنها يشكّل جزءاً من حياتي.

أتغيَّر

ولدتُ في مستشفى صغير في مدينة طوكيو، وتقول الماما إنها تتذكّر شيئين عن تلك المناسبة

- تتذكّر أن فأراً مرَّ من أمامها، واعتبرته فألاً حسناً.

- وتتذكّر أن إحدى الممرضات مالت عليها وهمست لها بنبرة اعتذار:

" يؤسفني أنها فتاة. هل تفضّلين أن تخبري زوجك بنفسك ؟ "

أجلس هنا، تحملني أفكاري وتطوف بي العالم كله، أحاول أن أسجّل وقائع الرحلة داخلي.

أريد أن أكتب عن الحب - عن كوني كائنا بشرياً - عن العزلةِ - عن كوني امرأة.

أريد أن أكتب عن لقاءٍ حصل في إحدى الجزر، مع رجلٍ غيّرَ حياتي.

أريد أن أكتب عن تغيّرٍ عَرَضي وتغيّرٍ آخرَ كان متعمّداً.

أريد أن أكتب عن لحظاتٍ أعتبرها هِبات، عن لحظاتٍ طيبةٍ وأخرى سيئة.

لا أؤمن بأن المعرفة أو التجربة التي تشكّل جزءاً من حياتي هي أعظمُ بأي حال مما لدى الآخرين.

لقد حقّقتُ حُلماً واحداً - ولَمْلَمْتُ عشرة أخرى جديدةً عِوضاً عنه. ورأيتُ الجانبَ الآخرَ لشيءٍ يلمعُ.

لن أكتب عن ليف أولمن التي يقابلها الناس على صفحات المجلات والصحف. وقد يعتقد البعض أني أغفلت ذكر حقائق هامة في حياتي، إلا أنه لم يكن في نيتي أبدا أن أكتب سيرة ذاتيّة.

إن ما يثير السخرية أن مهنتي تتطلّب استعراضاً يومياً للجسم والوجه والمشاعر. وها أنا أشعر بالخوف من الكشف عما في نفسي ؛ أخاف أن يعرّضني ما أكتبُ للانتقاد فأعجز عن الدفاع عن نفسي.

تدغدغني رغبةٌ في التنميق، في أن أُظهِرَ نفسي ومحيطي بمظهرٍ جميلٍ اكتساباً لعطف القارئ ؛ أو في تشويه الأشياء لأجعلها أكثر إثارة.

كأني لم أقتنع بأن الواقع بحدّ ذاته مثير للاهتمام.

كتبتْ المؤلّفة الدانماركية توفه ديتلفسن تقول " هناك طفلة صغيرة داخلي ترفض أن تموت "

أعيشُ، أبتهجُ، أحزنُ، ودائماً أجاهدُ كي أكبر. ومع ذلك ففي كل يوم أسمعُ صوتَ تلك الفتاة الصغيرة داخلي، لأن شيئاً ما أفعله يؤثّر بها. تلك التي قبل سنين كثيرة كانت أنا. أو مَنْ ظننتني أنا.

إنه صوت متلهّف، ومحتجّ دائماً تقريباً، مع أنه أحياناً يكون واهناً ومِلؤه الشوق والحزن. لا أريد أن أنبّهه، لأنني أعرف أنّ لا علاقةَ له بمرحلة حياتي الناضجة. إلا أنه يبلبلني.

أَحيانا في الصباح أقرّر أن أحيا حياتها هي، أن أخرج من نمط دوري اليومي في الحياة، فأضم إليّ ابنتي لأستدفئ بها قبل أن تستيقظ؛ أشعر بأنفاسها الدافئة، الهادئة، وآمل في أن أحقّق من خلالها ما تمنّيته لنفسي.

حين أعود بذاكرتي إلى أحلام طفولتي، أرى أنها تشبه الكثير من الأحلام التي ما زالت تراودني، إلا أني لم أعد أعتبرها كما لو أنها جزءٌ من الواقع.

إن التي في داخلي و " ترفض أن تموت " مـا زالت تصبـو إلى شيء مختلف. فلا النجاح يرضيها ، ولا السعادة تُسكِتُها.

أحاول طوال الوقت أن أتغيّر، لأني أعلم علم اليقين أن هناك أكثر بكثيـر من الأشـيـاء التي كنت قـريبـة منهـا. أريد أن أتوجه إلى هذا الاتجاه. أن أجد السكينة، لأتمكّن من الجلوس والإنصات إلى ما يجري داخلي دون أي مؤثّر دخيل.

النرويج

إن حقيقتي في هذا الشتاء تتألّف من أشياء كثيرة. حتى ما يلي:
أفيقُ من إغفاءة. رحلتي بالطائرة تُشرفُ على نهايتها بالوصول إلى مدينةٍ ما. الشمسُ تغيب خلف جبال شاهقة. وفي منطقةٍ سحيقةٍ تسطعُ الأضواءُ بالآلاف من النوافذ ومن إعلانات الشوارع التجارية. للوهلة الأولى لا أذكر إلى أين أنا ذاهبة. المدن متشابهة كتشابهِ الطائرات التي تنقلني إليها. من المزعج ألا تكون وجهة المرء على أي قدر من الأهمية. ستكون النساء والرجال ذاتهم واقفين عند المداخل وسوف يهتفون بكلمات الترحيب ذاتها لدى مشاهدتي. وأناس يحملون الزهور ويفيضون لطفاً سيهرعون جميعا لنقل أمتعتي إلى السيارة ويوصلونني إلى فندق فاره، ينزلونني هناك ومن ثم ينفضّون كلٌ إلى حياته الخاصّة. وأحتلُّ جناحاً فيه غرفةٌ للجلوس وغرفة نوم، وكرسيٌ عميق قائم الظهر ملبّس بالحرير، ونوافذ كبيرة تطلّ على أشجار نخيل وبركة ماء للسباحة.

وتُجلَب زجاجة شمبانيا موضوعة في الثلج مصحوبة بكلمات تقريظ من المدير. وأزهار وسلال من الفاكهة. وخدمُ القاعة سينوءون تحت ثقل أمتعتي داخلين خارجين يحملون إليّ رسائلي ومكالمات هاتفية. وابتسامات وتهذيب والتصنّع الذي يلفّ هذا كلّه.

وأنا أبتسم لهم بحماس وأشكرهم.

* * *

وحقيقتي هي أيضا ما يلي:

الطائرة تحوم فـوق إحـدى المدن. وأنا أنطوي عـلى توقّع وأحـدّق إلى الليل. أعلم أن الجو حارّ. لا حاجة بي إلى التفكير في النسيج الصوفي والأحذية العالية النرويجية لبضعة أيام ... الجو لا يتطلّب أكثر من بلوزة رقيقة.

سوف أكون يقظة حين ينام كلُ مَنْ في المنزل.

القهرمانات مشغولات في الترتيب بعد رحلتهن الطويلة. إنهن متلهّفات ونشيطات ؛ وكلنا أصبنا بعدوى الحدس نفسه.

كانت الرحلة بالطائرة طويلة. عُرض علينا فيلم سينمائيّ وقدِّم لنا طعام الإفطار والغداء والعشاء. وكانت العربات تتدحرج داخله خارجة محمّلة بالطعام والفاكهة، والمشروبات المثلّجة، مع ملاءة صوفيّة لأتدثّر بها حين أرغب في النوم.

أحاول أن أرتِّب شعري، وأنا سعيدة لأن هوليوود قَبِلَت " شكلي الطبيعي ".

في الوطن سيستيقظ الناس من النوم لاستقبالِ صباحٍ شتويّ معتم وستكون أقدامهم وأكفالهم متجمّدة، في حين أني جالسة في ظلِ نخلةٍ والإحساسُ بنسيم المساءِ سيكون مثيراً، بشكل لا يحدث أبداً في أوسلو. وسوف أنام في سريرٍ فسيحٍ وثير. وسيوقظني في الصباح خادمٌ يعرفني منذ زياراتٍ أولى. سوف يزيح الستائر ويدعُ الشمسَ تفيض وتغمر الغرفة، ويدفع إليّ بطاولةٍ تحمل طعامَ الإفطار وعصير برتقال

طازج. ثم سوف يسأل عن حال لين. ويعطيني صحيفة من مائة صفحة ويتمنى لي نهاراً طيباً.

من السهل جعلي أشعر بالأمان والسعادة لفترة وجيزة. ولست بحاجة إلى أن أكون بالقرب من الرجل الذي أحب. أو بالقرب من لين. أحياناً يكون الإحساس بالأمان كامناً داخلي.

حين كنت صغيرة كنت أُفتن بمرأى القمر. إنه لا يثبَت، لكنه مُخلِص وهو ينظر إليّ. وإذا استيقظت أثناء الليل أراه هناك معلّقاً، شاحباً وغامضاً.

حين يكون ما يزال صغيراً جداً ورقيقاً أقفُ بالقربِ من النافذة وأنحني له ثلاث مرات احتراماً. بعدها تتحقّق لي أمنية. وإذا راودتني كوابيسُ أطلبُ من القمرِ ألا يتركني كلُ مَنْ أحب.

والدي تركني.

أتذكّرني جالسةً وحدي معه قبلَ إجراءِ العمليّةِ التي كانت الأخيرة له. ظلَّ الأطباء والممرضون يتوافدون ويخرجون - كانت هناك حركة نشطة واستعدادات تجري من حولنا - لكني شعرت وكأننا وحدنا. وحين قال وداعاً بصوتٍ غريبٍ عرفت أننا نكتم سراً مشتركاً. كنت في السادسة وكنت أحاول أن أكون شجاعةً ولا أبكي.

كنا نعيش في مدينة نيويورك حين وصلت برقيتان عبر الأطلسي. لقد مات والدي متأثراً بورمٍ خبيثٍ في الدماغ، وكان والده في داشاو، سجيناً في ألمانيا.

بعد ذلك ببضعة أسابيع عمَّ السلامُ أوروبا وعدنا إلى النرويج على

متن إحدى أولى سفن الشحن التي نقلت المسافرين. كان القبطان ثملاً طوال الوقت ؛ وفي إحدى المرات رأيته يرمي بقطيطة إلى اليمْ.

كان في إحدى الحجيرات رجل أعمى جالساً يقرأ كتباً بتمرير أصابعه على ورقة مكتوبة بأحرفٍ نافرة. وسمح لي بتجريبه ولا أزال أتذكر الإحساسَ على رؤوس أصابعي.

بعض أحرُف زوّدتني بأول انطباع عن بلدي. وقد دفعتُ أمي إلى البكاء وهرعتْ إلى حُجيرتها في الأسفل.

كان عمرها حينئذ مثل عمري وأنا أكتب هذا.

حاولت طويلاً أن أتذكرَ أبي. أتذكر اعتزازي بثوبي الجديد الذي ارتديته خصيصاً من أجل الجنازة وكيف كان الكلّ رقيقاً معي وعانقني.

أما هو نفسه – الإنسان : فلم يبق منه غير بضع صور.

ثمة شخص حملني مرة وارتقى بي الدرج ووضعني بعناية على السرير. وكان رأسي يرتاح في تجويف نحره.

لابد أنه كان أبي.

ورجلٌ سار معي على طول دربٍ ريفي. طويل القامة ويرتدي سترة من الجلد البني اللون ولم يفه بكلمة، ولكننا بأيدينا كنا نتبادل إشارات الضغط السرّية.

لابد أنه كان أيضا أبي.

والدي، الذي هو موجود في حياتي على مدى ست سنوات ولم يترك لي ذكرى حقيقية واحدة عنه. إنها ببساطة خسارة فادحة. إن هذا يحزّ في نفسي عميقاً حتى أنَّ الكثيرَ من تجارب حياتي لها صلة به. إنَّ الفراغَ الذي خلّفه موت أبي أضحى أشبه بفجوةٍ، تستقرُّ فيها تجاربي اللاحقة.

في تروندهيم حين كنت صغيرة كانت أمي تأخذني في حجرها وتحكي لي عن الأوقات الطيبة التي كنا قد أمضيناها في أميركا، وتعرض عليّ صوراً لفصل الصيف ولأطفالٍ وآبائهم واقفين متشابكي الأذرع ؛ وأبي يصطاد سمكاً ويبني موقداً ومرحاضاً، بينما أمي تضع أكاليلَ من الزهر وتعلّقها من أعناقنا وخصورنا عِوضاً عن ارتداء الملابس. وكنت أحزنُ لأن تلك الأوقات لن تعود أبداً.

صرنا نزورُ قبرَه كل يوم أحد، مصطحبين معنا زهوراً أو شموعاً أو إكليلاً من الزهر. كانت أمي دائما تبدو حزينة، وكنت أكره الوقوفَ أمام حجرٍ أبيض بارد يدّعي أنه والدي.

وذات يوم دفنتُ كلَّ عرائسي بجوار قبره. لم أكن أريد له أن يستلقي هناك وحده. وسرقتُ زهوراً من قبورٍ أخرى لأُضفي البهجةَ على المكان لأجل أبي والعرائس.

غضبَ مني الكبار كلُّهم. وتحدثتْ أمي عن الموت بحيث تجمِّله في عيني وتجعله أشبه بالحب.

أتمنّى أن أموت قريباً.

* * *

لين أيضاً لديها والد يرتدي سترة جلديّة بنّية اللون. وذات يوم حين كانت في الخامسة من العمر وقفتُ أتأمّلهما معاً. إنهما يسيران معاً على الطريق. وارتفعتْ يدها في الهواء لتلتقي بيده. ولم تكن قد رأته مدة عام كامل. فتاة صغيرة بوجه وضّاءٍ ثقةً وفخراً. بعد قليل سيقفان يداً بيد ليرى الجميع أنها خارجة في نزهة مع والدها.

لكنه يستغرق في حديثٍ مع كبيرٍ آخر وينسى أنَّ الطفلة إلى جواره.

تتراخى اليد ببطء، وتعبث برهة من الزمن بخصلة من الشعر تنسدل على جبينها. وترتسم في عيني الطفلة نظرة نائية. وتغلق ابنتنا على نفسها داخل تجربة. تجربة لاحظتها أنا، الواقفة في مكان قريب.

خلال عامي الأول في المدرسة أذكر أني كنت أجلس ساعات متواصلة والخوف يقبض على معدتي بانتظار فترة الراحة. أحياناً كانت تُقام ألعابٌ جماعيةٌ، ولكن فترات استراحة أخرى كانت بمثابة دقائق لا نهاية لها من اليأس الموحش أتظاهر خلالها بانشغالي في شيء ما أفضّل القيام به وحدي.

تبادل القذف بكرات الثلج. والخوف حين يقحم الأولاد الكبار رأسي في الثلوج.

كنت صغيرة ورقيقة البنية وعنيفة. لكني كنت الوحيدة في المدرسة التي في إمكانها أن تقف على يديها على مقبضيّ الدراجة.

ذات مرة وزّعت ورقة كتبت عليها " والد ليف كان سِكّيراً "، آملة في أن يرثي الآخرون لحالي وليتساءلوا من هذا الشخص الفظيع الذي كتب هذا الكلام الخسيس.

* * *

كثيراً ما كانت أمي تحكي لي ولأختي عن الفترة التي لم تكن فيها وحيدةً، حين كانت تنام في كلّ ليلة بالقرب من رجلٍ يحبها. حالةٌ من السعادة كانت ابنتان تحلمان بها باستمرار. أحياناً كنت أسمعها تبكي في غرفة الجلوس. وكان ذاك أمراً غريباً ومخيفاً. وكنت أحسب أنّ الكبار لا ينتابهم الخوف والحيرة أبداً، وأنّ لديهم أعمالهم وحفلاتهم وأنهم يربتون على رؤوس الأطفال الصغار. ينحنون من عالمهم الرائد

الذي عاشوا فيه طوال حياتهم، وينظرون إليّ بعيونٍ تعرفُ كل شيء وتفهمُ كل شيء. وحين دخلتُ على أطراف أصابع قدمي وحاولت أنْ أواسي أمي دفعتني عنها وهي تقول لي إني صغيرة جداً، وإني إذا أحسنتُ سلوكي سأحصل على شيءٍ جميلٍ في اليوم التالي.

كنت آوي إلى الفراش مرتدية أحدَ أثواب أختي، متمنّيةً أن يأتي أميرٌ أثناء الليل ويأخذني معه.

كثيراً ما كنتُ أجلسُ عندَ النافذة أبحثُ عن رجلٍ يرتدي سترة جلدية بنّية اللون.

* * *

العودة من المدرسة سيراً على الأقدام : تحتشد فتيات عند جدار قرميدي قديم. أشجارٌ باسقةٌ، تجعلنا نتخيّل أننا نعيش في قصرٍ مسحورٍ ربما لن يأتي أحدٌ ليحرّرنا منه.

أحاديثُ هامسةٌ تدورُ حولَ كلِّ ما يحدث ليلاً بعد أن ننام. وأمواتٌ يعودون ويلمسون الأحياءَ، يظهرون فجأة كأشباحٍ شاحبةٍ لا ينساها المرءُ دهره.

هناك أحلامٌ وأفكارٌ لم أعد أذكرها.

أولُ زهرةِ شقار زرقاء. المنحدرُ يكتسي فجأة بالألوانِ وكنا في اليومِ السابقِ لا نرى غير العشب. أتسلّق بمشقةٍ إلى القمةِ وأجلسُ هناك بعيدة عن بقيةِ العالم وأشعر مع ذلك بشيءٍ من الفرح.

أعرفُ أني كنت أمرّ بتجربةٍ جديدةٍ عند كل منعطفٍ في الدربِ المؤدي إلى المدرسةِ الذي يمكنني أن أتذكّره الآنَ وأتعجّبُ لأنه يبدو باهتاً جداً وخالياً من الحياة.

* * *

عيدُ الميلادِ هو أحدُ أفضلِ ذكرياتي. أراني جالسة في الكاتدرائيةِ وأنغامُ الأرغنِ تصلُ إلى كلِّ زاويةٍ من البناءِ الضخم. في طريقِ العودةِ إلى البيت نشعر بالتجمّد طوالَ مسافةِ طريقِ منكيغاتن، الذي كان ما يزال مرصوفاً بالحصى الكبير. ثمة عائلاتٌ أخرى تسيرُ عن يميننا ويسارنا وسعداءُ مثلنا.

وصلنا إلى البيت. فاحتْ رائحةُ لحمِ الخنزيرِ المشوي ومخلّل الملفوف. ثم كان الانتظارُ في غرفةٍ مظلمةٍ - جلسنا فيها أختي وأنا على الأرض، والإثارةُ تخزِنُنا من الداخل، لأننا نعرف أنه في غرفةِ الجلوسِ ثمة شجرةٌ تزيَّن استعداداً للاحتفال. نسمع خشخشةَ الأوراقِ ووقعَ الأقدامِ سريعاً ما يوحي بحياكةِ أسرار.

حين فُتِحَ البابُ أخيراً وشاهدنا، نحن الطفلتان، شجرةَ عيد الميلاد للمرةِ الأولى، منتصبةً في منتصفِ المكانِ، تتلألأُ بالشموعِ، كاد يغمى علينا من فرط الفرحِ.

أمي جالسةٌ عند آلة البيانو. كانت أصغرَ سنّاً مما اعتقدتُ. وأشواقٌ لم أدرك كنهها إلا بعد أن فات الأوان على المشاركة فيها.

حكاياتٌ تُحكى على حافّةِ السريرِ. كاكاو وخبز وزبد مع موز وهُلام التفاح. امرأةٌ جالسةٌ تميلُ فوقَ كتابٍ، رأسُها ذو شعرٍ قصيرٍ بنّي اللونِ مال قليلاً بعيداً عني، وبين الفينة والفينة ترفع بصرها إليَّ وتبتسم.

تلكَ كانت السعادة.

أنا موجودةٌ في لوس أنجلوس. قبلَ أربعٍ وعشرينَ ساعةً حين كنت في أوسلو مشيتُ منتعلةً حذاءَ الغالوش الواقي إلى دار المسرحِ بخطى مجهَدَةً لألعبَ دور نورا في " بيت الدمية ". وقد وفَّرت لي فترةُ أربعةِ أيامٍ فراغٍ من الأداءِ المسرحيّ فرصةً كي أضع اللمسات الأخيرةِ على فيلمٍ يُعَدُّ في هوليوود.

حين ركبتُ الطائرةَ في النرويج كان الجو شتوياً، وحين حطَّت بي بعدها بأربعٍ وعشرينَ ساعةً في كاليفورنيا كانت الحرارةُ تبلغ ٨٠ فهرنهايت (٢٧ درجة مئوية).

لا أستطيعُ أن أشاهدَ قممَ ناطحاتِ السحابِ أو المنظر الطبيعيَّ من فوق التلال بسبب مزيجِ الضبابِ والدخانِ الذي لا يكادُ يرتفعُ. وإذا ما عُثِرَ على شخصٍ ميت هنا فدائماً يُظهِرُ فحصُ الجثّةِ إن كان قد أمضى في المدينة أقلّ من ثلاثةِ أسابيع، فتلك هي المدّةُ الزمنيةُ التي يستغرقها هذا النوعُ من التلوّث ليغزو الجسدَ الإنسانيَّ، وبعد ذلك يَنتشر.

اليومُ الأحد. وأنا مستلقيةٌ على أرجوحةٍ شبكيّةٍ ممدودةٍ بين شجرتيَّ نخيل. اهتماماتُ العالمِ ومشاكله لا تنفذ إلى هنا حيث الوردُ والمروجُ الخضر، وموسيقى ناعمة تسري من النوافذ المشرّعة، ويناولني صديقٌ

مشروباً بارداً - هو مزيجٌ من عصيرِ فاكهةِ الحديقة. إنها بضعُ ساعاتِ هروبٍ من الواقع. لا مكالمات هاتفية، ولا ضغوطاً. فقط سكينةٌ.

أغفو وأنا هناك على الأرجوحةِ الشبكيّةِ وأحلمُ بأني نورا، أرقصُ رقصةَ التارانتيلا في بولفار صَنْستْ.

* * *

نتناولُ طعامَ الغداءِ مع بعضِ الأصدقاء. هو مخرجٌ سينمائيٌ وقد انتهى لتوّهِ من إخراجِ أولِ فيلمٍ له. وهي زوجتُهُ التي تعيشُ فقط لتدعمَ مستقبلَ زوجها. عاشا بضعَ سنينٍ في نيويورك، لكنهما انتقلا إلى لوس أنجلوس، واشتريا منزلاً لا يقْدِرانِ على تكاليفه. وسعياً للتعارفِ إلى أناسٍ لا يأبهان بهم في الحقيقة. وانخرطا في حياةٍ اجتماعيةٍ مع رجالٍ ونساءٍ الشيءُ الوحيدُ المشتركُ بينهم هو الأمل في أن تُثمرَ هذه العلاقة أعمالاً في المستقبل.

يرى البعضُ أن ممّا يبعثُ على الإحساسِ بالعزلةِ بل ومن المستحيلِ ألا ينخرطَ المرءُ في " الحلقاتِ الاجتماعيةِ المناسبةِ " وهو يتدافعون ويتسلّقُ بعضهم على ظهور بعضهم الآخرِ لينضمّوا إليها ؛ فيذلّونَ ويفقدونَ أرواحهم في مكانٍ ما على الطريقِ نحو هدفٍ لا وجود له.

المخرجُ وزوجته يمرّان بوقتٍ عصيبٍ. وتراها وسطَ حالة عدمِ الإحساسِ بالأمانِ تبذلُ أقصى جهدها أثناء وجودهما مع أناسٍ آخرينَ كي تبثَّ الخوفَ في قلوبِ مَنْ تودُّ أن تقيمَ صلةً معهم. فتخبرهم أن زوجها هو أكثرُ الناس موهبةً وأنه سيغدو أعظمَ مَنْ عليها، وسيُخرِجُ أفضلَ الأفلامِ، ويجني أموالاً طائلة - وإذا ما افتقدَ العزيمةَ فستزوّده بها.

مرَّ عامٌ منذ أن رأيتها آخرَ مرةٍ، وكان التغيُّرُ الذي طرأ مذهلاً. كانا حينئذٍ قد وصلا لتوهما من نيويورك، حيث كانا يعيشان حياةً هانئةً تماماً. لعلها ازدادت بدانةً قليلاً وكان لونُ شعرها أسودَ جميلاً وتتحرَّقُ شوقاً للحياة التي تنتظرهما في كاليفورنيا. والآن باتت تحيطُ بفمها خطوطٌ صغيرةٌ حادةٌ. إنها متوترةُ الأعصابِ وتدخِّن السجائرَ طوالَ الوقت.

إنهما يتحدّثانِ بحماسٍ عن الحفلاتِ التي ارتاداها، وعن كلِّ مخططاتهما ومعارفهما. وهي فقدتْ عشرين باونداً - هل تلاحظون ذلكَ عليها ؟

من الناحيةِ الجسمانيّة لم تَعُدْ كما كانتْ مفعمةً بالحيويةِ والنشاط. تبدو لا حولَ لها ولا قوةَ وتثيرُ الشفقةَ قليلاً. وقد صبغَتْ شعرها فصارَ مائلاً إلى الحُمرةِ ولم تعد تكفُّ عن الكلامِ - وكأنها لا تدري ماذا تقولُ. إني أرثي لحالها أشدَّ الرثاءِ. إنها تلمسُ غريزةَ الحمايةِ داخلي؛ وهي تتّصفُ بسجايا جيدةٍ لن تثمرَ أي شيء في ظلِّ الحياةِ التي اختارا أن يعيشاها الآن. وأعتقدُ أنها ستكونُ شخصاً مختلفاً في كلِ مرةٍ أقابلها : الخططُ المستحيلةُ للمستقبلِ الذي تبنيه. توقُها إلى الصداقةِ، في وقتٍ تتصيّدُ العلاقات النفعيّة. الإحساسُ بالوحشةِ بجانبِ بركةِ السباحةِ ومنزلهما الجديدِ الكبيرِ الذي لا يكادُ يحتوي أثاثاً. ولا أطفالاً. في السابقِ كانا يرغبانِ في أن يظلا اثنين، والآن أصبح لديهما النجاحُ الباهرُ. الحلمُ الأميركي. النجاحُ.

حلمُها أن تقف جنباً إلى جنبٍ مع زوجها وتصبح من ذوي النفوذ في مدينة صناعة السينما؛ أن تنتمي إلى الطبقةِ الراقيةِ. وعلى مائدةِ الطعامِ شبكتْ ذراعها بذراعي ورحنا نثرثرُ بكلامٍ فارغ.

أشعرُ بحاجتها إلى صديقةٍ - أحسُّ بذلكَ من سيلِ الأسرارِ التي تصبُّها في أذنيّ.

أحْضِرتْ المشروباتُ. تبتسمُ مشجِّعةً زوجها. وتخبرنا كم هو بارعٌ، كم هو كفءٌ، وكم هي فخورةٌ به.

يجلسُ الخوفُ معنا على المائدةِ - وأرتعدُ لمجرَّدِ التفكيرِ في أني قد أقابلها بعد عشرِ سنينَ من الآن.

كنت في الثامنة من عمري وكانت الماما تذهب للعملِ في إحدى المكتبات.

ثم جاءت كارين إلينا.

لا أدري كم كان عمرها. لكني أذكر أن الكثيرَ من السيدات قدمْنَ إلى المنزل بعد أن أنزَلَتْ الماما إعلاناً في الصحيفة. تجمهرنَ ضمنَ مجموعةٍ مرتبكةٍ عند المدخل. وفجأة، خلعتْ إحداهن قبعتها وتقدَّمت قاصدةً غرفةَ الجلوسِ وجلستْ في أفضلِ المقاعد. ابتسمتْ ابتسامةً عريضةً، وقال التعبيرُ المرتسمُ على قسماتِ وجهها إن كلَّ شيء قد تمَّ.

تلك كانت كارين.

لم تجرؤ الماما على الرفضِ حين أعلنتْ كارين أنها قرَّرت أن تحصلْ على الوظيفة حين رأت الـ " مدام ".

أعتقد أنها كانت مفرطةَ البدانةِ وشديدةَ الدمامة. وأحببتُها.

كانت مولعةً بعائلتها الصغيرة الجديدة - وأحبَّتْ الماما فوق الجميع. وكأنها فهمت أكثر من أي شخصٍ آخر ما كان ينقص الماما وسط حلقتها من الأصدقاءِ المتزوجين الأثرياء، ومنذ اليوم الأول أجلستْ الماما في صدر البيت، وتولَّتْ هي أمر كلِّ شيءٍ دون أن يُطلَب منها ذلك، وأصرَّت على أن الـ " مدام " يجب أن تكون حرَّةً وترتاح بعد عودتها من المكتبة.

أحياناً كانت كارين ترافقنا أختي وأنا لنتمشّى. وكنا متأكدتين من أنها تفعل ذلك ليظن الناس أنها أمّنا. وكنت دائماً أخشى أن تنجح في تحقيق مسعاها. وكانت ترتدي ملابس غريبة الشكلِ وكان لها فكٌ بارزٌ يتحرّك بطريقة خرقاء، وكنت دائماً إما أحثُّ خطوتي لأتقدّمها أو أتلكّأ لأغدو خلفها، لكي لا يشك أحد بوجود أية صلة قربى بيننا.

كانت ترافقنا إلى ملبنة، وتضطرنا إلى شرب حليب لا يزال دافئاً أخذ من البقرة مباشرة. كان شيئاً فظيعاً.

أذكرُ رائحة كارين. كانت دائماً تخبز الخبز وتشطف الأرضية بصابون بوراكس (البورق). وكانت ضخمة الجثة وتشعُّ بالحرارة مما يعيقها عند الانحناء. وذات يوم كانت في المطبخ تبكي لأنها خلعت كل أسنانها. وتطلّبَ تركيب الطقم الجديد لها أسبوعاً كاملاً. وفجأة بدت شخصاً غريباً بسبب الفجوة الغريبة التي ظهرت في وجهها حيث كان فمها. ورحت أتجنّبها قدر استطاعتي، مما جعلها تبكي أكثر فأكثر، مع نشقات عالية.

لم تكن ماهرة في قراءة القصص، بل إنها كانت قليلة الكلام. ولكن حين تضع شراب الكاكاو في الأمسيات وتجلس معنا على مائدة المطبخ وتبتسم لأنها هي، أيضاً، تُعتَبَر فرداً من العائلة، كنتُ أشعر بسعادة وطمأنينة هما أقصى ما أذكر أني شعرت به في طفولتي.

مرة واحدة فقط رأينا منزل كارين. كنا قد خرجنا نتمشّى ذات يوم أحد فمررنا بمجمّعٍ سكني مرتفع رمادي اللون وكانت تسكن هناك، فقالت الماما هيا سنفاجئها بزيارة.

ارتعبت كارين وارتبكت. كان بيتها عبارة عن غرفة مظلمة صغيرة

تكوَّمت على الطاولة الوحيدة فيها شريحة ساخنة من لحم البقر مع أطباق وأدوات للزينة. وصحاف منتشرة على الكراسي، وهناك نافذة واحدة تطلُّ على جدار أبيض لا يبعد إلا بضعة أقدام. وسرير ضيّق - وتعجَّبت كيف في وسع جسد كارين الضخم أن يرتاح عليه.

قدَّمَتْ لنا قهوة وكانت الماما الوحيدة التي تكلَّمَتْ. بدا على كارين الارتياح حين أوشكنا أن نغادر.

قالت الماما " هذه الزيارة ستُسعِد كارين "

كنا دائماً نرى الأمورَ بشكلٍ متناقض.

ماتت وهي نائمة ذات ليلة على سريرها الضيق. بكيتُ أكثر مما فعلتُ حين أبلغتني الماما بوفاة البابا.

يؤنِّبني ضميري حين أفكِّرُ في أنها ربما كانت تعرفُ لماذا كنتُ دائماً أُسرِعُ لأتقدَّمها، أو أتلكَّأ في خطوتي خلفها ونحن نسير في الشارع.

يوم عـمل في هوليـوود. أنا هنا لأسـجِّل عـشـرين سطراً في فـيلم سينمائي سيُفتتَح العرضُ الأول له قريباً.

المنتج جالس في إحدى زوايا الاستديو يشهدُ الجوَّ الثقيلَ الناجم. المخـرجُ في مكانه المعتـاد. سبعـةٌ من التـقنيين جـالسـون يخـيِّمُ عليـهم الصـمت خلف لوحٍ من الزجـاج. الغـرفـة مـلأى بالميكروفـونات والأسـلاك الكهربائية.

إنه الفيلم الأميركي الأول ليان ترويل. وهو يقفُ في وسط المكان، يلوِّحُ بذراعيه القويتين جيئةً وذهاباً بحركات منسابة مدروسة. إحدى يديه تقـبضُ على مـضـربِ كـرةِ مـضـرِب غـيـر مـرئي. فـي المسـاء سوف يتـلقّى تدريباً على يد بطلٍ سابقٍ للعالم في كرة المضرِب. رجِّعْ ذراعيك - ارفع نفسك قليلاً على أطراف أصابع قدميك - احنِ ظهرك - واضربْ! لم يُدهَشْ أحدٌ لسلوكه الغريب نوعاً ما.

بقيَ المنتجُ بلا حِراك طوال فـترة الصباح. كان ذا لحيةٍ حمراء، لا تناسبه، وعينين رقيقتين. إنه غائصٌ في حلمٍ ذهبيّ. الفيلم الذي نعملُ فـيه سـيكونُ إمـا إجازةَ دخولٍ أو خـروجٍ له من عـالم الإنتـاج. إذا نجحَ فسيتمكّنُ من دفعِ ثمن منزله، وإقامة ملعب التنس الخاص به، وستتوفّرُ

لديه النقود لإنتاج فيلمٍ آخر، وللتعاقد مع الممثلين الذين يريدهم. ولن يعودَ مظهره المتواضع عائقاً أمامه.

في رأسي ألف شيءٍ - يجب أن أفعل كل شيء قبل أن أطيرَ إلى بيتي في أوسلو وإلى المسرح.

بينما نحن منشغلون، كما تدلُّ عليه كلُّ المظاهر، بأمورٍ متنافرةٍ تماماً، ثمة فيلم يتطلَّبُ حفظ عشرين سطراً جديداً.

* * *

عددٌ لا بأس به من الناس اجتمعَ على مائدة الغداء. نوقشَتْ خلاله مشاريعُ تصويرِ أفلامٍ جديدة. النجاح يُقيَّمُ بعددِ العروضِ التي يتلقَّاها المرءُ. فكلما ارتفعتْ قيمة المبالغ التي تُعرض عليك، ألحَّ المنتجون أكثر على وكيلهم ليدفع لك المزيد.

هذه هي طريقة هوليوود في التحدُّث عن أحوال الطقس.

توقَّفَ ممثلٌ عجوز عند مائدتنا. ألمانيّ الجنسية. انهمرَ منه سيلُ من الكلمات الخانقة: زوجته تركته مع أطفاله الخمسة. يهمسُ، وهو يتلفَّتُ حوله بعصبيّة، مُلمِّحاً إلى أني الوحيدة الجديرة بسماعِ سرِّه. لكنني سمعتُ أنه حكى حكايته مرات عديدةٍ، إلى كلّ مَنْ لديه وقتٌ ليسمعها.

إنه لا يفهمُ. ظنَّ أنهم سعداء جداً. كان لديها المنزل الجميل. موقعه منعزل قليلاً - يعترفُ بذلك - لكنه جميلٌ جداً ... ثم إنها لم تكن قط وحيدةً، فالأطفال يتطلَّبون الكثير من العمل. لقد كان دائماً طيِّباً معها، ويحبها، وفعلَ كل ما في وسعِهِ ليوفِّرَ لها السعادة. ربما كان يُكثِر من أسفاره، ولكن إذا لم يكن في استطاعته أن يجدَ عملاً في مدينةِ السينما نفسها - فماذا يفعل؟

والآن ها هي قد رحلتْ، وهو يخبرني سراً أنه متأكِّد من أنها كانت مجنونة طوال الوقت، إلا أنه لم يكن يدركُ ذلك. كان من السهولة بمكان خِداعه. إنه ينوي أن يحصلَ على شهادةٍ من طبيبٍ تُثبِتُ جنونها لَكي لا تفكِّر أبداً في العودة والمطالبة بالأطفال. فهل أقبلُ أن أُدلي بشهادةِ إثبات في المحكمة ؟

إنه نحيلُ ويداه ترتعشان. وفي وقتٍ من الأوقات كان رجلاً وسيماً تحاولُ العديد من الفتيات الحصولَ عليه. وأخيراً تزوَّجَ من أصغرهنَّ سناً. وجاء الأطفالُ - واحداً كلَّ عام - وانتظرا مجيء السعادة ؛ انتظرا وضعاً يشعرون فيه بالراحة والأمان. والآن سيتقابلُ الاثنان في قاعة المحكمة، وسوفَ يُفضيان بكلّ ما لا يعرفه كلٌّ منهما عن الآخر لُمحامين لا مُبالين وسئمين.

كنت في كل يوم سبت أُعِدُّ عرضاً مسرحياً في قاعة الألعاب الرياضية في المدرسة. وكنتُ أَكتبُ الحوارَ بنفسي، وأُخرِجُ العملَ بنفسي وأُمثِّلُ أفضلَ الأدوار. وبعد مرورِ العروض الأولى، يظهرُ سوء إعدادي الشديد، ويضطرُّ الممثلون إلى الارتجال أمام المشاهدين. ونتيجةً لذلك ندُرَ مشاهدو عروضي.

لكني لم أهتمّ. فما حاجتنا إلى المشاهدين ؟

لقد كنا نعيشُ استمتاعنا الخاص : المساحيق، الأزياء، الإمكانية لدي محدودة لإعمال الخيال. لم يحدث أبداً بعد ذلك أنْ كان المسرحُ على ذلك القدر من المتعة، ولم يحدثَ مرة أخرى أن أُقيمَ اتِّصالٌ مماثلٌ مع الكلمة المكتوبة. الضحك والدموع ؛ التكاتفُ مع الآخرين الذين كانوا بدورهم يعيشون حياتهم السرِّيةِ على خشبة قاعةِ الألعابِ العارية.

اللحظة السحرية جاءتْ حين كنتُ طفلةً صغيرةً وأرتني ثاليا[1] لأول مرة وجهيها الاثنين.

السماحُ بارتياد دار السينما في يومٍ معيَّنٍ. الطوابير تمتدُّ وتنعطفُ حول الزوايا، تجعلُ الوليمةَ المُعدَّة في الداخل أكثر روعةً لأنَّ الوصولَ إليها أمرٌ غاية في الصعوبة.

لم أعُد أذكر كلَّ ما كنتُ أراه، لكنَّ الانفعالات، الإثارة، والرائحة لا تزالُ حيَّة. صوتُ الجرس، والأضواء التي تُعتِّمُ ببطء. العينان مغمضتان بإحكام، وذلك لأنَّ اليدين تضغطان عليهما ؛ وحين تعودُ أخيراً فتنظر، تكونُ المعجزةُ قد حضرتْ لتوّها هناك على الشاشة.

الصور السينمائية، الهروب من الواقع، عالم الأحلام : تجاربُ وأناسٌ آمنتُ بأنهم سيغدونَ جزءاً من حياتي اليومية في المستقبل. كانت المآسي من الضخامة بحيث تعلقُ غصّةٌ في الحنجرة حتى بعد ذلك بساعات ؛ والعجائب من الروعة بحيث أنَّ القدمين لا تلمسان الأرضَ طوال طريق العودة إلى المنزل.

فيلما " معجزةٌ في ميلانو " و " أضواء المسرح " شاهدتهما عشر مراتٍ أو عشرين مرة، وافتتاني بهما يكون حقيقياً كما في كل مرة. الأبطال والبطلات كانوا أناساً إما خيِّرين أو أشراراً. لم يكونوا قط عاديين ومملّين كالناس الذين نعرفهم في تروديم.

والحب.

تقتُ إلى اختباره كما يحدثُ على الشاشة : الدنوّ حتى الالتصاق من رجلٍ ذي قميصٍ أبيض وابتسامةٍ بيضاء ينظرُ نحو الأسفل إليَّ برقَّةٍ ويهمسُ الكلمات نفسها التي يهمسُ بها البطل للبطلة.

وأسمعُ عزفَ آلات الكمان وهو يُقبّلني.

وأتمنى لو أكبر بشكلٍ أسرع. وأنظرُ بقلقٍ إلى ثدييَّ المُسطَّحَين.

في طريق العـودة من لوس أنجلوس إلى النرويـج هناك فـتـرة تـوقُّف في مطار لندن. لديَّ مقابلةٌ هامّة مع صديق، وهو كاتبُ موهوب جداً.

إنني مسـافرةٌ من الطراز الأول، يُسمَحُ لي باسـتخدام أريكةٍ صغيـرةٍ وأغـوصُ فـي الوسـائد الوثـيـرة، وتُقـدَّمُ لي المشروبـات المجانيّـة مـصحـوبةٌ بموسيقى خافتة.

نتـحـدَّثُ عن فـيلمٍ نـريدُ أن نعـملَ فـيـه معـاً. كـان منهـمكاً منذ عدة أشـهر فـي إعدادِ قـصـةٍ سـينمـائـيّـةٍ، عن روايـة لكارين بليـكسن[٢] ألهـبَتْ خيالنا. تحكي عن امرأةٍ تدوِّنُ، تحت اسم أيزاك دينيسن[٣]، تفاصيل علاقة حبٍ مع بلد، والنتـيـجة إحدى تُحَف الأدب المعاصر. أرى المشروع بمثابة وسيلةٍ للاقتراب منها ؛ أقرأ عنها، أتحدَّثُ مع أناسٍ قابلوها، أغوصُ في مؤلفاتها من جديد، أزورُ محبوبتها أفريقيا. سوف أقضي سنةً من عمري أُنقِّبُ في عالمها.

أنا مـتـأكِّدة من أني أريد أن أقـومَ بهـذا العـمل، حـتى وإنْ رفـضـه وكيلي، ربما لأنَّ الفكرةَ غير تجارية. لقد مضى الزمنُ الذي كان يُعتَبَرُ فيـه مجرَّدُ إنجاز فـيلمٍ سينمائيّ مغامرةً قائمةً بحدّ ذاتها، ما دمتُ أقولُ نعم بدون تمييـز لكل شيء. ها أنا جالسة مع رجلٍ لا يتحدَّثُ عن النقود

أو يعدُ بأن يوضعَ اسمي قبل عنوان الفيلم (وهذا، طبعاً، هو أعظم شيء على الإطلاق - شيء جدير بالعديدين أن يتنازلوا عن جزءٍ من أجرهم لتحقيقه). وصديقي يريدُ مني أن أفعل ذلك ليس فقط بسبب ما يعرفه عني كممثلة، وإنما أيضاً بسبب ما يعرفه عني كامرأة.

أقول له إنه يسعدني أن أُنجزَ الفيلم بدون مقابل.

حان وقت الطيران.

بعيداً عن الأريكة المرفَّهة، والكُتَّاب، وخطط المستقبل، وهوليوود، في طريقي إلى النرويج، إلى المسرح والأداء المسائي.

أنا سعيدة.

أصبو إلى الإحساس بالحرية الذي يهبُّ عليَّ من خلال صمت النظارة وضحكهم. عبر هذا الاتصال أحصلُ على مكافأتي - أكثر مما أحصل عليها من التصفيق الذي يأتي لاحقاً.

أروقةٌ ضيِّقةٌ وغُرفُ تبديل الملابس صغيرة ومزدحمة، وفرحُ العمل ضمن فريق، ورائحة الأثاث العتيق وعدَّة المسرح. أرى الأزياء المُستخدَمة أفضل استخدام وهي مُعلَّقة الآن تنتظر، وقد كويَتْ حديثاً، وأعيشُ الحياة الخاصة بي في وقتٍ لا أحد يعرفُ بوجودي.

الخوف من الظلام.

كنتُ في الثانية عشرة. كانت أختي تكبرني بسنتين قد بدأتْ تقوم بأولى غاراتها على الحياة الاجتماعية، وكانت الماما منخرطةً في حلقةٍ ناشطةٍ من الأصدقاء. كنتُ في سنٍ لا تسمحُ بأن تكون لي جليسة أطفال.

كنتُ طوال النهار مملوءةً بالخوف من اللحظة التي يهتفُ بها لي آخرُ شخصٍ قائلاً" تصبحين على خير "، من الصالة وأسمعُ البابَ يُصفَقُ بقوة، وأنا مستلقيةٌ على السرير. وتزأرُ الشقةُ بسكونها في وجهي.

الزوايا مظلمة. القلبُ يضربُ بقوة. صورة والدي تحت وسادتي. طاسٌ من الماء بجوار السرير حتى أبلل عينيَّ باستمرار لأبقيهما مفتوحتين. والخطرُ من السقوط أثناء النوم ومن أن يُهاجمني شيءٌ يكمنُ لي بين أهوال الليل.

وأخيراً، الهروب إلى الحمَّام. الارتياح يكون حين يُرتَجُ البابُ، في غرفةٍ يمكنني أن أرى كلَّ زاويةٍ منها رؤيةً واضحةً تماماً. والاحتماء باللحاف وبالكتب، والاستغراق في النوم من فرط الإرهاق على أرض الحمَّام إلى أن يعود أول شخص إلى المنزل ويدقُّ الباب بشدة ويسألُ أي نوعٍ من الحماقة الصبيانية تجري هناك.

موقف سيارة الأجرة بعد انتهاء الأداء في " بيت الدمية " في أوسلو. معي أمتعةٌ لأني عدتُ لتوي اليوم من الخارج. إنها الحادية عشرة والنصف وأنا مرهقة. يوم عمل في هوليوود تبِعَهُ طيرانُ عشرين ساعة وأداءٌ مسرحيٌّ مدة ثلاث ساعات. الناس عند الموقف يحدِّقون إليّ، لأنهم شاهدوني لتوِّهم على خشبة المسرح وأنا بملابس التمثيل. لا أبدو في أحسن حالاتي الآن فأحدِّقُ إليهم بدوري من مجلسي على إحدى حقائبي. التصفيقُ والتهليل تُرِكَ هناك على المقاعد وعلى خشبة المسرح. أما الآن فالجمهور والممثلة يشعرون بالحياء وكلٌ منهما يحترسُ من الآخر.

أتظاهرُ وأنا في سيارة الأجرة بأني نائمة لأتجنَّبَ التحدُّث مع السائق، والإجابة عن الأسئلة : أليس أمراً مُثيراً كثرة السفر، وأليس التمثيلُ ممتعاً، وألمْ أصبح فاحشةَ الثراء ؟

لا أكتشفُ إلا بعد أن يُنزِلَني السائق أمام منزلي أني نسيتُ المفتاح. " لين " ليست في المنزل وأجدني أُمضي الليل كلَّه على الدرج مع أمتعتي، أشبهُ نسخةً حديثة من " بائعة الكبريت الصغيرة " تحتضرُ من برد الشتاء وفي حقيبتها دفتر شيكات ومجوهرات.

مع جارتي مفتاحٌ إضافي. أمشي بضع خطوات لأصلَ إلى بابها.

يُقـابلني وجـهٌ ضـاحكٌ من النافـذة حين أضـغطُ على زر الجـرس، ثم ابتسامات وثرثرةٌ وكأني لم أزعجهم في منتصف الليل. هي ترتدي رداء نومٍ قصيراً مُزيَّناً بالزهور. ساقاها عاريتان وجميلتان، وتظلُ تتقافزُ من شدة البرد.

أحصلُ على مفتاحي ؛ زوجها يربتُ على النافذة ويلوِّحُ لي بيده. وهي تظهرُ من خلفه وتحيطُ عنقه بذراعيها. لعلي وصلتُ حين كانا قد باشرا ممارسة الجنس.

أدخلُ منزلي وأستلقي على السرير. أشعرُ بأني أُقصيتُ عن شيءٍ حيوي. الخوف داخلي من الوحدة : هو أنَّ ما يملكه الآخرون فقط حقيقي.

مدرسةُ تعلُّم الرقص. أنا في الثالثة عشرة. نحيلة وخرقاء، وشعري مقصوصٌ قصيراً جداً.

لا تزالُ الألحان التي كنتُ أسمعها في تلك الأيام تشحنني بالبغض؛ بذكرى الفتيان بقمصانهم البيضاء وهم يندفعون كالصاعقة إلى ساحة الرقص حين تُصفِّقُ المُعلِّمةُ بيديها وتقول " كلٌ مع رفيقته ".

هناك دائماً المجموعة الصغيرة ذاتها التي يتظاهرُ أفرادها بأنهنَّ يفكِّرن في شيءٍ آخرَ حين يجلسنَ ويبدأ الرقصُ بدونهنَّ. وفي الرقصة التالية، حين يضطرون إلى النهوض ويقطعُ الفتيان القاعةَ بخطى الحلزون ويُجبرنَ على قبول أحدهم أولاً.

إنهنَّ أزهارُ الجدار[1] في جيلي.

لم يدركن أبداً أنهنَّ يشاركنَ آلاف النساء مصيرهن، الصغيرات منهنَّ والراشدات، وفي كل أنحاء العالم. بناتٌ في الثالثة عشرة، مقتنعات بأنهنَّ سيبقينَ أزهار جدار حتى آخر حياتهن. وهذه تجربةٌ فريدةٌ بالنسبةِ إلى كل واحدةٍ منهن.

المعلِّمةُ صغيرةُ الجسم وأنيقة، ترقصُ وتدورُ وكأنما وجدتْ أنَّ الإيقاع الموسيقي هو أسهل شيءٍ في العالم، ويشكِّلُ جزءاً منها ككتلةِ الشعرِ

المُجمَّعة فوق رأسها بخصلات صغيرةٍ والكعب المسماري في حذائها. وكان لديها أثوابٌ تراها دائماً جديدة وجميلة، ومجوهرات تتلألأ مُدلاّة من أذنيها، وعنقها، وتُرصِّعُ أصابعها. والثديان والخصر النحيل فوق انحناءة الردفين والأظافر الطويلة الحمراء تضعُ نهايةً حتميّةً لإحساس ابنة الثالثة عشرة بقيمة ذاتها.

وهناك الإحساس بالقلق أثناء فترات الاستراحة.

أتوجَّه إلى المنزل، بعد أن يبدو أنَّ الباقين كلُّهم خرجوا مجموعات أو أزواجاً. ينتابني إحساسٌ مُسبَقٌ بشعورِ المرأة بالإهمال حين تكونُ هي وحدها، واليوم هو الأحد، وكل ما حولها يضجُّ بالحياة ومفعمٌ بروحِ التجمُّع والعائلة.

حفلتي الاجتماعية الأولى أمضيتها في غرفة ملابس السيدات مرتديةً ثوبَ أختي الحرير الزهريّ اللون المنبوذ.

تقبَّلتُ فشلي كشيءٍ مفهومٍ وكامل. وتنبَّأتُ بأني سأمضي بقية حياتي غريبةً، ولكن خلف بابٍ مغلقٍ كما يناسبني، حتى لا يعرفُ بأمري أحد.

كل يوم أقومُ بمحاولةٍ للكتابة. ومن الصعوبة بمكان أن أفعلَ ذلك في المنزل حيث المكالمات الهاتفية، ولين، ومربيات الأطفال، والجيران. ولو كنتُ رجلاً لاختلفَ الأمر. فمهنة الرجل محترَمَة أكثر بكثير، وهي كذلك فعلاً إنْ كان يقوم بها في المنزل، وكذا تعبُه، وحاجته إلى التركيز.

أحاول أن أشرح للطفلة أنَّ الماما تعمل، في حين أنها تراها فقط جالسة تكتب. وأشرحُ للممرضة أنهم يدفعون لي بسخاء مقابل أن أنفِّذ ما هو مطلوبٌ مني - أقولُ لها إنَّ هذا أمرٌ مهم، ويجب إنهاؤه في موعد مُحدَّد - فتنصرف عني وهي تهزُّ رأسها، مقتنعةً بأني أهمِلُ طفلتي ومنزلي. إنَّ نجاح الإنسان في مهنته ومحاولته أن يؤلِّفَ كتاباً لا يعوِّضُ عن تقصيره في واجباته البيتية كما هو واضح في حالتي.

أجلسُ في الطابق التحتي أضرب بقوة على الآلة الكاتبة، إلى أن يقودني ضميري السيئ إلى المطبخ. أشربُ قهوةً مع الخادمة، وأقرأ للين، وأتكلَّمُ بأدب على الهاتف وكأنَّ كل الوقت رهن أمري.

لكني طوال الوقت كنتُ أغلي من شدة الغضب. من المدهش أنَّ الغضبَ العارمَ يمكنُ احتواؤه خلف واجهةٍ من الهدوء التام.

مكالمات هاتفية من أميركا، ومن باريس وإنكلترا وأوسلو. واحدة

منها فقط أترقَّبُها، وهي التي تجبرني على تلقِّيها جميعاً.
والحاضنة لا تردُّ على الهاتف مطلقاً - إنها لا تُحسِنُ الإنكليزية.

يقترحُ عليَّ ناشري أن أفصِلَ الجهاز، لكنَّ هاتفي يظلُّ يرنُّ في كل الأحوال، لأنَّ تركيبه خاطئ. أستطيعُ أن أضعَ الجهازَ في الخزانة، لكنَّ الجدارَ يرنُّ. ومن الصعوبة بمكان أن أكتبَ تحت هذه الظروف.

أهرعُ إلى الهاتف، أتحدَّثُ من كاليفورنيا، حيثُ الدنيا ليل - ما أشدَّ رِقَّة الهواء هناك وغرابته. هنا تشرق الشمس - والثلج يتراكمُ على أشجار البيسية خارج النافذة. وها أنا موجودة في عالمٍ وأتحدثُ مع عالمٍ آخر. أخربشُ على قطعةٍ من الورق وضميري يعذبني، لأني أمٌ فاشلة، لأني مُقصِّرة ؛ لا أجيبُ على الرسائل، لا أصلح الحنفيات بل أتركها تقطر على مدى شهور لا تنتهي.

أشربُ القهوةَ مع إحدى الجارات وأنتحلُ الأعذارَ لكل ما افعل، لأني أعرفُ أنها لن تفهم مطلقاً لماذا أجدُ ذلك مهماً بالنسبة إليّ. يا لهذا " الإحساس الأنثوي الفظيع بالذنب ". لا أجرؤ على الاستماع إلى الموسيقى وأنا في الطابق التحتي، أكتبُ، مخافة أن يظنَّ الذين في الطابق العلوي أني فقط جالسة هنا أضيِّعُ وقتي. أشعرُ أني لكي أصبح محترمة يجب أن أصنعَ الفطائر المحلاّة والخبز البيتي وأحافظَ على أناقة الغرف وترتيبها.

بهذا أفكِّرُ وأنا أحاولُ أن أكتب عن جمال الحياة التي تتيحُ الكثير من الحرية، والكثير من الخيارات : " أستطيعُ أن أكونَ حرةً بإرادتي ؛ أن أكونَ خالقةً لذاتي ومرشدتها. إنَّ نمّوي وتطوُّري يعتمدان على ما أختاره أو أستبعده في حياتي. داخلي توجدُ بذورُ حياتي القادمة ".

جرسُ الهاتف يرنّ. الخادمة تدقّ على الباب وتدخل قبل أن يُتاحَ لي أن أردّ. لقد اكتشفتْ ثقباً في سروال لين.

أضحكُ وفمي على سماعة الهاتف، ولاحقاً أتساءلُ هل أرفو الثقب أم أرقّعه بقطعةٍ ذات لونٍ زاهٍ.

المدرسة.

المواضيع الدراسية. الدروس - لقد نسيت نوعاً ما ماذا كانت. إنَّ كل ما كنت حتى في ذلك الحين أشعر أنه لن تكون له فائدة لحياتي اللاحقة أحلتُهُ إلى خلفيةِ ذاكرتي، حيث يُشكِّل كلُ مضيَعة للوقت، وكلُ خطأ فاضح، وكل حماقة، كتلةً صغيرة قاسيةَ أعود إليها بانتظام وأتحسسها.

من الأسهل بالنسبة إليّ أن أتذكَّر الانطباعات البصرية : لون المقاعد الخاصة بالمدرّسات، المختلفة الأشكال والأحجام، تقف مهدَّدة في آخر غرف الدرس، والمؤشرات[٥] موضوعة بشكلٍ مستعرض عليها. والطباشير، الذي إما أن يكون مكسوراً في اليد أو يُصدِر صريراً مزعجاً على السبورة.

والقفازات الصوفية التي كنا نصنعها في درس الخياطة، وسراويل الألعاب الرياضية والمآزر المدرسية التي تغدو أقذر فأقذر بين أصابعي الكارهة المتعرِّقة. وأنهارٌ وحدودٌ وسلاسلُ جبالٍ حُفظَتْ أسماؤها عن ظهر قلب بإجراءٍ معقَّدٍ لا نهاية له - أردِّدها بارتجالٍ في أول يوم وأنساها تماماً في اليوم التالي.

دروس التدبير المنزلي في المدرسة : فرك المدافئ، وخفقُ الدماء الحارَّة للحصول على "بودنغ " محروق، وكشط الأرضية. تستشيط المعلِّمة من فرط الغضب حتى إني لم أندم قط على اختياري البديل بصبِّ الماء الغالي على قدمي حتى أتمكَّن من قضاء فترة الدرس في المستشفى. نصائح متواصلة : " لا يمكنكِ أن تفكِّري وأنت تضعين رأسك على ذراعيك ". (حين كبرتُ بتُّ لا أُحسِنُ التفكير إلا وأَنا أضعُ رأسي على ذراعيَّ)؛ " سوف تُشلِّين إذا جلستِ متصالبة الساقين " (حين كبرت صرتُ أُغالي في الجلوس متصالبة الساقين).

في آخر المطاف بتُّ أمقتُ المدرسةَ إلى درجةٍ أني رحتُ أتهرَّبُ باستمرار من الذهاب إلى المدرسة، فألزم المنزل، معتقدةً أني أقنعتُ الماما أنَّ إصابتي بالبرد أو بألمٍ معدتي حقيقي. إلى أن كان يومٌ دَخَلَتْ فيه إلى غرفة نومي وبصحبتها طبيبُ نفس أطفال وممرضة. وبينما وقفتْ الماما في الخلف تبكي أخذتْ الممرضة تُلبسني ثيابي والطبيب النفسي يُكثِرُ من الكلام الغريب بصوتٍ رقيقٍ ثم صحبني إلى المستشفى.

وهناك، في جناحٍ كبيرٍ مملوءٍ بأطفالٍ مرضى حقاً - أمراض القلب، وعمليات الدماغ وطفل يصرخ - أتمدَّدُ لإجراء كشفٍ عام وأنا المتمارضة. ومن شِدَّة إحساسي بالعذاب جراء امتعاض الممرضات من صحتي التامة، قفزت ذات يوم خارجةً من النافذة ورحتُ أركضُ في أرجاء الحديقة وأنا «بالبيجاما»، وعانقتُ طبيباً مستغرقاً في التأمُّل يرتدي معطفاً أبيض وسألته والدموع تترقرقُ في عيني إنْ كان يقبلُ أن يكونَ والدي. هذا الأداء المؤثِّر كان له مفعوله الفوري : فقد وُضِعْتُ في غرفةٍ مستقلَّةٍ واعتُبِرتُ مريضة بحقّ. وأرسلتْ لي تلميذاتُ صفي رسائل، وجلست

الماما بجوار سريري وفي عينيها نظرةٌ قلقةٌ، وسألني طبيب نفس الأطفال إنْ كنتُ أفهم أنَّ الجميع لا يتمنّون لي إلا كل خير. إنَّ المدرسة - المدرسة كلها - اشتاقت إليّ والماما اشتاقت إليّ، وأختي اشتاقت إليّ، فهل فهمتُ أني سبَّبتُ القلقَ لهم جميعاً ؟ وحين قلتُ إني أفهمُ هذا، أخبرَ طبيب نفس الأطفال الماما أنه قد شفاني، وقال لي إنَّ في استطاعتي الآن أن أعود إلى المنزل وأطيعُ الماما وأن أجتهد في المدرسة. صافحته وانحنيتُ له بكل أدب واحترام وأنا أبتسم ابتسامة عذبة وشكرته لكل ما فعله لأجلي. خاصة لأنه دخلَ إلى غرفة نومي بدون سابق إنذار ودفعني دفعاً إلى المستشفى.

في وقتٍ لاحق قرَّرتُ أن أصبح طفلةً معجزة، فقط لأريه ؛ أن أؤلّفَ كتاباً يكون مثاراً لإعجاب العالم كله، ويكون حزيناً جداً، ويتعجَّبُ الجميعُ كيف أمكن لفتاةٍ صغيرةٍ أن تؤلّف مثل هذا الكتاب العميق والحزين.

أذكرُ أحد المدرِّسين في المرحلة الابتدائية بسرورٍ عظيم، وأذكرُ آخرَ من المرحلة الثانوية. وطبعاً هناك آخرون، لكني كنتُ أُقيمُ اتصالاً حميماً وصامتاً مع هذين الاثنين. الأول كتبَ في أسفل أحد موضوعاتي الإنشائيّة : " عزيزتي ليف، أنت تتمتَّعين بمخيّلة عظيمة وبمقدرة فائقة على التعبير عنها. لكنك أحياناً تشردين بعيداً - والعودة إلى اليابسة يتطلّب منك السباحة مسافة طويلة. هذه، أيضاً، صورةٌ مجازيّة. هل تفهمين، يا صغيرتي ليف، ما أرمي إليه ؟ ". وفهمتُ الصغيرة ليف، واحتفظتْ برسالته إلى أن كبرت.

وكان هناك مدرِّس آخر بوجنتين متورِّدتين ونظارة بإطارٍ أسود.

بدونه كان جديراً بالمرحلة الثانوية أن تغدو بلا معنى مثل مئزر المدرسة القذر الذي لا أملَ يُرجى منه.

كنتُ قصيرة القامة ونحيلةً وأتّصِفُ باستقلاليةٍ شديدة، وأغرقُ في أحلام اليقظة. تقارير جيدة ومللٌ رهيب. ثدياي كانا أحياناً عبارة عن قفازيّ الماما وقد حُشِرا داخل صديرية سرية اشتريتها بادِّخار المصروف. كانت أغلب الفتيات يغبنَ عن حضور دروس الرياضة، مرةً في الشهر بإيراد " السبب المعتاد " بصوتٍ عاديّ جداً عندما يُنادى على أسمائهن. ولما لم يحدث هذا معي قط، كنتُ أتظاهرُ بأنه يحدث، لكنني لم أكن أنجح قط في تحديد المواعيد. وبَقيتُ أخدعهن طوال عامٍ كامل - ولم أدرِ أنهنّ جميعاً كنّ على علمٍ بالأمر، ولكنّ الأستاذ طلبَ منهن أن يكنّ لبِقات ويتظاهرن بأنهن لا يعلمن شيئاً.

" السبب المعتاد " : العبارة السحرية التي تميِّز المنتسبة الجديدة[6] عن الأخريات. وأخيراً حان الوقتُ المنتظر. ويا له من فرح ! يا له من ألم. إنها المرأة المحظوظة، عندما ينقلها أول أثرٍ للدماء من أرض البراءة إلى العالم الذي سيغدو بالنسبة إليها أكثر غموضاً فأكثر.

بمدَّخراتها ابتاعت أدوات فنان تشكيلي، حامل لوحات وأنابيب ألوان زيتية مثيرة. وكانت تراقبُ في حسد الشبان الرومانسيين الذين يخرجون مع صديقاتها ؛ وهي أيضاً كانت ستصبح فنانة تطبقُ شهرتها الآفاق.

بعد ذلك فكَّرتْ في أن تصبح صحافيّة. أسَّست صحُفاً. ألَّفَتْ مسرحيات ودواوين شعر. وفي وقتٍ من الأوقات أرادت أن تصبح طبيباً بيطرياً، وأن يكون لديها بيتٌ كبير، وأن تملأه بالقطط والكلاب الضالة ؛ ويستلقون على وسائد كبيرة من الحرير.

ولكن أشدّ ما تاقت أن تكون، وآخر شيء، أن تكون ممثلة.

* * *

أنا واثقة من أني في بعض الأحيان كنتُ الأولى على صفي، ولكن أشدّ ما أذكره هو كوني " غريبة "، وإحساسي بأني مختلفة.

ما أذكره هو ذاك الذي غاصَ عميقاً - وبالنسبة إليّ كان الإحساس بالعزلة هو التجربة الجرح.

أستلقي في السرير ليلاً أنصتُ إلى الكبار يضحكون ويتحدثون في غرفةِ الجلوس وأفكّر، حين أكبر سأكونُ جزءاً من عالم الأفكار والضحك هذا الرائع.

لكني كبرتُ، ولا أزال أحياناً أشعرُ بأني غريبة، أؤمنُ بأنّ كل إنسان آخر هو جزءٌ من تجمُّعٍ ما.

* * *

لقد نسيتُ كم هي حقيقيةٌ، تجارب الطفولة تلك التي نسميها نحن البالغون خيالاً جامحاً.

بالنسبة إلى الطفل هي ليست خيالاً : الخوف من أن يترك وحده، والذئب الخبيث، والعتمة في الخزانة - كلها حقيقية. لكننا نُطلقُ عليها أسماءً لنجعلها أشياء أخرى.

إننا نقول عن الشيء الحقيقي إنه خيال - وهذا بالذات هو الخيال.

موجودة في باريس لثلاثة أيام. إنها ليست زيارتي الأولى لها، وظروف زياراتي السابقة كان دائماً يكتنفها شيءٌ من الغرابة.

حين كنتُ ما أزالُ صغيرة جئت إليها بمعيّة فرقةٍ مسرحية نرويجية. وكنتُ أمرُّ بحالةِ حبٍ فاشلة وكل ما أردت أن افعله هو أن أستلقي على سريري لأقرأ رسائله القديمة إليّ. وكان قد ذهبَ في رحلةٍ سيراً على الأقدام بين الجبال لينساني. تنقَّلَ صعوداً وهبوطاً وحول كل القمم التي صادفها، وقَّتَ لنفسه، حطَّمَ أرقامه القياسية، وبعد فترةٍ من الوقت لم يعد يذكر لماذا بدأ بالركض. وبينما أنا أُجرجرُ نفسي إلى مسرح سارة العتيق وأؤدي على الملأ معاناتي على خشبة المسرح.

لم أزعج نفسي حتى برفع بصري إلى برج إيفل.

* * *

المرة التالية التي قدمتُ فيها إلى هنا كانت لغرض تصوير المشاهد الأخيرة لفيلم كنتُ قد مثَّلته في جنوب فرنسا. كنا نعملُ في استديو صغير رطب من الساعة الثامنة صباحاً إلى وقتٍ متأخِّرٍ من المساء. وكان كل مَنْ حولي تقريباً يتكلَّم الفرنسية، ولم أكن أفهمها، وزميلي في الفيلم الممثل تشارلز برونسون، وهو بدوره لم يكن يُحسِنُ الفرنسية، لم

يكن شخصاً مريحاً. خلال كل تلك الفترة كان نادراً ما يكلّمني. " صباح الخير " و " إلى اللقاء " و " لا أصبو إلى التمثيل معك مرةً أخرى " – على الأقلّ هذا ما بدا أنه لسان حاله. وكان قد أصبحَ أحد أكبر نجوم الشباك في أوروبا، ولعلّه كان أمراً مُقبضاً بالنسبة إليه أن يعمل مع شخصٍ من النرويج التافهة. لقد كانت الشهرة قد تحقّقتْ له في وقتٍ متأخّرٍ من حياته، والآن ها هو يقضي يومه وهو يمرّن عضلات ذراعه الضخم، يشدُ قبضتيّ يديه ويُرخيهما، ينفخ صدره ويُفرغه بينما حبّات العرق تزخرف شفته العليا.

في هذه المرة أيضاً لم أشاهد برج إيفل.

* * *

في زيارتي الثالثة كنتُ بصحبة ابنتي ذات السنوات الخمس ومُربّيتها. وبينما كنتُ أُمثّلُ فيلماً في لندن بدأ خطيب المربّية يبعثُ لها رسائل فاترة. إنه لا يحبُّ لامرأته أن تُغادر بلدها. ونتيجة لذلك أحاطتْ بأسفل عينيها هالتان سوداوان وفارقها مرحها. فدعوتها لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في باريس لأرفّه عنها.

ثلاث فتيات في حالةِ مرحٍ صاخب : لين، التي كانت قد تعلّمت الإنكليزية حديثاً وهاهي الآن مرتبكة مع اللغة الفرنسية ؛ والمربّية، التي كانت تتلقّى الرسائل الفاترة، وأنا، المرهقة بعد عمل مضنٍ طوال الأسبوع. ونتيجة للتصويت، لم يكن هناك أي حماس لزيارة اللوفر أو كاتدرائية نوتردام وتنقّلنا بين المخازن ومحلات بيع الألعاب. ابتسمت لطفلتي وابتسمتُ للمربية – وفي داخلي احتجاج.

حين وصلنا في آخر المطاف إلى برج إيفل كان الإرهاق والدوار قد

نالا مني. وكنتُ أعجزَ من أن أصعد معهما، فاتخذتُ لي مجلساً ورحتُ أتجمَّد وأنتظر.

* * *

وها أنا ألان هنا للمرة الرابعة، لأدلي بأحاديث للصُحُف والتلفزيون والإذاعة. وفيلما " صرخات وهمسات " و " المهاجرون " يجذبان الجمهور ليملأ دور العرض.

خلال النهار لا أشاهد غير غرفة الفندق. جدول المواعيد ممتلىء منذ الصباح الباكر وحتى وقتٍ متأخر من المساء. وأختي، التي جاءت معي، هي الوحيدة التي تستفيد من السيارة والسائق اللذين وَضعا تحت تصرُّفي.

ولكن حتى هي لم تكن تشاهد غير المخازن الكبرى. إنَّ ضميرها يعذِّبها بسبب عائلتها التي خلَّفتها في الوطن. إنها تخشى ألاّ يتمكن زوجها والأطفال الخمسة من تدبُّر شؤونهم بدونها. وهي تشتري هدايا لتوزِّعها عليهم لدى عودتها.

قرَّرَ مندوب الدعاية والإعلان مقدَّماً مدة دوام كل حديث : فرانس سوار، الاكسبريس، الموند، باري ماتش. وجبات إفطار وغداء وعشاء مع أسئلة وأجوبة. شرب القهوة مع التلفزيون، وتناول العشاء مع الإذاعة. الصحفيون يتقابلون في طريق دخولهم وخروجهم، يبدو عليهم الشك حين يقابلون زميلاً لهم. وكأنَّ في حيازتي أسراراً يريدون أن يستأثروا بها. وإذا احتجتُ إلى الذهاب إلى الحمّام يسبِّبُ ذلك لهم الرعب : إنني أسرقُ وقت أحدهم. إنهم ينتظرون هناك في غرفة الانتظار مسلَّحين بأقلامهم الرصاص وبأجهزة التسجيل.

وسرعان ما سيقرعُ التالي البابَ.

أغلبهم يودُّ أن يعرف الأشياءَ نفسها، لكنهم يصوغون أسئلتهم بطرقٍ مختلفةٍ. وأُنوِّعُ في إجاباتي قدر إمكاني لأبقي مندوب الإعلانات المسكين يقظاً. إنه يقفُ ساعات طوالاً بالقربِ من النافذة يتابعُ مسارَ الشمس، والملل مطبوعٌ على سحنته.

هل أؤمنُ بالزواج ؟ ما هو شعوري وأنا أعملُ مع إنغمار برغمن ؟ هل لدي أي اهتمامات سياسية ؟ هل أنا أمٌ مثاليّة ؟ هل أعيشُ وحدي ؟ إلى أين أودُّ أن أصلَ بمهنتي ؟ وجميعهم تقريباً يسألني ما هو موقفي من حركة تحرير المرأة. أحاولُ أن أُعبِّر بالكلمات عن سبب اعتقادي أنَّ كل فكرةٍ تُقسِّمُ الناس إلى فئاتٍ إنما تزيدُ من مشاكلنا، وتُصعِّبُ علينا السبيل إلى فهم بعضنا بعضاً.

* * *

أعتقدُ أن في إمكاننا بسهولة أن نُغالي في التوكيد على خلافاتنا. إنَّ الإصرار عليها يعني فقط أن نُصنِّفَ ما هو مُصنَّف مُسبقاً ضد مصلحة الجميع.

ارتجفتُ لدى التفكير فيما كان يمكن أن يحدث للطفل موتسارت لو أنه عاشَ في هذه الأيام.

* * *

أختي، بيتين، وأنا فضوليتان لمعرفة ما تنطوي عليه حياة الليل في باريس. ذهبنا لمشاهدة كل الأشياء التي لا نستطيعُ أن نشاهدها في أرض الوطن. لدي أصدقاء : فرنسيون يبهجهم أن يتباهوا باستعراض عاصمتهم.

نتشرَّبُ الروائح ... المشاهد ... الألوان. نجلسُ إلى مائدةٍ طويلةٍ في مطعمٍ خافت الإضاءة، نأكلُ ونشربُ. وهناك قربُ الغرباء منا، ودفء أجساد الآخرين، وكلّنا مزدحمون بعضنا إلى بعض.

ثمة عرضٌ على خشبة مسرحٍ صغير. خمسون امرأةً ورجل يهرّجون دون رادع. يتراكضون داخلين خارجين بملابس مبهرجة. وجوه مدهونة بمساحيق مختلفة دائماً تنضحُ عرقاً. فيضٌ من السرعة والأناقة والإضاءة وأوراق الزينة والروح المرحة. الخيالُ يزهرُ ويأسرنا. أختي تنسى إحساسها بالذنب. إنها بعينيها المشرقتين تبدو في ذروة جمالها. ينظرُ إليها الناسُ ويبدو أنهم يقولون في أنفسهم إنَّ نساءَ الشمالِ هم الأجمل. أتمنى لو أنَّ زوجها كان معها. كان جديراً بهما أن يتقاسما هذه الأجواء.

ويلاحظُ مسؤول المراسيم وجودي. ويدفعوا بي إلى خشبة المسرح، وتُسلَّطُ عليَّ الأضواءُ القوسيّةُ. وتمرُّ عليَّ برهةٌ أحسُّ خلالها بالدفء، وبأني موضع إعجابٍ من خلال نُتَفٍ من الكلمات أفهمها. أشعر لبرهةٍ من الزمن بفخرٍ فرِحٍ وبثمالةِ النجاح. ثم يصلُ المصورون، ورجالٌ ثملون يجعلونني أدوِّنُ شيئاً على لائحةِ طعامٍ أو على أذرعهم. وأمهاتٌ يدفعن بقطعٍ من الأوراق إليَّ لأوقِّعَ عليها من أجل أولادهنَّ. وأشعرُ بالحرجِ أمام أصدقائي. الحياء يجعلُ قدميَّ ويديَّ تنمو حتى يصبحُ طولها عدة ياردات. سرعان ما سيلاحظُ الجميع أني أضعُ على ثوبي دبوس أمان، وأنَّ لديّ ظفراً مكسوراً. سيكتشفون أني أقلُّ جمالاً مما يظنون، وأني أخلو من أي شيءٍ مسلٍ أو مميَّز.

ونبتعدُ مسرعين.

* * *

حاناتٌ صغيرةٌ مُعتِمةٌ وأناسٌ مختلفون عنا. ثمة رجل يرقصُ مع نفسه أمام مرآةٍ كبيرة. إنهَ منغمسٌ في عالمٍ آخر - يبتسمُ وينحني لنفسه انحناءاتِ احترام ويرمي قبلاتٍ لانعكاسِ صورته. وبين حين وآخر يداعبُ بطنه ويحاولُ أن يغوي نفسه. رجالٌ يرقصون مع رجالٍ، يُبدي بعضهم لبعضٍ الرقّةَ والحنان، يُداعبُ بعضهم بعضا. في الظلام، دخانٌ وموسيقى عالية، وأناسٌ يتقابلون ويفترقون. يمكننا أن نرى الحاجة إلى اللمس. نشعرُ بالحاجة إلى أن نلمس.

أُنظرْ إليَّ أحِبَّني.

* * *

الوقتُ هو الصباح الباكر. نسيرُ بمحاذاة النهر. نشمُّ شذا الربيع،، نستشعره على بشرتنا. دكاكينُ صغيرةٌ تبقى مفتوحة لمدة أربعٍ وعشرين ساعة. نُنقِّبُ في الرفوف المُغبرَّة. نشتري ذكريات لبعضنا بعضاًس. نخربشُ عبارات ترحيبٍ لها معنى فقط بالنسبةِ إلى هذه اللحظات. تتماسك أيدينا، ونحن جذلون بعد ليلةٍ طويلة أمضيناها معاً ونبتسمُ لكلّ مَنْ نقابله. وفي مثل هذا الوقت من النهار دائماً تُرَدُّ التحيات.

ثم نعودُ إلى الفندق. ودُشٌّ سريعٌ. نحشو أغراضنا داخل حقائب. وننهار على السرير ونحن نضحكُ لأنه من الممتع أن نكونَ نحن الأختين معاً في هذا العالم.

إننا في أفضل حالاتنا ونحن في طريقنا إلى المطار. مندوب الصحافة ينظرُ إلينا بتحديقٍ قلقٍ جاهل. يهرعُ على طول الأروقةِ حاملاً حقائبنا، لأننا تأخرنا كثيراً على تسجيلها. يركضُ ويسبقنا مع الحَقائب، ولا يسمحُ لنا أن نحملها بأنفسنا ويبدو عليه الارتياح وهو يُقبِّلُ أيدينا ويعبِّرُ عن أملِهِ في أن نلتقي ثانية.

ثم، وبسرعة، نصبح في أوسلو. وبداية يومٍ عملٍ آخر. إنها الثانية عشرة ظهراً. وعلى عجَل أودِّعُ بيتَن وأنطلقُ. تبدو وكأنها لم تنم كفاية، وسعيدةً، وتشتاقُ إلى الوصول إلى المنزل مع هداياها وكلّ ما لديها من حكايات. المنزلُ حيثُ الواقعُ الذي يخصّها.

وأواصلُ الركض - إلى واقعٍ لا أقبل به دائماً.

أُصيبتْ الماما بمرض السل. وفي كل يوم أحد كنتُ وبيتن نتوجه إلى المصحة ونلوِّحُ لها بأيدينا. كانت تبدو لنا كغريبة. وأدركتُ للمرة الأولى أنها كائنٌ بشريٌّ ذو حقيقة تتجاوز كونها الماما. وافتقدتُها خلال الأشهر الستة التي غابت فيها عن المنزل، وكنتُ أضعُ صورتها تحت وسادتي بدل صورة البابا. وحين عادت باتت أثقلَ حركة وقد ولَّى عنها الشباب، واتَّسعَتْ فسحة الفراغ لديها، وضاقَ الوقتُ الذي أقضيه معها.

وقعتُ في الحب للمرة الأولى. وإنْ كنتُ لم أسمع أجراساً تدقُّ كما وَعَدَتْ الماما، ولكن مع ذلك كان أمراً رائعاً.

كان اسمه ينز.

لم نكن نتحدَّثُ كثيراً، لأنَّ كلانا كان حييّاً - كان الصمتُ يشكِّلُ جزءاً من علاقتنا. وأصبحَ نبضُ الحياة من حولنا مختلفاً عما كان عليه في السابق. وتبادُل تحية المساء عند البوابة أصبحَ على جانب كبير من الأهمية. وعندئذٍ كنا أقرب ما يمكن من سماع رنين الأجراس. وبدأتْ الماما تقف عند النافذة خلف الستائر وقت انتظار عودتي إلى المنزل. وكان علينا أن نفتش عن بوابات أخرى. وكان دائماً تقريباً يرتدي حذاءً مطاطياً ذا رقبة وكان أطول مني كثيراً في القامة. وذات يوم قال لي إنَّ

علاقتنا قد انتهت. فليس في وسعه أن يُمضي شبابه كله مع عذراء، كما قال. فقد قرأ في مكانٍ ما أنّ عدم ممارسة الجنس قد تُعيقُ تطوّر الرجولة. ثم إنه كان مُقبلاً على تقديم امتحاناته والتوجه إلى الجامعة، ولا يمكن لطالبِ جامعة أن يُصادقَ فتاةً في الخامسة عشرة. وأملَ في أن أتفهّمَ الأمر وألاّ أعتبرَ المسألةَ موجّهةً ضدي شخصياً.

احمرَّ وجهانا نحن الاثنان. فلم أكن قد سمعته قط يتكلّم كل تلك الجمل المتواصلة الكثيرة. ووقفتُ بجوارِ بوابةٍ غريبةٍ أحملُ براءتي يُجلّلني العارُ، وأنا أراقبُ شاباً طويلاً هزيلاً متعثّر الخُطى يخرجُ من حياتي.

بعد ذلك وقعتُ في حب جيمس ستيوارت[٧] على مدى أشهرٍ عدة. كان نصير شبابي، بسيطاً، ودائماً يهبُ الحبَّ عند الحاجة. وعندما قابلته شخصياً، بعد ذلك بوقتٍ طويل، اصطبغَ وجهي بحُمرةٍ قانية. وكأنما كان في مقدوره أن يُخمِّن المغامراتِ التي انخرطنا فيها معاً في أحلامي.

عندما حلّتْ فترة راحة من العواطف الجامحة، انضممتُ إلى دورةٍ لتعلُّم الخياطة. وبقيتُ فيها لعدة سنوات. كنا نتهامسُ بالأسرار أثناء شرب زجاجةٍ من الصودا، التي استُبدلَت فيما بعد بالكاكاو، ومن ثم بالشاي، وأخيراً بالكوكا كولا مُذابٌ فيها قرص أسبرين. صبايا صغيرات على عتبة الحياة يتقابلنَ مُصادفةً في الشارع بعد مرور سنين عديدة. يرصدن التغيُّرات التي طرأتْ على كلٍ منهنّ، بتقييمٍ وفضول.

* * *

مشاوير حول المرفأ. أشعة الشمس وهواء يهبُّ من البحر. قوارب وصيادون وجو حياةٍ تختلفُ كلياً عن حياتي. معرض رسم في تروندهيم. ساعات أمضيها في التعرُّف على أساتذة مخضرمين وأتساءلُ، أما كان

جديراً بي أن أغدو رسّامة. بعد ظهيرة كل يوم ألجأ إلى ركنٍ من محل الماما لبيع الكتب أجلسُ فيه وأقرأ في شبه العتمة. أُنقِّبُ في الرفوف. أشمُّ رائحة الورق اللذيذة وحبر الطباعة.

طالما اعتبرتُ الكتبَ كائنات حية. وبعد مصادفاتي مؤلِّفين جدداً غيَّرت حياتي قليلاً. فبينما أمرُّ بفترةِ ارتباكٍ ما أبحثُ عن شيءٍ لا أستطيعُ تحديده، إذا بكتابٍ معيَّنٍ يظهرُ، ويتقدَّمُ مني كما يفعلُ صديق، يحمل بين دفَّتيه الأسئلة والأجوبة التي أفتِّشُ عنها.

* * *

كنتُ عضواً في جمعية الشابات المسيحيات، وكانت امرأةٌ عظيمة، اسمها صوفي، تسمح للشابات الصغيرات أن يكتشفن اهتماماتهن الأدبية والفنية. وسُمِحَ لي بتمثيل مسرحيات أَلَّفتُها بنفسي. وكنتُ أقرأ الشعرَ للعضوات من العجائز هناك. أحملُ ذكرى لشَعرٍ شائب وعيون رقيقة، وأيدٍ مُكوَّبة حول الآذان لتوفير سماع أفضل، وتراتيل وقهوة. كنا كثيراً ما نتحدَّثُ عن الله ومع الله. ولكن ليس بطريقةٍ دوغماتية. لم ألاحظِ وجود أي قدرٍ من التعصُّب. أعرفُ أني كنتُ أقف خارج الباب لأمسح أحمر الشفاه قبل أن أدخلَ، لكني أعتقد أن ذلك كان عائداً إلى رغبتي في إرضاء الآخرين.

ذات يوم دخلتُ دون قصدٍ مني إلى إحدى الغُرَف لأجد فيها صوفي راكعة على الأرض، تصلي، وتذرف الدموع. ورأيتُ أنه سيكون من الصعب والمحرج أن أواجهها بعد ذلك، لكنها اكتفت بالابتسام لي وربتت على وجنتي.

بعد ذلك بسنين عديدة رأيتها واقفة خارج دار المسرح الذي أُمثّلُ

فيه في أوسلو. بدت أضأل حجماً بكثير وخجلة ومرتبكة كانت هناك سيارة تقفُ في انتظاري فوقفنا هناك مرتبكتَين لا ندري ماذا تقول إحدانا للأخرى.

لم أقل لها إنها وهبَتني أثمن ساعات شبابي. ونسيتُ أن أطلب منها عنوانها قبل أن تسرع مبتعدة.

صوفي تشكرني على أدائي التمثيلي - الممثلة في طريقها لحضور حفل كوكتيل.

•

عدتُ إلى المنزل من إحدى الجولات. لا وقتَ لدي لأنتظر أمتعتي، وأدفع نقوداً لحمّال ليرسلها إليّ لدي وصولها. أقفز إلى سيارة تاكسي. لديّ بروفة في المسرح. رأسي ينبُضُ من شدّة الإرهاق. أصلُ على عجل، متأخرةً ربع ساعة. أوزِّعُ الابتسام يميناً ويساراً. أخشى أن أكونَ قد سبَّبتُ الإزعاج لزملائي. أخشى أن يظنوا أني تافهة لأني وأنا في باريس أصبحتُ كذلك إلى حدٍ كبير. ونسيتُ أنهم لا يعرفون الحياة التي غادرتها لتوي. هنا في النرويج يبدو وكأن كل هذا غير موجود. وأعودُ بسرعة، بدون المرور بفترةٍ انتقالية، إلى جو أوسلو وإلى المسرح. وعلى الفور يتحوّل الجو السابق إلى حلم.

البروفة انتهت، وأواصلُ الركض. التلفزيون السويدي ينتظر في أحد المطاعم. إنهم ينوون أن يُعدّوا برنامجاً معي في الأسبوع التالي. وفي الطريق أتوقفُ لأتصل هاتفياً بالمنزل. أسمعُ صوتَ طفلةٍ صغيرة تبكي وتسألني أين أنا. يستحوذ عليَّ إحساسٌ بوخز الضمير. أعِدُ بإحضار هدايا وبأمورٍ سأقومُ بها. ويتوقفُ البكاء في الطرف الآخر.

تنتهي مقابلتي مع أناسِ التلفزيون في غضون ساعة. وأنطلق مسرعةً، محاميَّ الخاص يحتاج إلى توقيعي على أوراق مختلفة. أبتاعُ

هدايا للين. أتَّصلُ مرةً ثانية بالمنزل هاتفياً. ألاحظُ أنَّ نبرة صوت المربية هادئة. أعودُ إلى المسرح. أجلسُ تحت مُجفِّف الشعر. أحاولُ أن أُركِّز على الأداء المسائي. مكالمات هاتفية متواصلة. كم أكره تلك الآلة السوداء الصغيرة ! ينجح أحد المصورين في مغافلة البواب ويظهر فجأةً عند الباب. ويقولُ " أريدُ فقط التقاط صورة ". وكان رجلٌ قد رسمَ لي صورةً شخصية نَقَلَها عن صورةٍ فوتوغرافية وأصرَّ على أن أسمح له بدخول غرفة تغيير ملابسي ليرى إن كانت الألوان طبيعية. وأرسل لي أحدهم قصيدةَ شعرٍ من تأليفه : ألا نستطيع أن نتقابل ونناقشها لخمس دقائق ؟ ليس لديَّ خمس دقائق. ثمة مخطوطات أقلام على طاولة زينتي لم تقرأ بعد. وعدت بإعطاء رأيي بها في موعد معيَّن ولا أدري ماذا أقولُ بشأنها.

الدموع قريبة في مقلتيَّ. أستترُ خلف وجنتي نورا^8 المتورِّدتين وفمها السعيد. أنظرُ في المرآة : أنا معاً حزينةٌ وسعيدة.

المسرحُ ملآن. تصفيقٌ وزهور.

عبارات وداع سريعة في المصعد. أمتعتي المُرسلة من المطار، تنتظرني في كوخ البواب. لا يوجد الآن مندوب إعلانات ليحملها إليّ. أستقلُّ سيارة الأجرة إلى المنزل. الحاضنة نائمة على الأريكة. أوقظها، وتمكث معي مدة ثلاثة أرباع الساعة لتُشبِع ميلها إلى الثرثرة. ولا أدري عمّا تحدّثنا. مكالمة هاتفية من أحد المشاهير. إنه حديثُ الصحف جميعاً هذه الأيام. زواجه الذي تحدَّثتْ عنه وسائل الإعلام كلها أُلغيَ قبل ليلة الزفاف بيوم. وأُشيعَ أنَّ العروسَ متردِّدة. وأنا متأكدة من أنه يتَّصلُ بي ليخبرني بأنه مرتاح لأنَّ الأزمة مرتْ على خير، وسيُطلق ضحكته العالية

النبـرة ويسـأل إنْ كـان في وسعـه أن يـأتي لزيارتي في أوسلو. ويأملُ في أن نظهـرَ مـعـاً على الملأ، ليـبيِّن للصـحف وللناس أنه لم يكـن وحده، أنا أعـرفُ أنه يمرُّ بوقتٍ عصيب، لكنني لا أرغب في الاتـصال به. هذا المسـاء ليـست لديَّ أي طاقـة على التـظاهر بأني لا أسـتـشـف اليـأس من نبـرة صوته.

للشـهـرة ثمنهـا. أذكـرُ حين مُنِحَ كيـسنجـر جائزة نـوبل أني أرسلتُ له برقيـةً من قريةٍ صـغيـرةٍ في إيطاليا، وعـبَّرتُ فـيهـا عن أملي في أن تصله على الرغم من زحمة مظاهر الاحتفاء به. وبعد مُضيِّ بضع ساعات اتّصلَ بي هاتفيـاً ليـشكرني. لم ألمس من خلال صـوته سـعـادةً ظاهرةً ولم أسـمع مع صوته أي شيءٍ من مباهج الاحتفالات.

سألني صـحـافي ذات مرة عن شعـوري بعـد نيلي العـديد من الجوائز وأوسمةِ الشرف.

قلتُ " لسوء الحظ لا أستطيعُ أن أتحاورَ معها "

ضحك وهو يظنُّ أني أُنكِّت.

لا.

أنا هنـا في منزلٍ كـبـيـرٍ جداً عليَّ وعلى لين. إنني حزيـنةٌ ومُـتـعـبـة ومسرورة. ولكن ليس معي مَنْ أشاركه هذا كله.

على سريري فتاةٌ صغيرةٌ. تستيقظُ قليلاً حين أتمدَّدُ إلى جوارها.

" ماما، فمي مملوءٌ بالقُبَل "

كـان ذلك في العـام الذي أذاعـوا فـيـه مـقطوعـة " سيـريـنادا ضـوء القمر" في الإذاعـة. العام الذي شاهدنا فيه الفيلم الذي يتحدث عن غلين مـيللر[٩] وبكيتُ علـى مـيـتتـه المأساوية. دَخَلَتْ صـرْعَـة الروك إلـى النرويج وأصـبحـتْ الفتـيـات كلهـا ترتدي تنانير واسعة وتحـتـهـا ما يشـبـه التنانيـر المُنشّاة الكثيرة الطبقات. العام الذي كان فيه المرءُ يعشقُ بشكلٍ مستمرّ. كان الجسدُ والروح يعبقان بالعبير وبالسعادة. وصرتُ على أحسن ما يرام فـيمـا يتعلّقُ بالمدرسة لأني لم أعد أعبأ بها. كانت نتـائجي طيّبةً، لكني كنتُ أرى أنَّ الموادَ المدرسيةَ لا فائدةَ تُرجى منها للمستقبل.

كنا ما نزالُ بلا جهاز تلفزيون. ولم يكن باقي العـالم يبدو قريبـاً جداً كمـا هو الحـالُ الآن. وكنا نتـمشّى عـلى طول بوابة نوردر ونتـوقُ إلى الحب العـظيـم. ولكي أكـونَ في الجـانـب الآمن ولا أحـيـدُ عنه، كنتُ أضــربُ مـواعـيدَ عـديدة في الأمـسـيـة الواحـدة، وأبعثُ بالماما وبعض الصـديقـات ليذهبن إلى زوايا شوارع مُعيَّنةٍ ليُعلنَّ للشبان المنتظرين أني متوعكة.

قليلٌ منا يتحدى الأخلاقيات التي تعلمناها في المنزل. نادراً ما كان هناك مثل ذاك العدد الكبير من العذارى المتـمنِّعات ذوات السابعة عشرة كمـا وجدَ في ذلك العـام الذي انتشـرَ فيه أحمرُ الشفاه المُضاد للقُبَل. كنا

نتفاخرُ بالتجارب التي لم نخضها، ونُسِرُّ همساً بأشواقنا للأقربين إلينا.
كانت فتيات جيلي يحلُمنَ بالحرية وبالعمل. لكننا كنا نتحرّقُ شوقاً إلى الزواج وإلى أن نعثُر على مَنْ يهتمَّ بنا.

على أيامي لم تكن موجة تحرير المرأة قد وصلتْ إلى تروندهيم.

كلا ! هذا لا ينفع ! لن يؤلِّفَ هذا الكلامُ كتاباً. أينَ أذهب بحقِّ الله حتى أكونَ وحدي بسلام ؟ أريدُ فقط ساعةً من السكينة. أشدُّ ما أتوقُ إلى ألاّ أفعلَ أي شيء، أن أستلقي متمدِّدةً على سريري وأن يكونَ هناك أناسٌ طيِّبون يقدِّمون لي الطعام الطيِّب ويسهرون على راحتي، يرنون إليّ. على وجوههم سيماءُ القلقة ويقولون لي إنني أرهِقُ نفسي كثيراً بالعمل. وهذا حالي بالفعل. العاديون من الناس لا يهرعون متنقِّلين بين بقاع العالم كما أفعلُ أنا. في آذار الماضي قمتُ بثلاث رحلاتٍ إلى لوس أنجلوس أثناء قيامي بالتمثيل في مسرحية إبسن " براند " على خشبة المسرح النرويجي ومباشرتي تصوير فيلمٍ أميركي في السويد.

هذا الربيع ليس أفضلَ من سابقه. لن أتعلَّمَ مطلقاً كيفَ أقولُ لا. يُصيبني الرعب كلما رنَّ جرس الهاتف : أيكونُ ناشري، ليؤنِّبني لأنه لم يرَ بعد أي أثرٍ لمخطوطٍ مكتوب ؛ أم هو وكيلُ أعمالي جالساً على مؤخرته في كاليفورنيا ويتساءلُ ما الذي يشغلني هنا في النرويج ؛ أو مدير المسرح يتَّصلُ ليقول إنني سأقومُ بجولةٍ لتمثيل " بيت الدمية " ؟ ثم هناك لين وأمي وأختي والأصدقاء وهذا الشيء وذاك وأنا في غاية التعب وكل ما أريده هو أن أجلسَ وأصرخ.

لكنَّهم سيظنون أني مجنونة. إنهم لا يفهمون معنى ألاّ أتمكَّن مطلقاً من إطلاق تنهيدةِ ارتياح لدي تفكيري في أنَّ الغد هو يوم أحد ويوم راحة.

أقولُ يوم راحة ؟

إنني أندفعُ في كل ساعة راحة تتوفّرُ لي إلى الآلة الكاتبة اللعينة والسببُ كله يعودُ إلى أنه قبل سنتين اتّصلَ بي صحافيٌّ في فترةٍ كنتُ خلالها خاليةً من العمل وسألني ماذا أفعلُ، وبدل أن أعترفَ بأني عاطلةٌ عن العمل وأنفحه عنواناً عريضاً " نهاية نجاح "، اخترتُ أن أقولَ إني أكتبُ كتاباً.

وراح الجميعُ يسألُ عن الكتاب. وأخذ الناشرون يتّصلون بي هاتفياً أو يراسلونني من كل أرجاء العالم وأنا ليست لديَّ أدنى فكرةٍ عمّا أكدِّسه معاً وأنا جالسةٌ هنا. الآن أنا فقط خائفة. مرعوبة من هذا العقد الذي يجب أن يُنفَّذ. فَزِعة من أنصاف الوعود التي أعطيتها.

لكني سأخدعهم : سوف آخذُ منهم مُقدَّماً ضخماً وأفرُّ هاربةً إلى جزيرةٍ هادئةٍ لا يعلمُ بأمرها أحد، وأجلسُ هناك آكل موزاً وأضربُ صفحاً نهائياً عن العودة.

إنني كلما أمعنتُ التفكير في الأمر تأكَّدتُ من أنَّ أساسَ كل قلقٍ لديّ وتعب هو" الكتاب "، ووعدي الذي قطعتُهُ للناشر النرويجي بأنْ أُسلِّم المخطوط في موعدٍ مُحدَّد.

أها ! إنَّ الناشرَ هو الوغد.

صديقي القديم ! في الواقع لم أعد أشعر بأنه كذلك. بتُّ أحتاجُ إليه أكثر ككبش فداء. ومددتُ أصابع غاضبة مرتعشة لأدير الرقم. لابد أني مجنونة.

تقول لين " ماما "

أهمسُ "اصمتي"، ولكي لا تنسى، أُضيفُ "الرجال - اطرديهم جميعاً"

تقولُ طفلتي الصغيرة " الرجالُ أيضاً هم مخلوقات الله "، ثم تخرجُ إلى الشمس.

يصعُبُ أن أشرحَ عبر الهاتف ما يجولُ في ذهني، إلا أنه يفهمُ أنه أمرٌ مُلحّ لا يحتملُ الانتظار. يُكلّمني وكأني حيوان لا يمكنُ التعاملُ معه بعقلانيّة. ونتّفقُ على أن نتقابلَ في الحال.

لا أضعُ أي مساحيق تجميل. أنا سعيدةٌ لأني أرى أن أنفي يلمع ولأنَّ ثمة ظلالاً سوداء تحت عينيّ. أتساءلُ لبرهةٍ من الزمن إن لم يكن كميل سيتركُ لديه انطباعاً أعمق مما يتركه الوحش. وأختارُ الذهابَ من أجل شيءٍ يقعُ في الوسط، وأنطلقُ مرتديةً بنطالاً ممزقاً ألبسه حين أعملُ في الحديقة. وأضحكُ لنفسي ضحكةً مبالغاً فيها حين ينظرُ الناسُ إليّ وكأنهم يفهمون لماذا يوضعُ اسمي ضمن قائمة أسوأ النساء في ارتداء الملابس. إذا كانوا يظنون أني فظيعةٌ " من الخارج "، إذن فعليهم أن يعرفوا ما أنا عليه من الداخل.

المكان يقعُ داخل أوسلو بعشرة أميال . الوحشُ يفسحُ المجالَ أكثر فأكثر لكميل. أكادُ أنفجرُ بالبكاء. أجلس في السيارة، أشتاق إليه كي يفهمني. أتصوّره وقد وصل فيطوقني بذراعيه ليُهدّئ من روعي. يُقرِّبُ كرسيه من كرسيّ ويهمسُ في أذني بأنه أولاً وقبل أي شيء صديق لي، وبأني يجب أن أنفضَ عني القلق، وأنه يفهمُ، وأنَّ كل شيء على ما يرام، وأنَّ في إمكانه أن ينشرَ كُتُباً أخرى، أي شيءٍ، ما دام ذلك يسعدني.

أصلُ إلى مكان اللقاء فأجدُ أنه قد أمرَ لأجلي شراب الكاكاو بالقشدة. لقد تناولَ لتوِّه شطيرةً بالقريدس، وكانت بقايا المايونيز عالقةً

بزاويتيّ فمه. أطرفُ بعيني لأحدِّقَ في الكأس وأرفرفُ عيني لأمنعَ الدموع من الجريان. أعلمُ أني لن أتوصَّل أبداً إلى التعبير عن شكواي بطريقةٍ مُقنعة. أتمنى لو أنها لا تكون شديدة الإبهام حتى بالنسبة إليّ. إنها مجرد كتلةَ كبيرة في حجابي الحاجز. لم أعد أحتملُ ضغطَ كل المتطلبات.

أخشى أن أُترَكَ خالية الوفاض بعد أن أفشي ما في سريرتي. لدي شكوكٌ حول محتويات هذا الكتاب وما إذا كان سيصلُ إلى الآخرين.

أنظرُ إليه، أتلعثمُ بكلامٍ مُشوَّش، أحاولُ أن أشرحَ أنَّ الكتابَ لن يخرج أبداً إلى الوجود، فأرى " الصديق " يتلاشى ببطءٍ، وأرى مكانه "الموظف" ؛ شخصاً لا أعرفه. وأنتظرُ أن ينبُتَ له قرنان من جبينه. أعتقدُ أني لم أقابل مثل هذا الرجل المتحجِّر القلب، فقط لأني امرأةٌ وحيدة !

سوف أصبحُ مناضلةً مُناصرةً لمساواة المرأة لكي أحاربه وأمثاله. وفي المرة التالية حين سيُريني الكوخَ الذي يكتبُ فيه (فهو أيضاً مؤلِّف)، حيث يعملُ كل صباح وبعد ظهر كل يوم بعيداً عن إزعاج الأولاد أو الهاتف، سوف أتفوَّه بشيءٍ قذر حقاً وجارح.

وأثناء ما كنتُ أرشفُ من كأسي الكاكاو والقشدة (وطلبَ لي كأساً آخر) وأسفحُ قليلاً منه على الطاولة (كانت يدايَ ترتعشان) وأعِدُ بأن أقضي وقتاً أطول في الكتابة (أي وقت؟)، كنتُ أفكر في كلِ المال الذي سيجنيه من ورائي.

لم يحدث قط أن نظرتْ شهيدةٌ أُسيءَ إليها أيَّما إساءة بمثل ذاك الحزن إلى مُضطهِدَها قبل أن تتعثَّر في خطاها وتخرجُ مُيممةً وجهها شطر بيتها.

تساءلتُ وأنا في السيارة إن لم أكن أوشكُ أن أُصابَ بانهيارٍ عصبي، وإذا كان الأمرُ كذلك، فهل أستطيع أن أُعبِّر عنه بطريقةٍ فنية ؟

لاشك في أني أفهمُ سببَ نظرة العديد من أفراد عائلة البابا إلى اختياري للمهنة شذراً. فحملُ اسم أولمن مرتبطٌ بالتزامات، أو هكذا قيل لي وأنا طفلة. عليك أن تحافظي على معايير مُعيَّنة، أن يكونَ لحياتك شعار - طريقٌ محدَّدة توصلُ المرءَ إلى أهدافه، أساسها أرقى التقاليد. وقد كتب أحد أكبر أفراد العائلة سناً إلى الماما يقولُ إنه لعلّه كان من الأفضل للبابا أن يموتَ على أن يرى ابنته تقعُ في شباك المسرح.

لم أكن أُدعى إلى الكثير من اجتماعات العائلة. وخلال سنتي الأولى في أوسلو كنتُ أصادفُ من وقتٍ إلى آخر أحد أفراد آل أولمن في الشارع. ولكن مع أنهم كانوا طوال الوقت يرمونني بنظراتٍ ملؤها الرعب، كنتُ أشعرُ مع ذلك أنَّ هناك في أعماقنا يقومُ اتصالٌ ما. ليت فقط منح أحدنا الآخر وقتاً ليفهمَ الآخر وليقبله. لقد نبتنا من الجذر نفسه، وكل ما في الأمر أننا نَمونا في اتجاهاتٍ مختلفةٍ قليلاً.

جَدِّي الأكبر هو الفرد الأشدُّ احتراماً في العائلة. كان اسمه فيغو أولمن، ليبرالي ورئيس البرلمان ومؤسس طراز جديدٍ من المدارس. وكان معروفاً أنه خطيبٌ مفوَّه، وعلى جانب هائل من قُبح الخلقة، مثل كل أفراد آل أولمن، المتديّنين منهم والمُلحدين. في هذه الناحية لا يُميِّزُ الله بينهم، ولا يمنحُ مكافآت تافهة مقابل حسن السلوك.

كان جدي يقولُ " أؤمنُ بالحياة الأبدية، لأني أعيشها ". على أيامه كانت سيدات العائلة تستغلُّ حياتها الأبدية في العمل على تحرير المرأة. وكان معظمهنَّ من المربيات. وقد كتبَ المؤلفُ النرويجي غونار هايلبرغ مسرحيةَ " العمة أولريكه " تدور عن إحداهن. كان اسمها الحقيقي آستا هانستين وكانت ساخطةً وقادرةً، تكره الرجال ومفعمةً بروح الفكاهة. ثم كان هناك أحد الأقرباء الذي به مسٌّ من الجنون. وفي سنٍ متقدِّمة من حياته هربَ مع فرقةٍ مسرحيةٍ جوَّالة. ومنذ ذلك الحين لم يسمع أحدٌ عنه، ولم يعد اسمه يُذكَرُ مطلقاً. وأعتقد أني سرتُ على خطاه.

من العرض الأول لفيلمي الأول " هروب غرّ " ذهبَ أحدُ أبناء أعمامي إلى مدير دور السينما في أوسلو وسأله إن كان في الإمكان فعلُ أي شيءٍ من شأنه إيقافُ عرض الفيلم. وفي الفيلم أسبحُ وأنا عارية في بحيرةٍ داخل غابة وتظهرُ المؤخرة الأولمنيّة جليّةً واضحةً لكل مَنْ له عينان يرى بهما.

وأبلغَ شخصٌ يُدعى باستور مول الشرطةَ عن الفيلم، وكان معتاداً على أن يُبلِّغ عن العُريّ كلما صادفه - سواء في تمثالٍ أو في وصفِ إحدى الصحف لراقصة عارية.

فضيحةٌ عائلية.

وقعتْ جدَّتي في متاعبَ في دار العجزة التي تقيمُ فيها، لأنها دَعَتْ كل السيدات اللواتي يشاركنها العنبر إلى العرض الأول. ولم تتحسَّن الأمورُ معها حين أرسلتُ قصيدةً إلى إحدى المجلات، موقَّعةً باسمها، فأعادوها إليها مع ملاحظةٍ تقولُ إنها شديدةُ الإثارة الجنسية.

وذات مرة ذهبتُ إلى حفلٍ أقامه ابنُ عم البابا، وكنتُ حينئذٍ

متزوجة، وكنتُ قد أحرزتُ لتوّي نجاحاً فنياً في العاصمة وللمرة الأولى كان يحضرُ ضيفُ حظيَ بالتكريم حفلاً عائلياً. واعترفَ مُضيفي في خطابه الصغير للترحيب بي، بأفدح ذنبٍ أرتكبَه: سرقة مربى من حجرةِ مؤنِ أمه، حين كان في الخامسة من عمره. وربما كان ذلك ما يزالُ يُعذّبه، مما جعلني أفهمُ بشكلٍ أفضل لماذا يمكنُ أن يعتقد أني معدومة الأخلاق.

* * *

عائلة الماما ليست مَهيبة كعائلة البابا. خلال طفولتي كنتُ أقربَ إليهم، لأني كنتُ أعيشُ معهم في البلدة نفسها، وكانت الصُغرى الثانية بين عشرة من الأخوة والأخوات.

وكان والدها فاحش الثراء.

أحياناً كنا نقومُ في يومٍ واحد بزيارةِ منزل طفولتها، أو ما تبقّى منه. وكان عندئذٍ قد تحوّلَ إلى أبنيةٍ شاهقة مُقسّمةٍ إلى شُقق، وإلى مواقف للسيارات. وكان عليَّ أن أغمضَ عينيَّ لأرى ما كانت تراه الماما: منزل كبير أبيض قائم وسط حديقةٍ من أشجار الفاكهة والبتولا. وكانت الماما تتسلّقُ قمة إحدى الأشجار وتجلسُ هناك تنتظرُ عودة والدها إلى المنزل. وفي عيد ميلادها الخمسين كانت ما تزالُ تتسلقُ قمة الشجرة، إلا أنَّ الأمرَ انتهى بها إلى الإصابة بارتجاجٍ في المخ وإدخالها إلى المستشفى للمعالجة.

توفي والد الماما حين كانت في العاشرة لكنهم ظلوا يعيشون في المنزل الكبير بحديقته وأشجاره حتى بلوغها التاسعة عشرة. كانت تعيشُ وسطَ عائلةٍ آمنة. كان الأطفالُ متقاربين، وكان بيتهم دائماً ممتلئاً بالناس، وبالضحك والغناء والحب.

حين أنظرُ إلى صورَ الماما في صباها يغمرني الحزن. كانت جميلة، عيناها تفيضان بالسعادة وهما مفعمتان بالأمل.

لِمَ لا تكونُ الحياةُ كما نأمل منها ونُخطِّطُ لها ؟

لِمَ الزمنُ لا يرحمُ، يسرقُ فُرَصَنا إذا لم نُسرع كفايةً وننتهزها ؟

لِمَ يُصيبنا الرعبُ من بلوغنا سن الستين لأننا في وقتٍ سابقٍ كنا في السادسة عشرة وكنا نعتقدُ أنَّ مخزون الزمن أبديٌّ لا ينضبُ ؟ لِمَ لا يُدركُ المرءُ أنَّ الزمنَ يتحرَّكُ بسرعةٍ متسارعةٍ باطِّرادٍ ويعيثُ فساداً في كل ما اعتقدنا في وقتٍ من الأوقات أنَّ في إمكاننا أن نُرجئه إلى الغد؟

إنَّ سعادة الماما المتمثِّلة في هذه الصورة تشبه كثيراً ما أراه في صورة تثبيت عماد أختي. إنها لم تغادر تروندهيم مطلقاً، فهناك تعيشُ مع زوجها وخمسة أطفال. إنها تبدو أقل سعادة بقليل في الصور الحديثة منها في تلك التي تبدو فيها أنيقة الملبس وتحملُ كتاب الصلوات، وتعانقُ العالمَ برمَّتهِ بابتسامتها.

إننا نوظِّف الكَثير في أحلامنا وآمالنا.

في يوم ما كنا أطفالاً استيقظنا في صبيحة يوم تثبيت عمادنا. اليوم الذي طالما انتظرناه على مدى سنين، اليوم الذي يحدث فيه تغيير، حين تبدأ حياة البلوغ، ومعها يبدأ حقُّنا في اتِّخاذ قراراتنا بأنفسنا.

وفي صورةٍ فوتوغرافية مؤطَّرة اصطففنا رتلاً واتحداً من أجل الأجيال اللاحقة، وُضِعَتْ إلى جانب غيرها من الصور، وكنا فيها أطفالاً، في سن الخامسة، أولاد مدارس، عرائس.

نُحدِّقُ في مدى، سيختفي إلى الأبد.

قريباً سأغدو سيدةً عجوزاً، بيضاءَ الشعرِ، يضعُ أحدهم طفلاً وليداً على حجرها وهو يقول " ابتسمي يا جدتي "، أنا التي ومنذ عهدٍ قريبٍ التُقِطَتْ لي صورةٌ وأنا على حجر جدَّتي. أنا التي كنتُ أقطفُ الأزهار في ذلك اليوم القريب لا أفهمُ أنَّ هذا كله قد ينتهي غداً.

حصلنا على قطتنا عن طريق إعلان. أحضرها إلينا مالكُها السابق بنفسه. قطع نصف المدينة ليصل إلينا في الريف ليتأكَّد من أنها ستكون في بيتٍ كريم.

كنا قد طلبنا قطاً ذكَراً، أسودَ أو أبيض.

" تاس " مُنقَّطةٌ بالأبيض وبعد مُضيٍّ بضعة أسابيع من الحيرة حول جنسها، تيقّنا من أنها أنثى•.

في صغرها كانت دميةً بشكلٍ يفوقُ الوصف - طويلة ونحيلة، وتواقةً إلى الحب. وكانت تُعبِّرُ عن ذلك بحركاتٍ ملتهبة.

وبينما أنا أكتب أو أقرأ، تجلسُ على كتفي كعصفور. وتخرجُ لين للتمشّي معها بعد ربطها برسنٍ وإحاطة عنقها وذيلها بشرائط حمراء. وهي تجعلها ترقصُ على قوائمها الخلفية أو تدفعها للسير على قوائمها الأمامية كعربة جر. كانت تنامُ في عربةِ دمية أو تستقر بصبرٍ داخل سلة ويجرُّها أطفال الجيران وراءهم.

وذات يوم وضعوها في الغسالة الكهربائية وضغطوا على زر التشغيل ولعنتُ كسلي وتهاوني في تعلُّم طريقة تشغيل الغسالة. ورحتُ أضغط على أزرار وأدِيرُ المؤشرات إلى أن اندفعَ الباب مفتوحاً وقفزتْ

"تاس" الساخطة إلى الخارج. وكنتُ قد تخيَّلتُ أنها مرَّتْ بالدورة الكاملة وأني قد قرَّرتُ أن أطلبَ من جارتي أن تفتح لي الغسالة في نهاية دورة التجفيف.

قرَّرتُ أن آخذها إلى الطبيب البيطري ؛ فقد سمعتُ أنَّ في الإمكان الحصول على أقراصٍ خاصة بالقطط. ولكن فجأةً رفَضَتْ تاس أن يلمسها أحد. وراحت تتملَّص من بين ذراعيّ، وأصبحتْ نظرتها شاردة، وكانت تدور حول نفسها في الحديقة، وتقفز في الهواء، وفي آخر الأمر تختفي عن الأنظار. وفي المساء أجلسُ عند النافذة أراقبها وأدركُ أن تاس بدورها تمرُّ بمرحلة البلوغ. فلم تعد نحيلة ؛ أصبحَ جسمها ليِّناً رشيقاً، ووبرها لامعاً. باتَ كل مَنْ يراها يعتقد أنها قطة ذات نَسَبٍ نقيّ.

كان لها أربعة متودِّدين وكان الحب حياتها.

في كل يوم وفي كل ليلة، ومعهم جميعاً.

مع ذكور ضِخام ذوي فرو أشعث وندوب وجراح تغطي أجسادهم كلها جراء التعارك - يهرّون ويرتعشون، وينشرون الروائح النتنة حول منزلنا نهاراً وليلاً.

وكانت تاس تتجول داخلةً خارجة، ولا تدع أحداً يلمسها، وتعاملهم كما تعاملنا بتعطُّف وتنازُل مترفِّعين. وتتظاهر بأنها لا تفهم. وتعذّبهم وتضايقهم وتحرمنا جميعاً من نوم الليالي.

سوف تحبل، لا بأس، إنْ لم تكن قد فعلتْ للتو.

أربعة من القطط الذكور ينادون ويعانون.

لا فائدة.

هكذا هو حال البعض. ولا حيلة لأحد في الأمر.

ظلّت جدّتي تعيشُ معنا طوال ما كان بابا حياً.

امرأةٌ عجوز تحملُ بين أضلعها روح فتاة صغيرة، وتفتحُ قلبها لي لأنها تشعرُ أننا روحان شقيقتان.

كانت تعيد خلق العالم، تجعله مكاناً رائعاً كل شيءٍ فيه ممكن. كل شجرة فيه وحجر هو أكثر بكثير مما نراه بعيوننا. أرتني كيف أنَّ عروقَ أوراق النبات حيّةٌ وتنبضُ بالحياة. وكانت أول مَنْ أخبرني بأنَّ النباتات تصرخُ متألّمةً حين تؤذيها.

أثناء تنزُّهنا سيراً على الأقدام كانت الطبيعةُ تشكّلُ جزءاً من مملكة السماء، والله يحرسها بعينه الساهرة من خلف ستارةٍ من السحب والشمس والنجوم.

كان لكلِّ شيءٍ ينمو جمالُهُ الخاص، حياته الخاصة. ولم نتكلّم قط عن صيانة الطبيعة، لكنَّ جدّتي علّمتني أنه لا يحقُّ لي أن أُهيمن على الطبيعة، أو أن أُدنّسها، وكأني لستُ مسؤولة عن كل شيء.

وجهٌ بقسماتٍ ثقيلةٍ والكثير من التجاعيد. عينان استحال فيهما البياض إلى صفار، ولكن في المركز لا يزال اللون أزرق خفيفاً جميلاً. والرائحة الطيِّبة حين أُريحُ رأسي على صدرها. ودفء عناقها.

* * *

ولم يتـبـدّى لي إلا بعـد أن بلغَتْ رشـدي أن جـدتي كـانت امـرأةً عـجوزاً. لاحظت أنَّ الظهـر الذي كنتُ أتعلّقُ به كـان مـحنيّـاً مـقـوَّسـاً، والشـعـر الذي كـانت تتباهى به - كم كـان الأولاد يحبـون أن يشدّوه حين كـانت فـتـاةً صـغـيـرة - أصبح ذيل خنزير أبيض خـفـيفاً تلفّه على شكل كعكة صغيرة في خلفية رأسها.

كنا نعيشُ في تروندهيم، وكانت تعيشُ في أوسلو، لكنني كثيراً ما كنتُ أمكث معها خلال فصل الصيف. وحين بلغت سن السابعة عشرة ذهبت لأعـيش في أوسلو مـدة عـام. أحـيـانـاً كنا نرتاد ثلاثة عـروض سينمـائيـة في أمـسـيـة واحـدة. وكـانت جـدتي هي التي تدفع. وارتدنا مقاهي صغيرة وتناقشنا حول الناس الجالسين حولنا.

أما أفضل ما كنا نفعـله فهو مكوثنا آناء الليل في غـرفتها. وكان علينا أن نلزم الهدوء، لأنَّ السيـدة التـي تقطنُ جدتي عندها كانت تحرِّمُ استقبالَ الضيوف.

طاولة الكتابة المجاورة للنافذة. لا أحد كان لديه الأدراج المثيـرة التي كانت لديها ؛ ممتلئة بالرسائل والعلب والمجوهرات وأشيـاء أخرى؛ تذكارات من حياةٍ طويلة.

أحياناً كنا نطلق الصيحات لدى قراءة رسائل جدي الغرامية.

حين توفي كان قد مضى على طلاقهـما سنين عديدة. الجميع قالوا إنه تركها لأنها كانت صعبة المراس سيئة الطباع، وهذا ما لم أفهمه. كنا نجلس على سريرها المعـدني المذهَّب، وعـيـوننا مـعلّقـةٌ بصـورة جـدّي الموضوعة فوق خزانة الكتب، ونظلُ هكذا مدة طويلة قبل أن ننتقل إلى صورةٍ للبابا. وصوتها وهي تخبرني عن نفسها وهي زوجة شابة لضابطٍ،

وكان البابا ولداً صغيراً - كان أجمل من أي صبي صغير آخر في العالم كله. ويعودُ جدّي في المساء إلى المنزل مرتدياً زيّه العسكري الرائع ويمرُّ على الحضور كل على حِدة.

كان زواج جدتي غير سعيد. ثم جاء الطلاق الذي كانت فيه كبشَ الفداء، على الرغم من أنه تزوَّجَ ثانية على الفور. ولم أسألْ جدَّتي أبداً عمّا حدث ؛ كنتُ أعرفُ أنَّ أفكارها الآن لا تذهب إلى أبعد من السنين السعيدة. وطوال فترة معرفتي بجدتي تقريباً كانت تعيشُ في عالمٍ من الخيال أشدّ واقعيّة بالنسبة إليها من أي ذكريات مؤلمة. وفي هذا العالم كنا نتجوَّلُ نحن الاثنتان على مدى ساعات طوال.

إنه العام الذي كنتُ فيه في السابعة عشرة أقيمُ في أوسلو وكانت أفضل صديقاتي في الخامسة والسبعين.

***

يؤلمني أن أتذكّر الردح الأخير من حياتها في دار العجزة، ذات الأثاث الرفيع، والألوان المتناسقة، والأشخاص العاملون هناك يرتدون المآزر البيضاء والمرضى يبتسمون، ولكن حالما يرنُّ الجرسُ إيذاناً بتقديم طعام الإفطار، أو الغداء أو العشاء يتوجَّبُ على العجائز الخمسين أن يغادروا على الفور غرفهم ويمضوا إلى قاعة الطعام، ويجلسوا على المائدة مع أناسٍ لم يختاروا صُحبتهم. ويتبادلون الأحاديث عن أحداثٍ لا اهتمامَ لهم بها. ويعثرون على أصدقاء في وقتٍ تكونُ الوحدةُ والانتظارُ هما الشيئان الوحيدان اللذان يشتركون فيهما.

ثم هناك الرعب الذي يصيبها إذا ما اضطرّت إلى قضاء يومٍ كاملٍ في السرير، وقضاء ثلاثة أيامٍ في السرير كان يعني نقلها إلى جناح دار

الحضانة. وكانت هناك لائحة طويلة بأسماء المنتظرين تخصيص غرفٍ لهم، ونادراً ما كان أي منهم يرجع من دار الحضانة. وجاء اليوم الذي حان فيه دور جدتي لتنتقل إلى هناك.

" من الأفضل للإنسان العجوز أن يخضعَ لإشرافٍ مستمر، وأن يتكيَّفَ مع آخرين لهم الوضع نفسه ". هذا ما يقوله الأقرباء الذين لا يريدون إلا الأفضل للأعزاء على قلوبهم، ويرسلونهم إلى إحدى المؤسسات حيث الفرد لا يعودُ " أنا " بل " نحن ".

ربما " علينا " أن نأوي في وقتٍ باكرٍ قليلاً إلى السرير - إذا "نجحنا " في البقاء مستيقظين طوال النهار. أحياناً يتمُّ الاغتسال المسائي والاستعداد لقضاء الليل في الرابعة من بعد الظهر. وربما قبل ذلك بقليل، ولكن هناك نقصاً حاداً في هيئة العاملين - على أي حال فليس " لدينا " الكثير لنعمله أثناء " استيقاظنا ".

والقرع على الباب لم يعد ضرورياً. أي أسرار يمكن لامرأة عجوز أن تحتفظ بها ؟ وهي لا تملك غير سريرها ومسافة ثلاثة أقدام عن سرير جارها. وحيث لم يعد هناك كتب أو أثاث منزل أو صور، كما تتطلّب القوانين. ولكن إذا كانت المرضة لطيفة، فقد " نتمكن " من تعليق صورةٍ فوتوغرافيةٍ على الحائط (ولكن الأفضل عدم استخدام مسامير - فهي تتركُ علامةً سيئة) لذا، في " استطاعتنا " أن نجلس ونحدِّق إلى صور أفراد العائلة والأصدقاء الذين لديهم ما يشغلهم في الحياة إلى درجةِ أنهم يؤجِّلون زيارة العجائز من أسبوعٍ إلى آخر. وعلى أي حال، "نحن" مرتاحون جداً. وأحياناً يمكنُ أن يكونَ الزائرون مزعجين.

أتذكَّرُ جدّتي وهي تستعرضُ لي المكان. فتحتْ باب غرفة التلفزيون

وتساءلتْ عمّا حدثَ للفتاة اللطيفة التي تكونُ عادةً هناك. ورفضتُ أن أصدِّق أنها أصبحت خَرِفةً وأردتُ أن أستعيدها، أن أقولَ لها يجب ألاّ تغوصَ في الغيبوبة، أن أُذكِّرها بأني أحبها وأشتاقُ إلى أن أشاركها التجاربَ كما كنا نفعل سابقاً. يجب ألاّ تشعر أنها لم تعد تنتمي إلى الحياة التي كانت تُشكِّلُ فيها جزءاً ثرياً.

جلستُ على طرف سريرها وسرقتُ نظرةً خائفةً إلى جارتها. ها هنا مخلوقة دخلتْ قبل زمن طويل عالماً يمكن للمرء فيه أن يحلم ويتذكَّر بسلام.

أمسكتُ بيد الجدَّة، لا أدري كيف أتحدَّث معها. كل ما كنتُ أدركه هو أنها قريباً سوف تلحقُ بجارتها إلى أرض الأحلام تلك، لأنها كانت غير قادرة على تحمُّل الوضع الذي هي فيه.

لقد وصلَتْ إلى مرحلةٍ من الحياة يُسمحُ عندها للإنسان أخيراً أن يسترقَ نظرةً إلى كتاب الأجوبة، فلا يعثر فيه على أي جواب.

الحياة لم تصبح أبداً كما رغِبَتْ أن تكون. كانت النهاية أشدُّ تدميراً من أي شيءٍ آخر. فحين ذهبتُ لزيارتها سألَتني مَنْ أنا، وكأننا لم نتبادل عناقاً واحداً حين كنتُ طفلة. لم تعد تعرفْ أننا في وقتٍ من الأوقات كنا نتقاسمُ أروع الأسرار.

لذا كففتُ تماماً تقريباً عن زيارتها.

توفيت جدّتي ولم يعد أي شيء كما كان.

لعلَّ من الحمق أن يولعَ الإنسانُ بشخصٍ سيرحلُ قبله بوقتٍ طويل.

حين بلغتُ السابعة عشرة أعلنتُ عن رفضي الذهاب إلى المدرسة. انتقلت بي الماما من مدير المدرسة إلى الطبيب النفسي ومنه إلى مجلس العائلة، لكنْ بدون أي فائدة. لم يعد في مقدوري احتمال الجلوس في غرفة الدرس مع كل ذاك الملل.

أردتُ أن أخرج إلى العالم الرحب.

بعد ذلك بشهر كنتُ واقفةً على متن سفينة، أراقبُ مرفأً إنكليزياً يلوحُ في الأفق. بدا رمادياً غريباً. كنتُ خائفةً. وفي الصباح الباكر هبطتُ إلى شاطئ مدينة نيوكاسل. كانت خطوتي الأولى هي انتسابي إلى مدرسةٍ داخلية. وتحمَّلتُها بالضبط مدة أسبوعَين. كانت هناك ست فتيات في مهجعي. أرادت إحداهنَّ أن تنامَ معي في السرير نفسه. ولكي لا أؤذي مشاعرها قلتُ لها إني مخطوبة. ولم يكن مسموحاً وضعُ أحمر شفاه أو بودرة، أو التبرُّج بالحُلي. وفي الأمسية الأولى وقفتْ المعلِّمة عند الباب، بشعرها الشائب الفولاذي المضفور على شكل دائرة حول رأسها. راحت ترمقني بنظرةٍ قاسية وأنا مستلقية هناك، أمثِّلُ صورةَ فتاةٍ في السابعة عشرة تشعرُ بالحنين إلى وطنها.

" لقد وضعتِ مرفقيكِ على مائدة العشاء. وهذا ما لم نعتد عليه هنا ".

كنا نتمشّى مرةً في الأسبوع جماعةً داخل المدينة. كان زيّنا الرسمي أنيقاً تماماً. فإذا أرادتْ إحدانا أن تشتري شيئاً، نتوقفُ جميعاً، وتنتظرُ البقية بينما التي تريد أن تشتري تدخلُ بصُحبةِ المعلّمة. وكانت الفرجةُ على واجهات المحلات تعتبر تصرُّفاً سوقياً، لذا لم نكن نفعل ذلك. وكانت تُقام حفلةُ رقصٍ في كل يوم سبت. وتكون إثارةٌ عظيمةٌ وضحكٌ في المهاجع. ونضعُ شعرنا في عاقصات شعر ورقيّة ونفركُ وجناتنا حتى الاحمرار. وحين تدقُ الساعةُ السابعة تأتي فتياتٌ من مدرسةٍ أخرى إلى القاعة، ويبدأ الرقصُ. وشُرِّفتُ برقصة تانغو مع المعلِّمة لأني كنتُ وافدةً جديدة. ورقصتْ معي بيدين خبيرتين.

وفي صباح يوم الاثنين وقفتُ أرتجفُ أمام شريكتي في الرقص يوم السبت أُخبرها بأنه لسوء الحظ ليس في مقدوري أن أبقى هنا بعد الآن. وبدا عليها كأنها توافقني الرأي. وانهمرتْ الكلمات من فمها، وكلها تعبيرٌ عن الاستنكار.

في القطار المتوجِّه إلى لندن شعرتُ برغبةٍ في الضحك والغناء لكل مَنْ أقابله.

أخذتُ غرفةً في جمعية الشابات المسيحيات وشعرتُ عندئذٍ بأنَّ دراساتي المسرحية ستبدأ. كان البابا قد تركَ لي ألفيّ كراون. فإذا كنتُ حريصةً بالإضافةِ إلى إعانةٍ قليلةٍ من الماما رأيتُ أن في إمكاني أن أصمدَ على الأقل ستة أشهر.

في الطابق العلوي أفرغتُ حقيبتي، وتصرَّفتُ وكأني في بيتي في غرفةٍ مُخصَّصةٍ لخمسة أشخاص، وكان السرير الموضوع عند النافذة هو لي. هنا في إمكاني أن أستلقي في الصباح وأنظر إلى الدخان السامّ

الذي كان ما يزالُ يُخيِّمُ بكثافة فوق المدينة في أواخر الخمسينيات. وقد سعدتُ أيَّما سعادة بنفسي وبإمكانيات الحياة. كنتُ ولأول مرة أقفُ وحدي على قدميّ - بعيداً عن الماما لتسهرَ على كل خطوةٍ أخطوها.

في السرير المجاور لسريري كانت امرأةٌ إنكليزية، متزوجة من نرويجي كان قد هربَ إلى إنكلترا، وتركها في بلدةٍ نرويجية صغيرة بدون أي بنس. والآن هي في إنكلترا لتفتِّشَ عنه. وقد اقترضتْ مالاً من أجل السفر، وعلا وجهها الشحوبُ وبدا عليه الإرهاق حين عَرَضَتْ عليَّ صورة ابنتها. وأحياناً، حين كانت تعتقد أننا جميعاً نائمات، كنتُ أسمعها تبكي وهي تشدُّ اللحاف فوقَ رأسها ؛ أو توصد على نفسها باب الحمّام، المكان الوحيد الذي يمكن للمرء أن ينفرد فيه بنفسه. وأنظرُ إلى الباب الموصد وأسمعُ تنهدات القنوط صادرةً من خلفه، وأتمنى أن تكونَ وطأةُ الحبّ عليَّ دائماً خفيفة وخالية من التعقيد.

* * *

كنتُ في صباح كل يوم أعملُ مع آيرين برينت، الممثلة والمدرِّسة. كانت تتولى إرشادي بدون مقابل. من ناحية لأنها صديقةً حميمةً للنرويج مدلَّهةً بحبّه، ولكن أيضاً لأني كنتُ مشاهدةً ممتنَّةً لإلقاء أدوارها. فقد كانت تتدرَّبُ على أدوارها كلها التي تقدِّمها في الإذاعة وفي المسرح عليّ، بل لقد سُمِحَ لي في إحدى المرات أن أظهر معها وأن أقرأ شعراً نرويجياً.

كانت تفتحُ بيتها مرتين في الشهر، ويملأ شقتها الصغيرة أغرب مجموعة من الناس من كل الأعمار - ولكن تجمعهم رابطة الحب الحميم للمسرح. ويقرأ كلٌ منا للآخر بصوتٍ عالٍ أجزاءً منتقاة، ونجلسُ

متلاصقين على المقاعد القليلة أو على الأرض. ولم تكن تتوفّرُ أي مشروبات مرطِّبة، ولكن لم يكن يبدو على أحد أنه يفتقدها ونحن جالسون، رؤوسنا محنيّة فوق كتب الشعر أو المسرح المهترئة.

أحياناً يزورنا عجوزٌ وسيم، كان قد مثَّلَ دور هاملت على خشبة مسرح حقيقية. كانت صحته عليلة وكان متواضعاً جداً. حين يظهر يُثيرُ الجميع لغطاً حوله، ونتركه ليختار الدور الذي يريد - أو أن يقرأ شعراً إذا رغب في ذلك. ويهمسون لي بأنَّ حياته كانت صعبةً، فأشعرُ بأني في حضرةِ عبقري.

بعد مرور بضعة أسابيع سُمِحَ لي بمرافقة آيرين إلى المدرسة التي تُعلِّمُ فيها. وكان أبرز مَنْ مرَّ عليهم من تلاميذ ستيوارت غرينجر[10]، وكانت صُوَره مُعلَّقةً في كل غرفة. ورأيتُ بعين خيالي صورتي أيضاً وقد عُلِّقَتْ هناك بعد بضع سنين.

حين لم يكن لديَّ ما أفعله (وفي أغلب الأحيان لم يكن لديّ ما أفعله) كنتُ أذهب إلى السينما. فأشاهدُ ثلاثة أفلامٍ أو أربعة في اليوم الواحد

كانت هناك مقاهٍ صغيرة تُقدِّمُ مشروب الشوكولاة الساخن، وأفضل وأرخص وجبة غداء في العالم. أحياناً ينخرطُ شخصٌ غريبٌ في حديث معي فكنتُ إما أن أُغلقَ شفتي وأمثِّلُ دور الفتاة الفاضلة القادمة من تروندهيم أو أمرَّ بتجربةِ عشر دقائق مُثيرة من تبادُل النظرات والحديث، وبعد ذلك تتخلّى شجاعتي عني ويقطعُ حديثَنا " خطيبي من أرض الوطن ".

كنتُ أتمشّى في شارع بوند وأتفرَّجُ على الواجهات بحثاً عن أثوابٍ أشدُّ أناقةٍ من تلك التي في النرويج. أحدِّقُ إلى كل الأضواء والحشود في

سيرك بيكاديللي. وأفتحُ فمي انشداهاً بالفتيات الإنكليزيات، اللواتي لا يلبسن جوارب صوفية أو ملابس داخلية في الشتاء ويبدو أنهنّ جميعاً تقريباً يُصبنَ بازرقاق السيقان في الصيف. وفي ذلك العام كُشِفَ أمرُ رجلٍ ضئيل مستوحد اتّضحَ أنه قاتل بالجملة كان يحتفظُ بجثث النساء في غرفةٍ مختومة في الطرف الآخر للشارع الذي تقعُ دار السينما المفضّلة لديّ. ودارت قصصٌ عن تجارة رقيقٍ أبيض تدور بين فتياتٍ في جمعية الشابات المسيحيات، وقد حَضَرَ بعض الآباء القلقين لإعادة بناتهم إلى المنزل.

* * *

نحن القادمات من النرويج شاهدنا التلفزيون للمرة الأولى. بكينا مع غريس كيلي في يوم زفافها وحلمنا بزفافنا نحن. وكنا نأكلُ طعاماً نرويجياً ونشتاقُ إلى العودة إلى الوطن. ونجري مكالماتٍ هاتفية جماعية مُكلفة لنسألَ إن كان في إمكان العائلة أن تُرسِل لنا مزيداً من النقود.

غادرتْ بعضُ الفتيات الجمعية لأنه لم يُسمَح لهنّ بالخروج بعد الساعة العاشرة بدون الحصول على إذنٍ خاص. وحصلَ البعضُ على عملٍ كمساعداتٍ في المنازل أو قابلتُ أخريات إنكليزاً وتزوجن. أما الأغلبية، مثلي، فتحسَّنتْ لغتهنّ الإنكليزية قليلاً وعدنَ إلى وطنهن النرويج.

لين تريدُ أن تغدو بهلواناً على حبل مشدود في السيرك. وهي تكتبُ رسائلَ طويلةً إلى الأخوة رينغلينغ. وتتساءلُ قلقةً إن كانت ستضطرُّ إلى العيش مع طاقم السيرك أثناء تعلُّمها الحِرفة.

لا أرى حزناً في عينيها لدى تفكيرها في أنَّ عليها أن تفارقني. الأمتعةُ هي التي تُقلِقها: أي ملابس وأي نوعٍ من الكتب ستأخذ معها. أرى من نظرتها المسترسلة بعيداً، الخالية من أي تأثُّر لمغادرة الماما، أرى الزمنَ الآتي ... ربما فقط بعد بضع سنوات. وأنا ممتنّة، لأني أشاهدُ لمحةً مما سأمرُّ به في المستقبل.

سيكونُ فراقاً أنا التي ستبكي أثناءه، في حين أن تفكيرها سيكونُ منصبّاً منذ وقتٍ طويل على الدرب الذي ستسيرُ فيه ولن أتمكّن قط من مرافقتها عليه.

نذهبُ في نزهةٍ بالدراجة.

أمٌّ عليها أن تُخفِّفَ من وزنها وابنةٌ ذات سبع سنين تلقَّتْ لتوّها أول دراجة ذات دولابين من والدها. لونها أزرق وبرّاقة، تشعُ وتلمعُ. وتظهر بمظهر المتفوقة إلى جانب دراجتي العتيقة والمستهلكة، والتي تزيد في عمرها عن عمر طفلتي. وينطلق جرسٌ يرنُ رنيناً صدِئاً فيردُ عليه جرسٌ آخر هش.

الصدر الناضج ممتلئ بالحب والحنان مثل شكل صغير نحيل مرٌّ لتوّه مسرعاً بغطرسةٍ والتفتَ نصف التفاتة. ويد قذرة لوَّحت بلهفةٍ وسرعةٍ. وابتسامةٌ لم تنجح تماماً في إخفاء الكبرياء الرصين.

إنه الربيع، وقد حصلتْ على دراجة من والدها، والماما لديها وقت فراغ اليوم.

إننا تقريباً أشبه بعائلة عادية.

بين حين وآخر نقود الدراجة جنباً إلى جنب ؛ نكلِّمُ الأشجار التي نمرُّ بها، نتحدث عن شدة حرارة الشمس، مع أنَّ الوقت ما زال ربيعاً، وعن الأزهار البريّة التي سنأخذها معنا إلى المنزل ونضعها في مزهريات على طاولة المطبخ.

وحين ينال منا التعب من الكلام، نتظاهرُ بأنَّ دراجتي الكبيرة تثرثر مع دراجتها الصغيرة. وكان بينهما الكثير لتتناقشا فيه. وتتحدث دراجتي عن كيف كان العالم قبل ولادة الطفلة الصغيرة. عندئذٍ كانت الدراجة تقطن في قلب أوسلو، وكانت خائفة على الدوام. كانت حركة المرور مُكثَّفة جداً وأم الطفلة لم تكن تعرف أنظمة السير. لذا حين كانتا تخرجان معاً كانت دائماً تتبعهما أصوات الأبواق المدوّية والصيحات الغاضبة.

فيما بعد انتقلتْ الدراجة إلى جزيرةٍ في السويد وهناك تقريباً لم تكن توجد أي سيارة. وفضَّلتْ الماما أن تركب الدراجة على طول الدروب التي تتخلَّل الغابة، الضيقة جداً حتى أنَّ الأشجار كانت أحياناً تتسبَّب في كشط الدهان.

والآن، وقد أضحت عجوزاً، يطيب لها العيش في الريف وتشعر أنها مفيدةٌ، لأنه لا أحد من جليسات الأطفال أو الأصدقاء أو أعضاء العائلة يخشى طلب الإذن باستعارتها.

وهذا شيءٌ جميلٌ ؛ أن لا تمكث في القبو لتصدأ.

" وأنت، أيتها الدراجة الصغيرة ؟ "

ويشرحُ صوتٌ صارٌ أنَّ هذا هو ربيعها الأول وأنها تشعرُ بشيءٍ من الخوف من أن تقع ويُكشط دهانها.

وتُخبر دراجتي الدراجة الأخرى عن الشتاء القادم وعن مبلغ الوحشة التي تشعرُ بها وهي واقفة وسط الظلام بين أثاث الحديقة وعربات الجرّ والرفوش، لا أدري متى سيفتح باب القبو ليُعلن، من خلال نشاط جديد، قدوم الربيع. في الشتاء تفضِّل أن تقف وتتظاهر بأنها نائمة ؛ وعلى أي حال، لا يمكن إقامة حوار محترم مع عربة جر.

أحياناً تضطر إلى أن تغلق أذنيها في وجه كلام الأرجوحة الشبكية، التي لا تبلغ من العمر أكثر من عام وهي كبيرة زرقاء اللون وذات شأن، عندما تحدثنا باستخفاف لأنَّ لونها باهت ولم يعُد لها منصب للأمتعة.

وتقول لين " أوه، ماما، ألا يمكننا أن نشتري منصباً للأمتعة وحقيبة للأدوات ؟ "

وأفسح المجال بسرعة لدراجتي كي تشرح بالقول إنها أعجز من أن تقوى على حمل كل ذاك الثقل الزائد.

ونتحدث مع الأشجار التي نمر بها. نبثُّ فيها الشجاعة لأنها تبدو ضخمة جداً وثقيلة وعارية تقريباً بما أنَّ الأوراق لم تنبت بعد.

وتهتفُ لين تخاطبها " أليس من الخطر البقاء خارجاً أثناء الليل ؟"

وتجيب إحدى الأشجار بصوتٍ كالهرير " أوه، لا. إننا نتآنس معاً. لابد أنَّ الأمرَ أسوأ حين يكون المرء دراجة يُسنَد إلى سياج حديقة لدى حلول الظلام وتخلد لين إلى النوم ولا يعود بمقدورها السهر عليها "

" ماما، أتعتقدين أنَّ الدراجات خائفة ؟ "

تجيبُ الدراجة الكبيرة بالقول إنَّ المكوث في الليل المُظلم والريح تهبُّ قد يكونُ مُخيفاً قليلاً. وأحياناً قد تشعر وهي هناك بوحشةٍ رهيبة.

تتنهَّد لين " أوه، ماما "

ثم نعود إلى البيت.

ولا ترغب الطفلة في الدخول.

تجلس على الدرج وتربُتْ على الدراجة العجوز القبيحة. وتترقرق الدموع في عينيها واضطرّ إلى الجلوس إلى جوارها وأذكرها بأننا إنما نلعب، وأنها قصة مُختلقة.

نظلُ جالستين فترةً طويلة وتبردُ مؤخرتانا.

وأخيراً، تضطرّ الدراجة الكبيرة للقول إنها الآن تودّ أن تترَك وشأنها بسلام. إنها تستطيع أن تفكر بشكلٍ أفضل بكثير حين تكون وحدها. ثم إنها ليست خائفة حقاً أو تشعر بالوحشة في الليل. وإنما هي قالت ذلك فقط لتثير الاهتمام بها. إنَّ الأشجار دائماً تكون ودوداً جداً، وأشجار التنوب التي تحيطُ بالمنزل غالباً ما تتحدَّث معها.

* * *

أثناء تناول طعام العشاء تظلُّ لين تهرع إلى النافذة - تنظرُ إلى الأشجار وإلى الدراجة الكبيرة والدراجة الصغيرة. لكننا لا نعودُ إلى الحديث عنهما لأنَّ هناك برنامجاً للأطفال سيُعرَضُ في التلفزيون، وبعض القراءة بصوت عالٍ، وصلوات مسائيّة.

بعد أنْ أُدثّرها وتغوصُ في النوم، أكادُ أسمعها تتنهَّد وكأنما تراودها أحلامٌ حزينة.

قبل أن آوي إلى السرير، تجري دراجةٌ قديمة وأخرى جديدة إلى المدخل المسقوف، حيث النور والدفء، كسائهما الخارجي، والطاولة الخضراء الجميلة المُرصَّعة بأحجارٍ كريمةٍ بنّية اللون.

هناك تقفان الآن في كل ليلة. وفي الحقيقة، هذا الأمر ليس مؤكَّداً تماماً ...

المسرح النرويجي يقومُ بجولةٍ لتقديم " بيت الدمية ".

حلَّ الربيع باكراً هذا العام، دافئاً وممتعاً. واستُقبِلَ ببلوزات رقيقة وكأنَّ الربيع هو الصيف.

دخلنا هاردانغر. إنَّ جمالها الفائق يُثيرُ غصَّة ألم داخلي. لم أكن أدري أن بلدي أيضاً جميل. جبال تنعكس على حياة الأزقة البحرية البراقة الهادئة - جبال تصل إلى عنان السماء مغمورة بنور الشمس. وهنا وهناك ترى ثلوجاً تُغطي منحدراً ظليلاً.

الدربُ يمثِّلُ رحلةً خلال عدَّة فصول.

ما سيغدو ثماراً هو الآن أزهار جميلة. ألوان رقيقة، غضّة تتضاعفُ مع امتداد التل، حيث أزهار برية لم أرَ لاحتشاد ألوان الأزرق والأحمر والأصفر فيها مثيلاً، حتى إننا " نرى " العبير قبل أن نفتح النوافذ وندع براعم الكرز والتفاح تنضبُ إلى داخل الحافلة لتُثملنا جميعاً.

وخلال فترة وجيزة نصبح في الأعالي، مُحاطين بقمم الجبال المُجلَّلة بالثلوج والتي لم تكن قد سمعتْ قط بحلول الربيع الذي مررنا به لتونا.

دروب ضيِّقة متعرِّجة - أحياناً كنا نضطر إلى إرجاع الحافلة الثقيلة إلى الخلف وترك الدواليب الخلفية تتجاوز حدود الطريق لكي تتمكّن من التقدُّم.

وشلالات مياه تندفع بجنون أسفل منحدَر الجبل، وكأنها خرجتْ عن

طورها من شِدَّة الفرح لأنَّ غِطاء الثلوج قد تتلاشى. وتتغيَّر أحوالها حسب ما يصلها من ضوء - وترى بلايين الأحجار الكريمة تنسابُ في طريقها إلى البحر.

"أه، هذا الجانب من النرويج، أنا أفهم لماذا قلَّما يُعاني المرءُ لأجله"

إنَّ لدينا فرقتنا الموسيقية الخاصة بنا ويمكننا أن نحتفي بكل هذا الجمال. ثمة عازف كمان جالس إلى جواري، نحيل، بارز العِظام، ويسند ذقنه بكمانه. والآن أعيشُ مقطوعة " موكب عرس في هاردانغر " وأعرفُ لماذا يعتبر كمان هاردانغر أفضل مَنْ يُعبِّر عن طبيعة النرويج.

السعيد هو ذاك الذي يستطيعُ أن يقضي يوماً في كاليفورنيا، فيشرب العصير من برتقالةٍ قُطِفَتْ لتوها من الشجرة، ويشعر بالحرّ وكأنه مداعبة على كامل جسمه ووجهه - ومن ثم يستقلّ في اليوم التالي متن عبَّارةٍ صغيرةٍ ويقفُ عند مقدمها ويمخُر عباب مياه زُقاق بحر نرويجي وهو يعرف حق المعرفة أنه يشكِّلُ جزءاً من كل ما يحيط به.

* * *

في الحافلة التي تقلُّنا في جولتنا كان هناك ثلاثة منا خضعوا لاختبار الأداء لدخول معهد التمثيل المسرحي في العام نفسه. ولم ينجح أيٌّ منا. وها نحنُ نتقابل في العرض المسرحي المسائي، ونؤدي أدواراً رئيسية. إنْ فشلنا تركناه وراءنا بعيداً، ومنذ ذلك الحين حدثَ الكثير. إننا نجلس في الحافلة ونتذكَّر.

" كيف كانت ردَّة فعلك عندئذٍ ؟ "

" أتذكُر مَنْ نجحَ في ذلك العام ؟ "

" ماذا فعلت بعد ذلك ؟ في تلك الليلة ؟ في الأشهر التي تلت ؟ "

ونضحك. نشعرُ بسعادة مشتركة حيال أمرٍ كان في وقتٍ سابق قد سبَّبَ لنا أشدّ الآلام.

كنتُ أقتربُ من عامي الثامن عشر وقد وصلتُ إلى أوسلو بعد أن درستُ التمثيل في لندن. وكنتُ مقتنعةً بأني بتُّ أعرفُ تقريباً كل شيء. ولم يكن يخامرني أدنى شك في قدراتي كممثلة.

ولكن في أعماقي كنتُ أشعرُ بعدم الثقة وبتوقٍ للعودة إلى المدرسة في تروندهيم، حيث كانت صديقاتي يدرسنَ عندئذٍ استعداداً للتقدُّم لامتحانات الدخول إلى الجامعة، ويعشنَ في طمأنينةِ المدرسةِ والدروسِ والمنزلِ والأصدقاء.

كنتُ سأعيشُ وحدي تماماً ولأول مرة في حياتي. كانت لديَّ شقة مؤلّفة من غرفة واحدة ولها مدخل مستقلّ، وظننتُ أني سأبدأ العمل في معهد التمثيل.

بعد الخضوع لتجربة الأداء - حول جوليت وأوفيليا - وقفتُ في الرواق ورحتُ أنتظر صدورَ لائحةٍ بأسماء الذين سيعيّنون من بين الذين قُبلوا. وحين صدرتْ وقفَ فتى أخرق طويل إلى جانبي وأخذ يقرأ بصوتٍ عالٍ أسماء المختارين وبينما كنتُ أشعرُ بالأمل يتلاشى مني، لأنَّ اسمي لم يكن وارداً ، فهمتُ، حين توقفَ فجأةً قبل قراءة آخر اسم، أنَّ اسمه وردَ. اكتفى بالابتسام، ومشى بهدوء خارجاً من الغرفة وكأنَّ لاشيء حدثَ له.

ظللت سنين عديدة أتابع مسيرة حياته. وكنتُ آمل أن أجد شيئاً من العدل في هزيمتي من خلال نجاحه هو.

الآن هو يعمل تاجر سمك في السويد، وقد سمعتُ أنه راضٍ تماماً عن سير أموره.

وقفتُ في الرواق مدةً طويلةً إلى أن صرتُ أحفظُ الأسماء العشرة عن ظهر قلب. وكان بعض الطلاب الأكبر سناً يمرّون بي ويومئون إليّ برؤوسهم مُحيّين. ثم خرجتُ إلى الشارع، ورحتُ أمشي طوال الليل، وأنا مذهولة، أتكهّن بأنَّ هكذا سيكون حال حياتي دائماً. كما كان يحدث في حفلات الرقص المدرسية، حيث تقف المتفوقات بعيداً عن الأخريات، وتلبث الراسبات بملابسهن الورديّة اللون في غرفة السيدات ويبكين.

لم يخطر ببالي أنه كان هناك عدد من الراسبين في ذلك اليوم، ممّن سيغدون رفاق مهنة والذين سأقابلهم بعد ذلك بوقتٍ طويل في حافلة الجولة المسرحية، ونستعيد بخفّة حياة الشبان الصغار الذين كناهم ذات يوم، ونحن نضحك بدون تحفُّظ.

ولم أجد لي عزاءً إلا عند جدَّتي. وبحلول الصباح كنتُ معها، ورحتُ أبكي من أعماق قلبي ؛ أجهشُ على الصدر الذي لم يضمر مرةً الحلم المحطّم الآن في صدري. وعلى امتداد الليل تعرّى كل ما هو اعتيادي ومألوف، ووجدتني وسط حالة انتقالية. كان يجب أن أتعلّم درساً من هذا، درساً صعب الفهم : وهو أنَّ الإنسان يحملُ قدَرَه داخله، وقَدَر الإنسان لا يتأثَّر بهذا النوع من الفشل والنجاح.

إنَّ الوعي عملية طويلة، هو الانفتاح على الحزن ؛ اعتباره جزءاً من العيش، والتطوُّر والتغيُّر.

أمضيتُ عاماً في أوسلو، وأكثر ما أتذكَّره منها هي الأشهر القليلة الأولى التي اتَّسَمَتْ بالوحشة. وحزني الأكبر أثناءها كان جرَّاء إحساسي بافتقاري إلى المقدرة والموهبة. أشهرٌ خِلتُ أنها لن تنتهي، حيث لا هدفَ ولا معنى، وهذا الكلام دوَّنته بتأنٍ في مفكِّرة زرقاء اللون لا أزالُ أحتفظُ بها، خطَّتها يدُ فتاةٍ صغيرة عاشت قبل زمنٍ بعيد . إنها آلامٌ لم أعدْ أذكرها، أفراحٌ لم تعد تشكِّلُ جزءاً مني.

شقَّةٌ مساحتها اثنا عشر قدماً مربعاً. أيامٌ بلا تنظيم. ليالٍ طوال زاخرةٍ بالكوابيس. أبديةٌ ما بين النهوض في الصباح وإحساسك بأنك منبوذٌ في الليل.

كل يوم أضعُ التفكير في المكتبة نُصبَ عيني ؛ أقضي ساعات طوال أدوِّنُ خلالها ملاحظات دقيقة حول ما يجب أن أقرأه. غرفٌ كبيرةٌ، يلفُّها السكون. مكانٌ مناسبٌ، مكانٌ جديرٌ بالانتسابِ إليه.

هناك طلابٌ ومتقاعدون وربات بيوت. في الشتاء تجد المشرَّدين الذين يكادون يتجمَّدون من شِدَّة البرد يجلسون وبيدهم صحيفة حتى وقت الإقفال، حين يبدأ من جديد البحثُ عن المأوى الليلي.

لا أحد يتحدَّثُ مع أي شخصٍ آخر - لا اتصالَ مع أي جارٍ. ويُقلِّبُ القارئ الصفحات برفقٍ، حتى لا يثير إزعاجاً أو يلفت انتباهاً.

في إحدى المرات كنتُ أشربُ الشاي في مقهى قريب، فجلستْ فتاة، أكبر سناً مني بقليل، إلى طاولتي. رحنا نتحدث مدة ساعة. بمعنى، أنها كانت تتكلم بدون أن يبدو عليها أنها تلاحظُ أني حيِّة ومجرد مستمعة ممتنّة. وصرتُ أجلسُ على تلك الطاولة على مدى أسابيع، مفتونةً بكل الأشياء التي كان في استطاعتنا أن نفعلها سوياً. لكنها لم تعُد أبداً.

أحياناً كنتُ أحصلُ على عملٍ - أُلصِقُ طوابع، أكتبُ العناوين على الظروف، أو أي عملٍ يتوفَّرُ لي. في تلك الأوقات كنتُ أتناولُ طعام العشاء في كل يوم وأبعثُ رسائلَ إلى الوطن أقولُ فيها إنَّ عملي في التمثيل يسيرُ على أحسن ما يرام.

الجلوسُ في حافلة الجولة المسرحية كالنعيم. هنا لا توجدُ متطلبات. يخطرُ على بالي ما قاله فيكتور بورج ذات مرة ومفاده : إنه كان يُحبُ الوقوفَ على خشبة المسرح لأنه لا يمكنُ لجهاز الهاتف أن يصل إليه وهو هناك.

أمضيتُ ساعات طويلة في ثرثرةٍ لذيذةٍ مع جاري، في معايشة الطبيعة في وطني الأصلي. أحياناً كان بعضنا ينطلقُ في الصباح الباكر سيراً على الأقدام، وكنا نتوردُّ فَرَحاً وسعادةً حين تلحقُ بنا الحافلة.

في كل يوم هناك حدسٌ بالوصول إلى مكان جديد، وبمقابلة جمهورٍ جديد في كل ليلة. نتّصلُ بأناسٍ ليسوا معتادين على ارتياد دور المسرح. نمثّلُ لرجالٍ ونساءٍ ما زالوا يعتبرون مشاهدةَ مسرحيةٍ ما تستأهلُ أن يركبَ المرءُ دراجةً أو يسيرُ على قدميه مسافات طويلة. جمهورٌ مزدحم داخل صالةٍ صغيرةٍ ذات مقاعد غير مريحة. وخشبة مسرح قديمة وإضاءة بائسة.

" نحنُ " فرقةُ التمثيل المسرحي الحقيقية. نأكلُ في فندقٍ غريب، نتّصلُ هاتفياً بأطفالنا وأزواجنا، ونضعُ المكياج على طاولات زينة مؤقّتة.

و" هم " الجمهور الحقيقي، الذين يعيشون حياتهم الخاصة هناك في قلب الظُلمة. أنفاسهم وضحكهم وإثارتهم جزءٌ من معايشتنا لهم. وبين الحين والآخر يتمُّ النقر على وترٍ ما، فنصبحُ وإياهم وحدةً واحدة. صالة المسرح يلفُّها السكون وخشبة المسرح تعجٌ بالحياة.

نعودُ إلى الفندق، فنجد نبيذاً وضوءَ شموع يبقى بعضنا يقظاً حتى الصباح الباكر. وفي اليوم التالي ننتقلُ إلى مكانٍ آخر. الحافلة ملآى بالأزياء ومُعدأت المشاهد والحقائب. وحفنةٌ من الناس يتشاركون في العيش لفترةٍ وجيزة.

ذات صباح أُحسُ بكتلةٍ في بطني، كتلة من النوع الذي يُصابُ به الإنسان حين يكونُ حزيناً بدون سببٍ معيَّن. الشخص الجالسُ إلى جانبي ينتابه الشعور نفسه. ونتساءلُ عن سبب مثل هذا الحزن المفاجئ. ومن ثم إذا به يختفي حين نتشاركُ به.

نسافرُ إلى تجمُّعاتٍ ريفيّة صغيرةٍ تمرُّ بها الفرَقُ الكبيرةُ مرورَ الكِرام. نمثّلُ في أماكن مكتظّة. وأحياناً يضطرون للإرسال في طلب مزيدٍ من الكراسي من البيوت المجاورة.

مدينة سلجورد تفخرُ بتمثالٍ لجدّي الأكبر، يقومُ على جانب الطريق وأشعرُ بالفخر لدى مرورنا به. كان قد أنشأ مدرسةً جديدةً هنا، هي إحدى أولى المدارس من نوعها في النرويج. وهو معروفٌ في ذلك الجزء من البلاد أكثر مني.

* * *

ذات مرة قابلتُ ابن أخيه في أوسلو.

كنت شابةً صغيرة ومتزوجة حديثاً وأعملُ في المسرح الذي أعملُ

فيه الآن. وكان عازباً قصيرَ القامة، نحيلاً، في الخامسة والسبعين، يعملُ أمين أرشيف عند الحكومة، ومثلي، تُفضِّلُ العائلةُ أن تتغاضى عن وجوده.

وذات مساء إذا به واقف عند باب خشبة المسرح ويُنبئني بأنه عمي الأكبر. فهل أشرِّفه بقبول دعوته على العشاء في الأسبوع التالي ؟ وطبعاً زوجي مدعوٌ أيضاً. واتفقنا على الاجتماع في مطعم فالكيري.

لم آبه حتى بالتأنُّق في ملبسي. وأقنعتُ زوجي بالمجيء معي حتى نشترك معاً بالضحك على الأمر فيما بعد.

استقبلني رئيس النُدُل استقبالاً احتفالياً. وفوجئتُ بأنَّ المطعمَ العتيقَ تحوَّلَ إلى مكانٍ أنيق. في السابق كنتُ أقرنه بشرب البيرة وأكل كرات اللحم. أُخِذَتْ منا معاطفنا بعناية. همسَ الخادمُ المسؤولُ عن غرفة الملابس قائلاً إنَّ السيد أولمن ينتظرنا في الطابق العُلوي. كان في صوته نبرة احترام. كان عمي الأكبر " معروفاً " وحتماً ليس بالغبي حتى يصدِّق أنَّ شابَّين قَدما لمقابلته من باب الإحسان.

كانت المائدة مُزيَّنةً بالزهور، وقُدِّمَت لي وردة وإلى زوجي قرنفلةٌ ليضعها في عروته.

كان العجوز يرتدي بذلة سوداء رثّة، وكان شعره، أو ما تبقَّى منه، مُسرَّحاً وملتصقاً برأسه. كان عصبياً ويداه باردتين حين صافحنا.

كانت أجمل أمسية أقضيها في حياتي.

شيئان كانا مُعدَّين بعناية : لائحة الطعام والحديث الدائر. وحالما زالَ إحساسي بالخجل بسبب حضوري بالجينز، وتهيَّأتُ للاستمتاع بالأمر كلّه، صرتُ أقرب إلى عائلة البابا من أي وقتٍ مضى.

كان هناك حديثٌ صغيرٌ حول كل موضوع. قيلَتْ كلماتٌ حماسيّةٌ حول ما تمثّله العائلة. ومع مجيء الحلوى، كنا نحن الثلاثة في أقصى حالات الإثارة، ورفعنا كؤوسنا لنتبادل الأنخاب.

طرحتُ أسئلةً وأجابَ عنها. أعطاني مُخطَّطاً لنَسَب العائلة رَسَمَه بدقَّةٍ بخط يد رجلٍ عجوزٍ مُنمَّق.

ثم، وبالرصانة نفسها التي استُقبلنا بها، أُشيرَ إلى انتهاءِ وجبة العشاء.

استمتعَ عمي الأكبر بوقته أيّما استمتاع، لكنه رجلٌ عجوز وكان يجب أن يخلد إلى الراحة.

كادت يده النحيلةُ أن تختفي في يدي. وعانقتُهُ عناقاً سريعاً، فتنحنحَ وبدا عليه الارتباك.

أرسلتُ له زهوراً مرتين أو ثلاث مرات، ورسالة، لكني كنتُ في زحمةٍ من العمل بحيث رحتُ أُرجئ دعوته إلى منزلي.

رأيته مرة يسيرُ على الرصيف متقدِّماً نحوي، ولكن لما كنتُ لا أدري ماذا أقولُ له، عمدتُ بسرعةٍ إلى اجتياز الشارع. ثم هرعتُ عائدةً إليه لأقولُ له كم أنا مولعةٌ به. خشيتُ أيضاً أن يكونَ قد رآني. لكني لم أعثر عليه. بعد ذلك بوقتٍ قصير قرأتُ في الصحيفة أنه مات. ولم أحضر الجنازة. في ذلك اليوم لم أرغب في مقابلة باقي أفراد العائلة.

صوتُ لين يصلني عبر الهاتف. تفصلني عنها المسافةُ والتحفُّظ.
أؤكِّدُ لها حبي لها. " صغيرتي، أنت أغلى إنسان لدي "
" كلا، هذا غير صحيح "
ويغرق صوتُ الطفلة في صمتٍ عميق.

لا أزال أقوم بالجولة بالحافلة التي ترتجُ بي في طريقي إلى منطقةٍ نائية في النرويج. دائماً تقريباً أجدني في طريقي إلى مكانٍ ما. نادراً ما ألزمُ بيتي. وأرى المربيات والجيران يحملون ابنتي، يقومون بما يتوجب على ذراعيّ ويديّ أن تقومَ به. لعلها تستشعر شفقتهم، وأنا متأكدة من أنهم يكنّونها، وإن كانوا يحاولون أن يخفوها عنها.

أعرفُ أنَّ مهنتي بالنسبة إليهم ونجاحي يرقيان إلى مرتبة الفشل، لأني لا أملأ مكاني في البيت الذي يملؤونه نيابة عني. أعرفُ الانتقادات التي أنا متأكدة من أنهم يضمرونها لي - إنني أتفهّمها، لأنني أوجِّهها أيضاً لنفسي.

أنا جالسة في حافلة مُحاطة بأناسٍ، وأخشى أن تنتقل عدوى إحساسي بالوحدة إلى ابنتي. بالنسبة إليّ الوحدة تؤدي عملاً. أما هي فلعلها تتوقُ إلى أي نوع من العلاقة لتعوِّضها عما افتقدته مني.

أذكرُ طفولتي أنا، حين كنتُ وحدي في عالمي الخاص أراقبُ البالغين الكبار وأتعجَّبُ من حيويتهم الفائقة. كان كل ما يفعلونه على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية لمجرد أني لم أدرك كنهه ولأنه كان دائماً يبدو عليهم الانشغال. وكنتُ صغيرة وخارج هذه الأمور كلها، لأنه لم يكن في عالم البالغين ذاك مكانٌ للأطفال.

ستحصل لين على شيءٍ جميلٍ حقاً حين أعودُ إلى البيت. سوف أصحبها لمشاهدة عروضٍ مسرحية وسينمائية . سوف أضعها في حجري وأحكي لها عن الماما حين كانت فتاةً صغيرةً. سأقوم بكل هذا بعد انتهاء الجولة، وقبل أن يبدأ الهاتف بالرنين، وقبل أن تغدو المطالب التي تنهمر عليّ من كل الناس المتحكّمين في حياتي أشد إلحاحاً من مطالبها.

سوف نقضي أياماً من انتماء إحدانا إلى الأخرى ؛ لكنَّ ضميري سوف يبدأ تدريجياً بمحاصرتي - بالرسائل التي بلا ردود، والأعمال غير المنجزة. وشيئاً فشيئاً سوف أعودُ المرأةَ المحترفة، فأعتلي خشبة المسرح أو أقفُ أمام كاميرا التصوير أو أحضر اللقاءات، وأفكِّر فيها هي هناك في البيت، تلك التي لا أخذلها لأني أعجزُ عن إيجاد أي حلٍ ينجحُ في الجمع ما بين طفولتها وحياتي كامرأةٍ ناضجة.

كما يفعل الناس في الكتب، وكما تنجح نساء أخريات في عمله في اعتقادي في منازل " هنَّ ".

" في داخلي طفلةٌ ترفضُ أن تموت ... "

* * *

معهد التمثيل يرفضها. لكنَّ مسرحاً ريفياً صغيراً يحتاجُ إلى واحدة في مثل عمرها.

وجاء اليوم العظيم. غادرَ قطارُ محطة أوسلو في طريقه إلى ستافانغر. كانت في الثامنة عشرة، تشع بالسعادة - الآن وأخيراً تحقق الأمل! ففي حقيبة يدها يندسّ مُستكيناً عقدُ عملٍ مسرحي، وقد أصبحَ قذراً من تكرار التأمُّل فيه إعجاباً، من أثر الأصابع التي فتحته وأعادت طيّة مرة بعد مرة. وأرته لكلّ مَنْ طلبَ أن يراه - وأيضاً لكثيرين لم يطلبوا.

الراتب ستمئة دولار في العام، والسعادة وحدها تساوي ملايين. أول دور قامتْ به كان دور آن فرانك[11]. وكآلاف الفتيات الصغيرات في كل أنحاء العالم، كان عليها أن تعيش أفكار آن ومصير آن. أن تتمسَّك بالأمل معها. أن تؤمن معها.

وككل اللواتي جسَّدنَ شخصية آن فرانك، حقَّقَتْ نجاحاً فورياً. لقد تعرَّفت في البراءة الوهَّاجة لتلك الفتاة اليهودية الصغيرة على شيءٍ من

ذاتها، من حلمها الخاص بأنَّ الحب هو أهم شيء في الوجود - وسيبقى بعد أن يخلو العالم من أي معنى.

ورد ورسائل، مقابلات صحفية وشهرة مفاجئة. وبدون الكثير من الجهد أضحتْ شخصية بارزة يُشارُ إليها بالبنان. أصبحتْ تنتمي إلى عالم المسرح، وفي إمكانها أن تدعو نفسها ممثلة، وإنْ كانت من الناحية الرسمية ما تزال طالبة.

لقد تحقَّقَ الأمر كما أملَتْ. ليتها فقط تصعد إلى خشبة المسرح، بعدئذٍ لن تعاني موهبتها في الظلال، في الأحلام. كانت ظمأى إلى عبارات التقريظ كتوكيدٍ على أن محاولاتها المبكِّرة المُخفقة تماماً لم يعُد لها أي معنى. يجب أن يُحبها الناس، وإذا كانت سريعة الاستجابة وحاذقة بما يكفي، فستتمكَّن من الاحتفاظ بذلك الحب بعد أن يُسدَل الستار. كانت تتحرَّقُ شوقاً إلى أن يستمر حب الجمهور لها حتى بعد أن تزيل عنها المساحيق. كانت القيمة تُقدَّر بعدد الناس الذين يعجبون بها كامرأة، وبمدى استطاعتها أن تكون عند حُسن ظن الناس بها. يجب أن تكون الواجهة خالية من أي خدوش. وأصبحت متلهِّفة لتنشر السرور. ونسيتْ أنها وحدها، ومترددة. نسيتْ أنَّ ثمة عالماً آخر غير خشبة المسرح.

* * *

بعد ظهوري الأول على المسرح بدور آن فرانك كتب النقَّاد قائلين إنني آن بعينها. ولا أصدِّق أنَّ هذا كان يعني أنَّ حياتي أو أدائي أو ظهوري على خشبة المسرح كانت له نظائر مباشرة لبطلة المذكرات، وإنما يعني أني في الحقيقة استَعَرْتُ روحَ آن خلال ساعتيّ ظهوري على

الخشبة. ولتمثِّل آن دور آن. ومرَّتْ سنونٌ عديدةٌ قبل أن أمرَّ ثانية بتجربةِ مثل ذلك التطابق التام.

لم يكن أدائي ادِّعاءً، بل واقعاً.

كنتُ أعرف أنه مجرَّد مسرح، إلا أنه كان واقعاً ينتمي إلى المسرح؛ يشبه وضعي وأنا طفلة. كنتُ أعيش في عالمٍ من الخيال، إلا أني وظَّفتُ انفعالات وأشواقاً حقيقية ضمن تلك الخيالات. والآن ينتابني السخطُ إذا ما قالَ أحدهم أنه مجرد دور تمثيلي.

" إنني لا أمثِّل، إنني لا أخدَع "

بين تلك الجدران في ستافانغر أظنني عثرتُ على ما كنتُ أبحث عنه.

كنتُ أصلُ في الصباح الباكر، شاعرةً بألفة في تلك العتمة ؛ الهواء المُغبرّ، وغُرَف تغيير الملابس المكدَّسة، وخشبة المسرح بألواحها الخشبية المائلة البالية - إنه أحبّ الأماكن إليّ في العالم. حيث تجري البروفات والنقاشات دون أن ينظر أحد إلى الساعة. الطنين الذي ينبعث من قاعة المسرح قبل ارتفاع الستار. الأضواء القوسية. الإثارة. الجمهور. التوتر. الدور الذي عليه أن يعيش حياته الخاصة. أبكي وأنا أمثِّل ؛ أستعيدُ الضحك والتوق والغضب من شخصٍ وهميّ. انفعالات نادراً ما عرفتها. وعيون وتعابير وحركات رفاقي في التمثيل. أحياناً نصبح من القُرب حتى ليبدو من غير الصحيح وجودُ علاقاتٍ أخرى خارج نطاق المسرح. لاشك في أنه لا وجود لأي حب، أو كره، يتفوَّق على الانفعالات التي ترتعش على خشبة المسرح ما بين الساعة الثامنة والعاشرة والنصف من كل مساء.

* * *

الغـالبيـة ترى أنَّ هذا الانغـماس التـامّ للمـرء في مـهنته لا يحدث إلا في السنوات الأولى.

لكنَّ هناك قلة نادرة لا تعثر أبداً على طريق العودة إلى الحياة خارج مجال خشـبة المسرح. ويكبرون في السـن، ويمسكون بيـدك، ويلقون خطاباً كانوا قد ألقوه في عام ١٩٣٠. ويجلس هاملت والملك لير أمامك وتشعر بشـيء من الارتباك لأنك تخشى أن توقظ ملاحظة طائشـة أحدهم من حلم لذيذ دامَ حياةً مهنيةً كاملة.

بل وأطول.

أذكرُ جولات مسرحية كان خلالها كل شخص يقوم بكل الأعمال. ومشاوي صغيرة يقدَّم فيها طعام بائس. ونظرات صاحبات المثاوي النكدات المرتابات إلى حقائبنا لدى مغادرتنا ؛ أو سريراً عالي القوائم في أبرشية ريفية صغيرة نزلت فيها وأمضيتُ ليلتي وحيث أحضرَ لي القس بنفسه القهوة مع أرغفةٍ بيتيّة الصنع على الإفطار.

حياةُ الغُرَف المُستأجَرَة. زوجٌ من العجائز عاملاني وكأني ابنتهما، وكانا يحرصان على أنْ أشرب كأساً من الحليب في الصباح، ويعنفاني برفق إذا تأخرت في العودة إلى المنزل أو إذا أهملت في ترتيب غرفتي الصغيرة الكائنة في العلّية. إنه معروف لن أتمكّن من ردِّه ما حييت.

كنت أتناول طعام العشاء عند غوري. كانت شقتها مفتوحة أمام أولئك القاطنين في الغرف المُستأجَرَة، خاصة الرجال منهم. كانت ضخمة الجثة بدينة وتفيضُ حيوية ؛ كان شعرها شائباً ومقصوصاً قصيراً، ووجهها لم يتلقَّ أثراً لمسحوق تجميل. ولا أدري كم تبلغ من العمر.

قبل أن تمرّ من ثقب إبرتها وتصبح ضيفاً منتظماً عليها، تُسلِّطُ عليكَ انتقادها الذي لا يعرفُ الرحمة. فهي تفضحُ أي تكلُّفٍ أو ادِّعاءٍ على الفور. الجميع ينادونها بغوري، وكأنما كُتِبَ عليها أن تولدَ وتموتَ

بدون أن تكون لها كنية. كانت تعتبر في البلدة التي تعيش فيها مؤسسة قائمة بذاتها. وقد جاءت من جيرين، وهي جزءٌ وعرٌ تعصفُ به الرياح من البلاد ويبدو أنها كانت صورة مجسَّدة له.

أحياناً كان يزهر الحبُ على مائدة غوري. ولكن ليس كثيراً فقد كانت عينها الثاقبة دائماً يقظة ولا تسمح لأي امرأة أن تختطف أحد المفضّلين لديها إلا بعد قتال. ولما كانت عانساً مزمنة، كانت تفضّل أن ترى منزلها مكاناً يعُمُّه الغناء والرقص الشعبي. ولعب الورق وتُقدَّم وجباتٌ سخيّة، على أن تجده ساحةً لتبادُل الغزَل. كان يُثيرُ سخطها منظر أزواج يتبادلون عبارات الحب، لكنَّها تتحوَّل إلى متحمِّسة لأداء الواجب في حفلات الزفاف، في كل أرجاء النرويج، وتكونُ هي مسؤولةً عنها جزئياً.

كانت تجلسُ في كرسيها البُني الكبير، لم يكن أحدٌ غيرها ليحلم بالحصول عليه، والسيجارة التي لابد منها بين الإبهام والوسطى في إحدى اليدين - بينما سبابة اليد الأخرى تدير دفة أي حديث أو أغنية. وغالباً ما كنا نُغني.

كانت الصداقات تُعقَد لتدوم. وهناك كان الشبَّان الصِغار ينضجون ويجد العديد من العجائز لهم وسطاً افتقدوه في شبابهم. كنا مجموعةً متنوعة ؛ مزيجاً غريباً من المهَن والمواهب، من ذوي الحكمة وانعدام الثقة بالنفس، وامرأة عجوز تربطُ فيما بيننا، وكأنها وجدت دائماً في هذه الشقة المُعتمة مُحاطة بحاشيتها.

كنا جميعاً نحبها وكنا نخشاها قليلاً. وكنا جميعاً نقاتل لصالحها. وكانت تضرب بقدمها ذات الجورب الصوفي الأسود بغضب وبشكلٍ

استعراضيّ إذا ما وجدت وافدة جديدة طريقها إلى المائدة بأثوابٍ مفصّلة عند الخيّاطة وشعر مُصفّف.

هناك، عند غوري، قابلتُ طبيباً شاباً، وانجرفَ، أثناء شرب فنجان قهوة، مع أحلام يقظته حول روعةِ أن تتّحد كل نساء العالم. فوجدهنّ القادرات على إنقاذ البشرية، وهو سيتقدّمهنّ على صهوة جواد أبيض ليقودهنّ.

ارتبطنا بعلاقة حبٍ ورحنا نحلم بالأمور التي في إمكاننا أن ننجزها معاً في الحياة. وتجشّمت غوري مغبّة قطع المسافة الطويلة حتى ترونديم وجلَبَتْ معها الضحكات العالية والودّ إلى مائدة حفل الزواج. لكنها تنبّأتْ بأنه لن يدوم.

•

حفل عشاء لأربعمائة ضيف في مدينة كان. نأكل الكركند ونشرب الشامبانيا. الأيدي المُثقَلة بالجواهر واللآلئ تحملُ مخالب الكركند إلى الأفواه. مشاهير على كل مائدة. وكل مائدة تمثِّلُ ثروةً من المال واللامبالاة.

أنا أيضاً كنتُ حاضرة.

الشخص الجالسُ إلى جواري يتحدَّثُ بلهفةٍ، غير مكترث لكوني لا أفهمُ كلمةً واحدةً مما يقول. قلتُ له مرتين إنَّ القليلَ من اللغة الفرنسية التي تعلَّمتها في المدرسة قد تبخَّرَ من ذهني منذ وقتٍ طويل. لكنه تابعَ حديثه بلا كلل. كنتُ أحياناً أبتسمُ له ببرود وأهزُّ له رأسي، وبين الحين والآخر ألتفتُ قليلاً جانباً وأشربُ نخباً مع رجلٍ وسيمٍ يجلسُ إلى المائدة المجاورة. ويظلُّ ينظرُ إليّ من خلال عينين مغمضتين، دون أن يأكل شيئاً من نصيبه من مخالب الكركند.

في الخارج الليلُ الفرنسي الرقيق. وأعرفُ كيف يشعرُ المرءُ أثناء السير تحت جنحه. الانتقال من الضجيج الذي يعمُّ قاعة الطعام التي تتلألأ بالأضواء - إلى الخارج حيث السكون والدفء وهدير البحر.

أذكرُ حفلات عشاء أخرى، وعددها كبير جداً، ولو لم أكن ضيفةَ

شرفٍ أجلسُ إلى جوار رئيس المهرجان السينمائي، لنهضتُ وتسلَّلتُ إلى الخارج وفررت.

وجوهٌ بيضاءُ متبرِّجة ومن ثم وجوهٌ لَفَحَتها أشعة الشمس. أناسٌ لديهم الوقت والمال لملاحقة الصيف على مدار العام. أيدٍ مُرصَّعةٌ بالخواتيم (ولاشك في أنَّ في إمكانها أن تُبدي الحنانَ وتُداعبُ شخصاً حبيباً حتى ينام) ترفرفُ بعصبيّةٍ فوقَ ألوان الطعام، وكؤوسُ الخمرِ - أدواتٌ غريبةٌ لاستعراض المجوهرات والمال. ومن المائدة المجاورة رُفِعَ لأجلي كأسُ شمبانيا. كان جفنا عينيه قد أُغمِضا تقريباً وهو ينظرُ إلى صورته منعكسة على الملعقة.

أُطفِأتْ الأنوار. وفي الخارج أُطلِقَتْ الأسهمُ الناريّةُ وكان جمالها يفوقُ الوصف.

نهضنا عن موائدنا وودَّعَ بعضنا بعضاً.

هربتُ من المُعجَب المجهول الذي كان يتودَّدُ إليّ وهو غير متوازن، لكني نفحتُهُ أولاً نظرةً مشبوبةً، حتى يفهم مبلغ معاناتي لفراقه المؤلِم والمُفاجئ. وأتوجَّه إلى فندقي بسيارة ليموزين، ولا يزالُ الناسُ يخاطبونني بالفرنسية، وأخيراً أنفردُ بنفسي في غرفتي.

أجلسُ بالقرب من النافذة وأنظرُ إلى الشاطئ في الأسفل وأبتسمُ وأفكِّرُ في أمسيةٍ أخرى أمضيتُها مع حبيبي تحت شجرةٍ راتنجيّةٍ لأنه لم يكن لدينا مكانٌ آخر نذهب إليه. كانت ملابسنا مغطّاة بالطحالب والعُشب وكنا نضحكُ وكنا سعيدَين ووحدنا في العالم.

كنا نلبسُ خاتمَين ذهبيين عريضين. كلانا كان حييّاً حين وقفنا في المحل لننتقيهما. وأخبرنا المرأةَ التي كانت تخدمنا أنهما لشخصَين آخرَين. ولاحظتُ أنه غازلها.

وذات أمسية لوَّنَ البيضَ وأخفاه. كنتُ قد نسيتُ أنه عيد الفصح.

وذات مــرة قلتُ له أظنُّ أني حــامل، لكني لا أرغبُ في الطفل. فبكى.

كان لدينا سيارة تُدعى تشارلي. كانت زرقاء اللون ولم تكن جديدةً تماماً حين ابتعناها. وفي فصل الصيف ذهبنا تشارلي وهو وأنا لنُخيِّم. وفي الأمسيات كنا نكتبُ رسائلَ واحدُنا إلى الآخر نعبِّرُ فيها عن مبلغ سعادتنا لأننا متزوجان. وفي الصباح نستيقظ باكراً لأنَّ الطقسَ كان حاراً، وكانت الخيمةُ تعجُّ بالحشرات.

ثم انتقلنا إلى أوسلو. لم يكن أيٌّ منا يكسبُ الكثير من المال. وفي كل شهر كنا نضعُ ميزانيةً، نلتزمُ بها لقرابة ثلاثة أيام. وفيما بعد صرنا نتشاجر بشأنها.

أحياناً كنا نقومُ بزيارة الأصدقاء أو نذهبُ لمشاهدة فيلمٍ سينمائي أو عرضٍ مسرحي. وكنتُ شديدةَ الكَلَف بعائلته.

كان مختصّاً في الطب النفسي وكنتُ أعملُ مع فرقةِ المسرح النرويجي.

كان الأمرُ أشبه بالعيشِ داخل شرنقةٍ مّن الأمان. وكان إحساسنا بالتقارُب المشترك وكأنما بين أخٍ وأخته، حيث لكلٍ منا الحياة الآمنة السابقة نفسها. كنا راضيين بوجودنا، وعشنا وفقاً لقواعد مقبولة ونادراً ما فعلنا شيئاً خارجاً عن المألوف.

كنا بين حينٍ وآخر نجلسُ مع زجاجةٍ من النبيذ الأحمر ونضعُ خططاً طموحة للمستقبل. كنتُ طفلته ولم أكن أعترض حين يُعاملني هكذا. وكان يمرُّ يومٌ كاملٌ دون أن يُكلِّمني لأني قلتُ إني أريدُ أن أُجري اختبارَ قيادة السيارة ؛ كان متأكِّداً من أنَّ هذه مسؤولية لستُ أهلاً لتنكُّبها.

كنتُ مُستقلَّةَ الشخصية، وسعيدةً لأنه كان الأقوى ورغبتُ في أن يعتني بي.

أحياناً كانت تنتابنا نوبةٌ مُفاجئةٌ من كراهيةِ أحدنا للآخر، لأنَّ أحدنا اصطدمَ بتخمٍ غير واضح. كنا نؤمنُ بمستقبلٍ مشتركٍ بيننا، لكنَّ أحلامنا كانت متباينة.

استمرَّ زواجنا خمس سنوات.

لم يعُد في إمكاني أبداً أن أعودَ شابةً غضَّةً مع أي شخصٍ آخر.

الرجل الذي تزوجته طوال تلك السنين الماضية كان يُدعى ياب.

إنني أحضرُ عيد ميلاده الأربعين. وأنا لستُ المضيفة. موقعي هو في آخر المائدة. ولكنْ من هناك أستطيعُ أن أرى بشكلٍ أفضل الرجلَ الذي عشتُ معه حين كنتُ صغيرةً جداً. لم يعد نحيلاً كما كان ؛ ويبدو اكثر سعادة، ولكن أيضاً أكثر تعباً.

زوجته تتّصفُ بكل ما لا أتّصفُ به. كان في إمكاني، ربما، أن أكونَ مثلها جزئياً، لو أننا بذلنا محاولةً صادقة.

أعتقدُ أنه يعيشُ محاولة طيِّبة.

نصف الأشخاص المتجمِّعين حول المائدة أصدقاء مشتركين بيننا، وأولئك الذين لا أعرفهم هم الأشخاص الذين تعرّفا عليهم معاً بعد ابتعادي. أخوته موجودون هناك - ثلاثتهم - وزوجاتهم وأمه استريد، وعمته إيلا، التي لا تزالُ تنسجُ هدايا عيد الميلاد ليس فقط لطفلتي، وإنما أيضاً لأطفال أختي الخمسة.

ثمة الكثير مما أذكره وأميِّزه، خيوطٌ كثيرةٌ موجودةٌ حول المائدة، علقتُ في بعضها بإرادتي. ولكن ما زالت هناك أيضاً هُوى سحيقةٌ من الغُربة.

أنظرُ إلى ياب فأشعرُ كم أنا مولعةٌ به، وأشعرُ بارتياحٍ لمجرد معرفتي أنه موجود.

في أحد الأيام جاءَ بصحبة ابنته الصغيرة إلى كوخي الصغير وعمرها سنتان. راحا يتمشّيان على الصخور ووقفتُ أنا جانباً عند النافذة أنظرُ إليهما. لا أحد كان يراني، وبكيتُ. إنه يمسكُ بيدها، يُشيرُ ويشرح. آه، كم هو صبور. وهي صغيرة وتشعر بالأمان معه. ابتسامته لم أر مثيلاً لها.

* * *

قبلها بعدَّة سنوات حين قرَّرنا أن ننفصل، جلسنا متشابكَي الأيدي في مكتب مستشار الزواج، فسألنا لماذا نرغب في الانفصال ما دمنا صديقين حميمين.

أجبنا بمرح " لهذا السبب بالذات "

وقفنا في الشارع نتبادلُ عبارات الوداع، لأني كنتُ ذاهبةً إلى انغمار في السويد. ولما انتهى كل الكلام المرح من جعبتنا، لم يبقَ لدينا ما نقوله، على الأقل لم يبقَ ما نغامرُ بقوله.

قال " الوداع، إذن "، ومشى مبتعداً. لم يلتفت أبداً. أما أنا فكنتُ ألتفتُ طوال الوقت، تحسُّباً ... كان أمراً غريباً أن أراه سائراً بين كل بقية الناس ولا أحد منهم يوليه أي لفتة انتباه. أنا فقط كنتُ أعرفُ مَنْ هو وماذا حدثَ له.

اتمنى لو كان في إمكاني أن أهرَعَ لألحقَ به. لكنتُ فعلت. لكنَّ فمي عجزَ عن النطق ؛ وقدميَّ لم تقويا على السير بذاك الاتجاه.

* * *

كنت في المستشفى لألدَ لين. كنتُ قد عدتُ إلى وطني النرويج لأني شعرتُ بأنَّ طفلي يجب أن يولدَ هنا وفجأةً، إذا به يمثلُ أمامي بزيّ الطبيب الأبيض، وحالما دخلَ تخلّصتُ من معظم مخاوفي. جلس بهدوء تام بجانب السرير، وبين الحين والآخر كان يمسكُ بيدي ويبتسم. لم نتكلّم. لكنه في ذلك اليوم أصبحَ جزءاً هاماً من حياتي. وتعلّمتُ شيئاً عن الحب لم أكن أعرفه من قبل.

تعلّمتُ شيئاً في اليوم الذي ذهبتُ فيه، وأنا سعيدةٌ سعادة غامرة بسبب ما كان يجمعني وانغمار، إلى مكتب المحامي لتوقيع الأوراق المتعلّقة بمعاملة الطلاق التي أفضَتْ إلى فترة عدَة سنوات من الانفصال. كان ياب قد سبقني إلى هناك. وفجأةً انكببتُ برأسي على الأوراق ورحتُ أجهشُ بالبكاء ؛ شعرتُ بأني أوقِّع على خروج ياب من حياتي.

* * *

حين كنا ما نزالُ متزوجَين قضيتُ ذات مرة ليلةً في غرفته في المستشفى. كان في الخدمة وأردتُ أن أكونَ معه، لأني أخافُ أن أمكثَ وحدي أثناء الليل، وكنتُ مصابةً بمرضٍ في أُذُني.

في الصباح الباكر اندفعتْ إحدى الممرضات داخلةً وطلبتْ منه أن يُسرع لإجراء عملية ولادة قد تكونُ متعسِّرة. وكانت تلك أول عملية توليد قد يكون المسؤول الوحيد عنها.

وتركني مستلقية في مكاني أعاني من التهابٍ في أذني، فقد ثُقِبَتْ طبلة الأذن وسبَّبَ ذلك لي آلاماً مبرحة.

لدى عودته لم أجرؤ على قول أي شيء. لزمتُ الصمتَ بانتظار أن يسألني عن حالتي أو أن يتكلّم ؛ إلا أنه هو أيضاً لزم الصمت،

مستغرقاً في التفكير في تجربته الخاصة. ولعلَّ الصمتَ ساد بيننا لأنَّ ضوءَ النهار حينئذٍ كان قد انبلجَ وكان كلٌ منا يخشى أن يُثيرَ قلقَ الآخر، يخشى أن يفقدَ حبَّه إذا قطع عليه سلسلة أفكاره .لقد عمل صمتنا، غير الملائم في فن وهْب الحب، على محو عملية ولادة وطبلة أذن مثقوبة.

كان كائناً بشرياً عشتُ معه زمناً طويلاً، ومع ذلك يبدو أنه لم يُتح لنا الوقت مطلقاً ليعرف أحدنا الآخر. أشدُّ ما يحزنني هو ما لم نقُله.

ذات أمسية منعنا القطة تاس من أن تبقى في الخارج. كان الصيف قد حل، ورأينا أنه في إمكان القطة أن تنام وتكون في أحسن حال في أحد صندوقَيها الموضوعَين في الشرفة. راحت تخرمش زجاج النافذة، وتموء وتنظر إليَّ متوسلةً وأنا جالسة أقرأ، لكني بقيتُ متحجِّرة القلب.

بعد أن أويتُ إلى فراشي وأطفأتُ الأنوار كلها، سمعتُ من جديد أنينها. وعثرَتْ بطريقةٍ ما على نافذةِ غرفة نومي وجلسَت تحتها. في محاولةٍ لإقناعي. صاحبتنا تاس تلك، التي كانت قد ضاجعتْ لتوها أربعة من القطط الذكور الهمج الشعثين، وبدتْ بعد ذلك أشبه بأميرة. وحين اقتربتُ من النافذة كانت قد كفَّتْ عن المواء بالصوت، واكتفتْ بفتح فمها في حالةِ صلاةٍ متوسِّلة صامتة، وقد سجَّلتُ هذا التأثير واستخدمته فيما بعد على خشبة المسرح.

أمرتُ تاس بخشونة أن ترحل. وأعلمْتُها بأنه لا أمل لها في أن أسمح لها بالدخول.

عدتُ إلى سريري، وأصغيتُ إلى صوتها يشقُّ صمتَ الليل، إلى أنْ هدأتْ أخيراً. وبعد ذلك بنصف ساعة أصبحا فجأةً اثنين؛ صوتين يتضافران باشتياقٍ وتضرُّع ؛ صوتيّ قطتين تحت نافذتي مباشرة.

منذ تلك الليلة الحمراء التي قضتها تاس مع عصابة الجيران كانت تلك المرة الأولى التي تلتقي فيها مع أحدهم. كان الأشدّ وسامةً بينهم ذو اللونين الأســود والأبيض، ذاك الذي كنتُ أرغبُ في أن يكونَ والد قطيطاتها الآتية لا محالة.

الآن هما جالسان جنباً إلى جنب، يموءان لي، وكأنهما معاً يُطالبان بالسماح فوراً لتاس بالدخول إلى المنزل.

أثناء أداء كونشيرتو القطط في الخارج في الليل الصيفي استغرقتُ في النوم ولم أعاود الاستيقاظ إلا حين دخلتْ لين عليّ مسرعةً في الصباح، قائلةً أنّ تاس تنتظر في الشرفة وتحملُ في فمها قطيطة.

أسرعنا إلى الخارج، فرمتني بنظرةٍ كئيبة، وكأنّ افتقاري إلى الفهم هو السبب في كل معاناتها، وإلى جانبها زحفَ رفيقُ الليلة الفائتة القزم الأعمى الأبيض والأسود. وكان من المناسب بالنسبة إلى تاس أن تنجب فقط واحدة.

أحضرنا مهد لين القديم وأعددنا سريراً جميلاً على الشرفة. لكن برزَ بعض الاختلاف في وجهات النظر مع الأم الجديدة التي أصرّتْ على أن تأخذ وليدها إلى داخل خزانتي.

في آخر المطاف استقرّت في الخارج تحت أشعة الشمس وعبير الزهور، تستظل بالمظلاّت والطاولات، وعوملتْ كملكة.

وخلال ذلك النهار شهدتُ مولد أم.

لم يحدث ذلك دفعةً واحدةً. في البدء كانت تثبُ على كل مَنْ يمرُّ بها. ثم أصبحتْ تركضُ خلفَ مَنْ يمرّ لترى إنْ كان ثمة أمرٌ مثيرٌ يحدثُ، وتضطرُّ القطيطة إلى اللحاق بها، وهي مدلاّة من ثديها وكأنها ليست جزءاً منها، بل شيئاً غريباً عنها التصقَ فجأةً بجسدها.

كانت ترغبُ باستمرار في الدخول إلى المنزل ؛ ونضطرُّ إلى حملها وإعادتها إلى المطبخ الذي كانت تحاولُ أن تتفاداه. فنعاتبها، وتنظر إلى وليدها الحديث الولادة باستسلامٍ وشرودِ ذهن وتلعقه.

ولكن حين صبَغتْ الشمسُ السماءَ باللون الأحمر بعد الظهر - كانت تاس قد أضحتْ أماً. تتمدَّدُ في سلَّتها، هادئة مسترخية، وتتنازلُ بالنظر إلينا حين نختلسُ نظرةً إلى وليدها وهي تضعُ أحدَ مخالبها عليه لتحميه. وتراقبُ الوجبة الفخمة التي أحضرناها لها بلا مبالاة ولا تتعطَّفُ بتناول الطعام إلا بعد أن يكفَّ الجميعُ عن التحديق إليها. ويجب ألاَّ يخطر في البال أنَّ هذه الأم المتفوِّقة تفكِّرُ في أمورٍ دنيوية.

وتجلس لين بصبرٍ إلى جانبها وتأخذ بتذكيرها بتكتُّمٍ بألعابها القديمة. لكنَّ الأيامَ الخوالي ذهبتْ إلى غير رجعة أيام كانت تاس تتبخترُ بأشرطةٍ حمراء مربوطةٍ بذيلها.

نقومُ بجولةٍ جديدةٍ لعرض " بيت الدمية ". هذه المرة نتنافسُ مع شمس منتصف الليل في شمالي النرويج. أظلُّ أسبوعاً كاملاً غير قادرة على النوم لأنَّ المكانَ هنا غاية في الجمال.

ما أروع الوطن الذي أعيشُ فيه ! جبالٌ تتوِّجها الثلوج ورائحة الخلنج والمستنقع. وتهبُّ نفحةُ هواءٍ منعشٍ من الماء النقي، من أزقّةٍ بحريةٍ تتغلغلُ إلى أغرب الأماكن الخفية. حيث لا تغيبُ شمسُ الصيفِ أبداً، بل تكتفي بتقبيل الأفق قبل أن ترتفع من جديد وتنطلق في رحلتها عبر صفحة السماء.

إنَّ أولئك الذين يُظهِرون بعفويةٍ ما يشعرون به، ويتكلَّمون بأصواتٍ مُغرِّدة متلهِّفة، وكأنهم لا يستطيعون التغلُّب على ابتهاجهم لأنهم بعيدون عن ظلام الشتاء الذي لا ينتهي.

شمال النرويج وميزان الحرارة يُسجِّلُ اثنتين وثلاثين درجة مئوية فأتمدَّدُ عاريةً على السرير بدون لحاف والنورُ مُسلَّطٌ على زجاج النوافذ طوال الليل.

لقد طُفتُ العالمَ كلّه، وأنا واثقةٌ تماماً من أني لم أمرّ أبداً بانطباع أقوى مما أمُرُّ به الآن. التناقضات هنا هائلةٌ جداً. فالبحر لا قرار له حين

أميلُ عبر درابزين السفينة وأتخيّل كل أنواع المغامرات في أعماق المياه. الجبال شاهقة تكتنفني من كل جانب، وَحْشيّة جردا ء، وأقرب إلى السماء مما ظننتُها تكون.

إنّ الإحساس بالريح وأشعة الشمس تُلامسُ الوجه - وفي الوقت نفسه الإحساس بعبير الأشجار والصخور وتربة الأرض التي أسير عليها يُلامس بشرتي - إنما يُشكِّلُ جزءاً مما يُغيّر حياتي.

حين كنتُ في الثـانيـة والعـشـرين جـاء مُـخـرجٌ ألمانـيٌّ، يُدعى بيـتـر باليـتـزش، إلى مـسـرحنـا في أوسلو. وكـان أقـرب المتعـاونين مع برتولت بريشت، وكـان ولسنوات عـديدة أحـد المُخـرجين البـارزين في البـرليـنر انسامبل في برلين الشرقـيـة. وحين أُقـيمَ الجدار كان مـوجـوداً في النرويج يقومُ بإخراج مسرحية " دائرة الطباشير القوقازية " واختارَ ألاّ يعود. وفي برلين الشرقيـة نشر أصدقاؤه وزملاؤه في المهنة إعلاناً في إحدى الصُحف يقول " كان لدينا صديقٌ، ولم يعُد له وجود ". وذهبوا إلى شقّته وأحرقوا جميع رسائله الخاصة وصوَرِه.

أمـا نحنُ الذين عـرفناه في تلك الأيام فكنّا ننظر إليـه خلسـة ونتساءلُ كيف سيتحمّل الأمر. ولم يكن يتحدّث قط بهذا الشأن. وكانت ممتلكاته كلها هي محتوى حقيبتين وبضع بطاقاتٍ بريدية مُصورّة مُثبّتة بدبابيس على جدار غرفته في الفندق.

علّمَني أنَّ كل مـا نُجسّده على خشبـة المسـرح يجب أن يظهـر من جانـبين ؛ أن يُصوّر باللونين الأسود الأبيض. فعندمـا أبتسم يجب عليّ أيضـاً أن أظهـر التـكشـيـر الكامن وراءها. يجب أن أحـاولَ رسم الحـركـة المقابلة - الانفعال المُقابل.

تعلّمتُ أنْ أعمل بوعيٍ أكبر.

أذكرُ المشهد الافتتاحي لـ " دائرة الطباشير ". لدى القراءة الأولى اعتقدتُ أني سأمثّل دور امرأة في وضع بطولي، اسمها غروشا.

كانت الثورة قد وصلتْ إلى القرية التي كانت تعيشُ فيها حياة فقر. وقد هرب الجميع من القتل والنار اللذين أعقبا الحرب. وبينما هي تعمل على الهرب عثرتْ على طفلٍ تخلّتْ أمه عنه. فتوقّفت بدون أن تعرف ماذا ستفعل بالصُرّة الصغيرة الملفوفة بالحرير والمخمل، وهي من الأقمشة النفيسة التي لم تكن قد لَمَستها دهرها.

وتأويلي لها كان أن أجلس وأنظر برقّةٍ وحنان إلى الوليد. أن أُغنّي له، وأحمله، ومن ثم آخذه معي.

قال لي المُخرج " تعمَّقي أكثر في التفكير ؛ أظهري شُكوكها، فلابدَّ أن بعض الشكوك قد انتابتها ؟ وجُبنَها : ألا تشعرين به ؟ وماذا عن انفعالاتها المتناقضة على ضوء هذه المسؤولية الجديدة ؟ إنَّ الجمهور سوفَ يتعاطفُ معك في كل الأحوال. وحتى لو لم يتوصّلوا إلى الإلمام بكل ما تحاولين تصويره فسوفَ يُدركون أنكِ تمثّلين بالطريقة التي كان يمكنُ لهم هم أن يُمثّلوا بها. لا داعي للنُبل العفوي. وليس من الضروري ترميزُ الطيبةِ طوال الوقت "

وأصبح تأويلي كما يلي :

المرأةُ جالسةٌ مع الوليد، لكنها تُعيده إلى مكانه حين تدركُ أنه سيُشكّلُ عائقاً أثناء هروبها. فتنهضُ واقفةً وتسيرُ مبتعدة. تتوقف. ينتابها الشك. تستدير عائدة. وتجلس مرة أخرى على مضضٍ منها. تنظرُ إلى الصُرَّة الصغيرة. تشيحُ ببصرها عنها، ثم، أخيراً، تلتقطها بحركةٍ

تصميم وتواصلُ الهرب. وبدون فرح وبدون أي انفعالات عظيمة، تبدأ حياةٌ جديدةٌ مع الطفل. تُعنِّفه بسبب المصاعب التي يُسببها لها. تضحكُ لهزاله وعجزه. ومشاعرها الأمومية لا تظهرُ على الفور ؛ ولا تُحاطُ بأي هالة رومانسية.

عندئذٍ فقط، حين لا يكونُ أي موقف أو شخصية واضحة في طيبتها أو شرّها، يصبح التمثيلُ مُثيراً حقاً.

وككل المُخرجين العِظام لم يقُل لي بيتر باليتزش بماذا يجب أن أفكر أو ماذا أفعل في كل لحظةٍ تمرّ. كان يعملُ على مُخيّلةِ الممثل وحساسيته الموسيقية. والمخرج غير الموهوب فقط يتخيَّل نفسه في كل دورٍ يمرُّ عليه، ويريد أن يُصوِّر أفكاره هو وانفعالاته ؛ غير الموهوب فقط يجعلُ الممثل يتقمَّصُ تحديداته هو.

عمِلَ بيتر مع الفرقة النرويجية وكأنه قائد أوركسترا ؛ كان يجمعنا كأفراد فرقة موسيقية ؛ وكانت أمزجتنا المختلفة هي الآلات الموسيقية.

وبدأتُ أنا، التي بقيتُ ولسنواتٍ عديدة أحتفظُ بكتاب ستانسلافسكي حول فن التمثيل بجوار سريري، بدأتُ أفتشُ عن أساليب أخرى.

عثرتُ، جزئياً، على تقنيَّةٍ جديدةٍ بدت لي صحيحةً. صرتُ أركِّزُ أكثر على التفاصيل، وهو ما استفدتُ منه لاحقاً في أفلامي، حيثُ تفسَحُ اللقطاتُ المُقرَّبَة المجالَ للرهافةِ أن تبرزَ بوضوحٍ أكبر مما يحدثُ على خشبة المسرح.

مشاعرُ أقلّ، وتركيزٌ أكثر على التعبير عن المشاعر.

في أحد كُتُبه يصفُ انغمار برغمن مشهداً من فيلم " برسونا " وفيه

تسترسلُ بيبي أندرسن في مناجاةٍ ذاتيّةٍ جنسيةٍ طويلة وأُنصِتُ أنا إليها:
" إذا نظرتَ إلى وجه ليف فسوف ترى أنه طوال الوقت ينتفخُ. شيءٌ مذهل - شفتاها تكبران باطّرادٍ، وعيناها تزدادان حلكةً، الفتاة كلها تتحول إلى ما يشبه كتلة من الجشع. ثمة لقطةٌ جانبيةٌ لليف، ها هي، لا شيء يُضاهيها. ويمكنُ رؤية وجهها وقد تحوَّلَ إلى ما يشبه القِناع الشهواني البارد ... وبينما نحن نعملُ على التقاطها قلتُ لليف إنَّ عليها أنْ تستجمعَ كلَّ مشاعرها في شفتيها. كان عليها أن تُركِّزَ على وضع حساسيتها هناك - اعلمْ أنَّ من الممكن أن تضعَ مشاعركَ في أجزاءٍ مختلفةٍ من الجسد. فجأةً يمكنكَ أن تستدعي انفعالاتك إلى إصبع يدك الصغيرة، أو إلى إصبع قدمك الكبيرة، أو إلى ردفيك، أو إلى شفتيك. وهذا ما أصرَّيتُ على أن تفعله ". إنها التقنية.

ولكن كان يجب أن يكونَ هناك أيضاً توازنٌ داخليٌ بين التقنية والحدس. وكان الحدسُ هو مركز قوتي كممثِّلة. والآن علَّمَني بيتر باليترش أنْ أستغلَّه عملياً. وهو لم يتدخَّل قط في أسلوبي في التعبير، وإنما كان دائماً يختبر دوافعي. علَّمَني أنْ أُراقبَ نفسي، أن أدعَ الدورَ يُمثِّلُ نفسه بعونٍ مما عرفتُهُ عن الشخصية التي أُصوِّرها.

غروشا جالسة بجوار الطفل الوليد الذي تخلّتْ أمه عنه، وحين تنحني لتلتقطه، تطفرُ دمعةٌ من عينها وتجري على خدِّها. وفجأةً تظهر الدمعة ويكونُ شعوراً رائعاً. وما حاولتُ أن أفعله هو أن أكونَ منفتحةً. لذا، فما وقعَ لغروشا سوف يحدثُ من خلالي. لقد انفتحت على دموعها وانفعالاتها.

ثم كان شيئاً رائعاً حين ظهرتْ الدموعُ، وأنا مندهشةٌ لأني لم أكنْ أعلم أنها ستبكي في تلك اللحظة. ولكن لم أعُدْ أنا التي استولى عليها الانفعال، لم أكن أنا مَنْ بكَتْ.

أُعلّقُ سمّاعةَ الهاتف وأشعرُ بالحزن. تتفحّصني لين وتسألُ إنْ كانت تلك مُحادثةً سخيفة. أومئ لها إيجاباً وأشعرُ برغبةٍ جامحةٍ مُفاجئةٍ في أن أُفضي بما أُكُنُّهُ.

وهذا ما فعلته.

اقترَحَتْ لين قائلةً " يلزمكِ أن تخرجي للتمشّي والتفكير "

" التمشّي والتفكير ؟ "

وتشرحُ الطفلةُ فتقول إنها أحياناً ترتدي ملابس جميلة ؛ أحد قمصان نومي، وينحني لها الدبُّ العجوزُ والأشجار وتتوقفُ لتتحدَّث مع الناس الذين تقابلهم.

"ثم تنسين لِمَ أنتِ حزينة. هيا يا ماما - اذهبي للتمشّي والتفكير"

وهذا ما فعلتُه.

* * *

نحنُ في صيف العام الذي أمضيته في المنزل في أوسلو.

أنا جالسةٌ على مقعدٍ خارج المنزل وآكلُ كعكةً ومربى من صُنعٍ بيتيّ، وأنسى أني أريدُ أن أُنقِصَ وزني. الحرارةُ تطنُّ في رأسي.

في لوس أنجلوس لا أحدَ يفهمُ تجربة التلذُّذ بتناول الكعك بالمربى

تحت أشعة الشمس بعد انقضاء فصل شتاءٍ مظلمٍ طويل. إنَّ الحياةَ هناك بعيدةٌ جداً عن هذا الجو.

أتساءلُ إنْ كان ما أحسُّ به حقيقي. في إمكاني أن أرى الزيفَ، الطيشَ، بوضوحٍ كافٍ، ولكنْ لا أحدَ يُجبرني على أنْ أتناولَ الأمرَ بجدّية. على الرغم من أنه من السهل إغوائي. الأمرُ أشبه بمسرحيّةٍ تُمَثَّلُ على خشبة مسرح، حيث يتناولُ المرءُ الإعدادَ والأضواءَ والأزياءَ كوسيلةٍ للتعبير عمّا هو حقيقي. ثمة دائماً الرضا بعد كل شيء. كما يحدثُ في الحياة. حين يكونُ له أساسٌ في شكلٍ ما. حين يكون له أساسٌ داخلي. حين أمارسُ مهنتي.

عندما أتمدَّدُ على أرجوحة شبكيّة في حديقة أحد الأصدقاء أسرحُ ببصري فوقَ لوس أنجلوس، وأرى كيف تغلِّفُ أدخنةٌ مرئيّةٌ المدينةَ، ولكني في الوقت نفسه أشعرُ بأثر أشعة الشمس الطيب على جسدي - عندئذٍ أعرفُ أني " حيّة ". هذا أيضاً حقيقة.

حقيقيٌ كجلوسي هنا والثلوجُ قد ذابتْ ولينْ تقودُ قطيطتنا السوداء والبيضاء إلى الخارج.

* * *

أذكرُ انطلاقي المفاجئ كنجمةٍ سينمائيّة في أميركا. شيءٌ غير متوقَّع ولا يزال بالنسبة إليّ مُبهماً. لا أدري إنْ كان قد جعلني أسعد حالاً : إنْ كنتُ أشعرُ أني مُهدَّدةٌ كمُحترفة أو، وهذا أهمّ ربما، كامرأة.

قبل بضعة أشهر كنتُ في كاليفورنيا وراحوا يدلّلونني، وكأني أميرة في إحدى حكايات لين - أو كما رأيتُ نفسي في أحد أحلام طفولتي. كنتُ مُحاطةً من كل جانب باللطف والكرم. لم يكن يُسمَح لي بعمل أي

شيءٍ متعِب أو ممل. كنت دائماً أجد حولي أناساً يرغبون في تخفيف أي عبءٍ عني ؛ إما لأنهم يتلقّونَ أجراً ليفعلوا ذلك، أو لأنهم يملكون نسبةً مئويةً مني أو لأنهم وظّفوا احتمالات معينةً في مستقبلي. لكني غالباً ما شعرتُ أنَّ الكرمَ مصدره الطيبة.

كنتُ هنا لقضاء ثلاثة أيام ومن ثم صحبوني إلى المطار. أخيراً صرتُ وحدي، مع ملء ذراع من الورود والتمنيات الطيبة. بقيتُ سعيدةً مدةِ ثلاثة أيام - ومع ذلك سُررتُ لأني عائدةٌ إلى الوطن.

إنني عموماً لا أثقُ في تلك الحياة ويمكن إقناعي بمقايضة روحي بمظاهر التكريم والشهرة، والسعي للحصولِ على الإعجاب، واستغلال سحري. وأعرف أنه ما زال من الممكن اليوم الاستثمار في موهبتي وشخصيتي. ولكن ماذا سيحدث حين أبلغ من العمر أرذله ؟ حين لن أعود سلعةً مطلوبةً ؟ حين سيرينُ الصمتُ من حولي ؟

الخواءُ اللاحقُ هائلُ، بالنسبة إلى الذين يختارون العيشَ والموتَ في النور المُبهر للمصابيح القوسيّة. تصبح الوحدة لا تُحتَمَل، لأنها تتناقضُ بشكلٍ كبيرٍ مع ما كان.

في بيفرلي هيلز، عندهم شمسٌ ساطعةٌ، وعصيرُ برتقال طازج، ومال، ومنازل جميلة، وسيارات فارهة. والبسطاءُ العاديون من الناس يتنقّلون داخل حصون مغلقة ضخمة يُسمونها منازل. وغالباً هم لا يعرفون حتى شكل جيرانهم. أنت لا ترى أياً منهم يتمشّى على الأرصفة في أشد المناطق السكنيّة أناقة. لا وجودَ لأطفالٍ ليُحيوا بلعبهم نهاراً صيفياً. لا توجد غير سيارات، والستائر مُسدلة لدرء أشعة الشمس والعيون الفضوليّة. والبستانيون ينحنون أمام المنازل يعتنون بمروج لن يجلس عليها أحد.

ومع هذا، هناك الكثير مما يستحق الحب : الود والكرم اللذان عثرتُ عليهما في أماكن قليلة أخرى من العالم. حبُ المرءِ لمهنته، ومعايشة تاريخ فيلم. ما زالَ في الإمكان مقابلةُ الشخصيات التاريخية في إحدى الحفلات. ما زال من الممكن الإحساسُ بجو الأيام الخوالي في الاستديوهات وفي الأحاديث.

عثرتُ على بعضٍ من أفضل أصدقائي وأكثرهم دواماً حين أتيتُ إلى هوليوود لأصبح نجمةً سينمائية.

أنا جالسةٌ في إحدى الحدائق خارج بلدة نرويجية صغيرة تدعى سترومن. بطني ملآنة بالكعك المُحلّى البيتي الصُنع وعيناي قريبتان من الجدار المُضاء بنور الشمس، أشعرُ بأني بشكلٍ ما وُهِبتُ أفضل ما في عالَمين.

بالإضافةِ إلى ذلك قد أكونُ قد شاهدتُ قدراً كبيراً من أمورٍ غير واقعيةٍ، إلا أنَ هذا، أيضاً، هو تجربةٌ أخرى.

أسألُ الرجل الذي أحبه " ما أشدّ ما يسعدكَ ؟ "، ونحنُ في الكوخ الصيفيّ الجديد، المطرُ يهطلُ سيولاً من السماء الرمادية الكئيبة. تخيَّلتُ أننا نتجوَّلُ عريانَين وسُمر البشرةِ وجميلين ونستكشفُ أشياء جديدة من بعضنا بعضاً تحت نور الشمس.

فيجيبني " ما يسعدني ؟ "، ويرفعُ ناظريه عمّا يقرأ. إنه لا يفهمُ ما يدورُ في خَلَدي. لعلَّه يخشى ألاّ يقولُ ما أتوقع سماعه.

" ما يسعدني - أعتقدُ أنه أنْ أعملَ ويتفصَّد العرقُ من جسمي كله طوال النهار في عملٍ صعبٍ وعضليّ. إنه حين أستخدمُ جسمي كله، حين تُستنفد قِوايَ وتتوجَّعُ أعضائي - وأنتهي أخيراً. أدخلُ وأجلس. أرتاحُ في معرفةِ أني أنجزتُ ما سعيتُ لأجله. أسترخي في متعةِ عملٍ أُحسِنَ إنجازه "

لم يسأل عمّا يُدخل السعادةَ إلى قلبي. لكني في اليوم التالي عرفتُ. ونتناولُ غداءً مُترفاً، ويشيد بطبخي ويأكلُ عدَّة حِصص. ونستلقي على السرير متقاربَين، مُتخمَين بالحنان، بعد أن ينتهي كلُ ما بيننا من مخاوف وأسئلة. ولا يبقى إلا المتعة الرقيقة في جسد الآخر ويديه ووجهه وتعبير قسماته. إنني وإياه في الوضع الوحيد الذي أشعرُ فيه حقاً أني " حيّة ".

أستيقظُ فأرى أنه ما زالَ هناك ضوء في الخارج، وهو قد ذهب، فأخرجُ حافيةً إلى غرفة الجلوس، وما أزالُ دافئةً وسعيدةً منه. وأرى أنه أشعلَ الموقد. وفي المطبخ أجد قهوةً وَضَعَها على صحيفةٍ حارة لأجلي وكوباً إلى جانبها.

لا يغطي جسدي خيطٌ واحدٌ وأخرجُ هكذا إلى الحديقة.

ما زالتْ تُمطِرُ وتنزلقُ أصابع قدمي في التربة الرطبة التي تفوحُ بالعبير. ثم أراهُ داخل المرآب يُقطِّعُ الأخشابَ حتى أحصلَ على ما يكفيني لفصل الشتاء. كان قد صنعَ وَضَماً للتقطيع وابتاعَ فأساً للاستعمال المنزلي. لا أدري ما يدورُ في ذهنه، لكنه يبدو غايةً في السعادة وأسمرَ البشرةِ ومُفعماً بالحياة. وفجأةً أتذكَّرُ أنه موجودٌ في خضم سعادته.

أدخلُ من جديد وأشعرُ بسعادتي أنا تتغلغلُ في جسدي كله.

ذات يوم عُدنا لين وأنا إلى الجزيرة التي عشنا فيها سنينَ عِدَّة، قبل زمن بعيد، بعيد.

لين ستقضي فصل الصيف مع والدها وزوجته الجديدة.

وأنا قادمةٌ معها فقط لبضعة أيام.

أولاً وقبل أي شيء لأقابلَ انغمار، ولكن أيضاً لمشاهدة الجزيرة مرةً أخرى ؛ لأتلمَّسَ كم بقيَ منها يُشكِّلُ جزءاً مني ؛ لأقابلَ أناساً كنتُ قريبةً منهم ؛ لأزور من جديد كلباً حبيباً.

يُقابلنا والد لين في المطار.

غريبٌ أن أعودَ. نشقُّ طريقنا خلال المشهد المألوف : الزهور ... الغبار المُثار على طول الطريق ... رتلُ السيَّاح عند مزلق المعدّية ... كان عبوراً صعباً نوعاًما ... المشهدُ الطبيعي يزدادُ قحولاً ... والسيارات تَقِلُّ وتَقِلّ.

أخيراً لا يبقى غيرنا على طريق إحدى الغابات التي لا يكادُ يعلمُ أحدٌ بوجودها.

يقولُ " أهلاً بعودتك " ويبتسم.

تقفزُ لين خارج السيارة قبل أن نصل إلى المنزل لترى إنْ كانت ستعثُر على بعض الفريز البري.

زوجته، انغريد، تقفُ في ممر البار. متلفّعة بالشمس وسعيدة ؛ شعرها طويل وملموم بشريط. أرى أنها تُشبه امرأةً أخرى وَقَفَتْ ذات مرة في ممر هذا الباب في انتظار قدوم ضيوفها.

في البطن عقدة صغيرة.

أرى أيضاً أنها أكثر اطمئناناً من الأخرى، وأكثر صفاءً. ويسرّني أن أعرفَ هذا. لين تحب أن تأتي إلى هنا، من أجلها، جزئياً.

تقولُ " سوف تستقرّين في منزل الضيوف. كنا نتوقُ كثيراً إلى زيارتك وقد اشترينا شمبانيا "

أشعرُ بغصّةٍ في حلقي. لماذا أتأثّرُ بعمقٍ أكبر حين تقولُ هي هذا أكثر مما حصل حين قاله لي هو في السيارة ؟ أعلمُ أني لن أتمكّن أبداً من أن أعبّرَ عن مدى امتناني، ليس فقط لأني أشعرُ بصداقته الحميمة، ولكن أيضاً لأنها فسحَتْ لي المجالَ للعودةِ إلى المكان الذي كان ولوقتٍ طويل مُلكاً لي.

لا شيءَ تغيَّر. حتى الأثاث مُرتَّبٌ كما في السابق.

الدائرةُ أُغلِقَتْ.

لاشيء ينتهي أبداً. فحيثما يضربُ المرءُ جذوراً تنبعثُ من أفضل ذاتٍ لديه وأصدقها سوف يجدُ دائماً بيتاً.

أن نعود لا يعني أننا نزورُ من جديد شيئاً كان نصيبه الفشل. إنَّ في إمكاني أن أطرقَ دروباً قديمةً دون إحساسٍ بالمرارة، والتي تستمتع القدمان الأخريان الآن بالسير عليها.

البحرُ موجودٌ كما كان دائماً.

يمكنني أن أجلسَ على مائدةِ طعامٍ وأستخدم السكاكين والشوك

والكؤوس التي كنتُ قد اشتريتها بنفسي، وأشعرُ بقليل من الحزن، لكني في الوقت نفسه أعلمُ أني ما أزالُ أُشكِّلُ جزءاً من هذا المنزل - إنني أحد أقرب أصدقائه.

يؤثِّرُ بي أنَّ شيئاً لم يتغيَّر، ولهذا أُحبها. إنها لم تحاول أن تمحو أثري من هذا المكان.

انغمار هنا.

الأشخاص الذين تلامستْ حياتهم يحتاجونَ إلى تجديد الاتصال، حتى بعد أن يذهب كلٌ منهم في اتجاهٍ مختلفٍ، حتى وإنْ أصبحتْ حياةُ كلٍ منهم الجديدة جزءاً مما يتقاسمونه الآن.

لا أحدَ يمتلكُ أي شخصٍ آخر. إننا معاً يملكُ كلٌ منا الآخر والطبيعة والزمن.

الأمرُ بهذه البساطة.

حملنا الحقائبَ إلى كوخ الضيوف. من النافذة يمكنني أن أطلَّ على المنزل الرئيسي. إنني لم أشاهده أبداً من هنا ؛ يبدو غريباً، لكني هادئةٌ في أعماق ذاتي.

لم يعُد في إمكان أي شيء أن يؤذيني.

ساكنو الجُزُر

لقد كُتِبَ الكثيرُ عن حياتنا في جزيرة فارو. كتبَ أناسٌ لم يذهبوا إلى هناك دهرهم ولا يعرفوننا فصولاً عنا.

لكني دائماً ألزمُ الصمتَ عندما يُطلَبُ مني أن أتحدث عنها.

كنتُ صغيرةَ السن وأحتفظُ بالكثير جداً من الأفكار حول ما يجبُ أن تكون عليه الحياة.

هناك صور - هي شظايا من حياتنا معاً: نزهات على شاطئ البحر، حين كنا كالأطفال ندفن قطَعاً نقديةً في الرمال حتى نعثُر عليها من جديد بعد مرور سنين كثيرة، تحسُّباً فيما إذا افتقرنا أو اندلعتْ الحرب. وهناك كومةٌ من الحجارة في ذكرى يومٍ صيفيٍّ وشخصان عَرَفا كيفَ يلهوان معاً.

وليالٍ، استلقينا خلالها معاً وهمسَ لي قائلاً إنني يجب أن ألزمَ الهدوء، حتى يشتاق إليّ، وسط السكون، ويطلب مني أنْ أعود فأكلّمه.

حاجتنا غير المحدودة أحدنا للآخر، لِما يجب أن يُمثّله الآخر. والإحساس بالعجز حيثُ يحلُّ خطبٌ ما.

دخلَ كلٌّ منا إلى حياة الآخر في وقتٍ مبكّرٍ جداً ومتأخّرٍ جداً.

كنتُ أنا أبحثُ عن الأمان المُطلَقْ، عن الحماية، عن حاجةٍ عُظمى للانتماء.

أما هو فكان يفتشُ عن الأم، عن ذراعَين مُشرَّعتين لاستقباله، دافئتين وبدون تعقيدات.

لعلَّ حُبَّنا انبثقَ من الوحدة التي عشناها من قبل.

هو كان يحلمُ بامرأةٍ خُلِقَتْ قطعةً واحدةً. أما أنا فكنتُ أتفتَّتُ إلى قِطَعٍ من كل صنفٍ ونوعٍ إذا لم يكن حريصاً.

بعد أن انفصلنا، بتنا نرى بوضوحٍ الأخطاءَ التي ارتكبناها.

كان نهمُهُ للمخالطة لا يشبع. وذاك النهم أصبحَ حاجةً حيوية بالنسبة إليه.

وبطريقةٍ ما زَرَعَ كلٌّ منّا ثورةً في الآخر؛ انفتحنا إلى بعضنا بعضاً انفتاحاً تاماً، ليس فقط جسدياً، ليسَ فقط جنسياً - بل ككائنين بشريين مُرتبطَين برباطٍ سرّيّ.

بعد فترةٍ قصيرةٍ وجدتني وجهاً إلى وجه مع غيرته. عنفٌ بلا حدود. لم أمرّ أبداً بمثل تلك التجربة. والآن أوصدتْ كل الأبواب، سُدَّتْ. أصبحَ كلُّ الأصدقاء وأفراد العائلة، حتى الذكريات، أصبحت تُهدِّدُ علاقتنا. وشعرتُ، وقد انتابني الرعبُ، بأنَّ لا أحدَ لي إلاّه. وحين ضَرَبَتْ غيرتُهُ حِصاراً حول حريتي، دخلتُ إلى منطقتِهِ، لكي أقيم بدوري حِصاراً مماثلاً حوله. وصرتُ لا أشعرُ بطمأنينتي إلا بقَدرِ ما أُسيطرُ على حياته.

صرنا نتوقُ إلى أنْ لا نُخفي أي أسرار عن بعضنا بعضاً. بتنا نتطلَّعُ إلى أنْ تكونَ لدينا الشجاعة على الاستسلام، ولكن حين حدثَ ذلك أخيراً، كنا قد انفصلنا.

كان من المستحيل إشباعُ حاجاتنا.

وكانَ هذا بالذات هو جحيمنا، مأساتنا.

كان هناك بابٌ في غرفة مكتبه، غطّيناه برسومٍ القلوب والصلبان والدموع والدوائر السوداء، كرموزٍ لِما كان كلٌ منا بالنسبة إلى الآخر في ذلك النهار.

لا شيء موجود خارجَ ذواتنا، لا وجودَ لفرحٍ أو ألم لم يُسبِّبه لنا شخصٌ آخر.

شيئاً فشيئاً أصبحَ هذا أساساً للانفصال.

كنا متشابهَين كثيراً. فما لمْ يكن يعرفه عن نفسه بدأ يراهُ فيَّ - كما في مرآة - على الرغم من كوني امرأةً وأصغر سناً منه بكثير وربما أختلفُ عنه في أوجُهٍ لا يعرفها. لقد رأى فيَّ حساسيته المتطرفة وغضبه الخاص. وحين انعكسَ هذا عائداً إليه، بدأ يشفى. لكنني وكالمرآة كنتُ دائماً مستعدةً لتذكيره.

أردتُ أن أكونَ له، ولو أنه أرادني أن أتغيَّر لفعلتُ أي شيءٍ. ربما من الممكن أن نتغيَّر معاً - أن نتصوَّر معاً. ولكن إذا كانت المرآة شديدة النقاء فإنَّ المرءَ لن يرى فقط ذاته على حقيقتها، بل سيضطرّ أيضاً إلى أن يتركَ ذلك الشخص الآخر الذي سيظلُّ دائماً يذكِّره بما لم يعُد يرغب في أن يكونه.

الصيفُ الأولُ كان سعادةً صِرفاً.

كنا نصورٌّ فيلم " برسونا " في الجزيرة.

الجو حارٌ. كنتُ أكتشفُ كائناً بشرياً آخر. وكان هو يكتشفني. ولم نكن بحاجة إلى أنْ نتكلّم عن ذلك. مشيتُ حافية فوق رمالٍ شديدة النعومة حتى بتُّ أشعرُ كأنها تتنفَّسُ من تحت قدميَّ.

أثناء النهار كنتُ أستلقي على الأرض وأقرأ بين اللقطات . شعرتُ بثِقَلٍ في رأسي، وكأني غائبة عن الوعي.

لم أتساءل قط عمّا ستُسفِر عنه علاقتنا. كنتُ كأني أعيشُ داخل جدرانٍ لدنة من أشعة الشمس والرغبة والسعادة.

منذ ذلك الحين لم يمرّ بي صيفٌ مثله. ليس مثله. كنا نتمشّى على طول الشاطئ بدون أي كلام، بدون مطالب، بدون مخاوف.

وذات مرّة ابتعدنا كثيراً في تجوالنا عن الآخرين، واكتشفنا شقّةً صغيرةً من الحجارة الرمادية وبعدها تربةً عقيمةً جرداء. جلسنا ورحنا نتأمّلُ البحر، وكان قد استقرَّ للمرة الأولى بهدوءٍ تامّ تحت أشعة الشمس.

تناولَ يدي بيده وقال :

"في الليلة الفائتة رأيتُ حلماً، وهو أني وإياكِ متّصلان بشكلٍ مؤلم"

وعلى تلك البقعة التي كنا نجلسُ عليها بنى منزله.

وهذا غيَّرَ حياته وحياتي.

في المرة التالية التي شاهدتُ فيها الجزيرة كان شتاءً. حَمَلَني إلى هناك على متن طائرةٍ خاصة صغيرة. والمنزل الذي كان سيصبحُ لنا كان قد تمَّ بناؤه. وكلانا كان يراه للمرة الأولى.

اللقاء مع جنة الصيف كان صدمة ؛ رأيتُ مشهداً جديداً تماماً. فالبردُ ينخرُ الجسد، ولا سبيل إلى اتِّقائه.

كنتُ عندئذٍ منخرطة في إجراءات الطلاق المؤلمة، وقد غادرتُ شخصاً كنتُ مولعةً به.

كنا، انغمار وأنا، قد أنجبنا ابنة.

كل شيء كان مختلفاً.

كان موقع المنزل بعيداً جداً عن الشاطئ الرملي الصيفي، وكان المكانُ مؤلَّفاً من الحجارة والتربة الجافة. لم يفهم أحدٌ من سكان الجزيرة الرجلَ الذي اشترى مساحةً كبيرةً من الأرض القاحلة.

دخلنا من تحت السقالات الرقيقة إلى هيكل منزلنا.

كان أحدهم قد جلَبَ شمبانيا، وفُتِحَتْ الزجاجة وألقينا خُطَباً ودشَّنا المنزل.

تمشّينا على الشاطئ، ولم يكن غير كتل من الصخور، والتقطنا صِوراً كلّ منا للآخر. بدوتُ في كلّها سعيدةً، لكنني أعلمُ أني كنتُ مشغولة البال : إنه حلم. إنني أُشاركُ في حلمِ شخصٍ آخر.

كلُ ما كوَّنَ حياتي السابقة كان غير حقيقي وبعيداً نائياً.

إلا أنَّ هذا، أيضاً، كان غريباً عليّ.

وتساءلتُ إلامَ سيؤولُ حالي.

بيبي أندرسن وأنا لعبنا الدَورَين الرئيسيّين في فيلم " برسونا ".
كانت شخصية بيبي تتكلّم وتبكي وتغضب على امتداد الفيلم.
العبارة الوحيدة التي كنتُ ألقيها هي " لا شيء ".
كانت تلك المرة الأولى التي أُقابلُ فيها مُخرجاً سينمائياً يَدَعُني أميطُ اللثام عن مشاعرَ وأفكار لم يكن أحدٌ قد لاحظها من قبل. كان يُنصِتْ بصبر، وسبابته على صدغه، ويفهم كلَ ما كنتُ أحاولُ التعبير عنه. كان عبقرياً خَلَقَ جواً يمكنُ أن يحدث فيه كل شيء - حتى ما لم أكن أعرفه عن نفسي.
معظم الفيلم صُوِّرَ في جزيرة فارو. وأقمنا في منزلٍ صغير - اختصاصيّة التجميل، قارئة النص، وبيبي وأنا. وأفسدتنا صاحبة المنزل بالتدليل. ففي كل صباح كانت مائدةُ الإفطار تحفلُ بالأطباق الساخنة، إلى أنْ اضطُررنا بيبي وأنا إلى الاحتجاج عندما بدأنا ننتفخ ونستدير لنغدو فتاتين بدينتين بدل تينك الرشيقتين اللتين كُنَّاهما عند بدء تصوير الفيلم في ستوكهولم.
تحت قُبَّعتَين واسعتين لتحميا وجهينا من أشعة الشمس أمضينا الأيام جالستين نحفظُ النصوصَ ونُبدي سعادةً خاصةً لا تظهرُ على

الإطلاق في الفيلم. على الرغم من أننا - ذات مرة - وبشكلٍ مُخالف لحقيقتنا، جلسنا ننظِّفُ نبات الفطر، وكل منا تُهمهمُ بلحنٍ مختلف. كنا ألماً والبزابيث فوغلر فيلم " برسونا " ؛ لكننا أيضاً بيبي وليف، عام ١٩٦٥.

كنا نحن الاثنتان متزوجتين حديثاً عندما تقابلنا للمرة الأولى في جزيرةٍ تقعُ في أقصى شمال النرويج. وكانت شركة ساندروفيلم تصوِّرُ فيلماً عن قصة " بان " لكنوت هامسن، وأرادت أن تضمنه ممثلة مشهورة من كل بلدٍ مجاور. كان دور بيبي أكبر من دوري بكثير، وخِبرتُها السينمائية أوسع بكثير. كنا في صفٍ واحد في المدرسة، التي كانت تُغلِقُ أبوابها في الصيف. فنكوِّم المقاعدَ بعضها فوق بعض عند لوح الكتابة، ونضع سريرينا في زاويةٍ عند الركن، ونستلقي هناك وسطَ مساحةٍ واسعةٍ فارغة، يفصلُ بيننا وبين الباب كومةٌ من الكراسي والطاولات المُكدَّسة، ونظلُ نثرثرُ طوال الليل. كانت شمسُ منتصف الليل طالعةً وثمة الكثير لتُفضي به إحدانا للأخرى. وفي فترةٍ لاحقةٍ من حياتنا أصبحنا ننام هناك.

كنا نتخيَّلُ المستقبلَ، وزواجنا، وطفولتنا وشبابنا، ونعِدُ بأنْ نصبح عرَّابَتين كلُّ منا لأطفال الأخرى.

كنتُ معجبةً بها لكرمها ولإخلاصها.

وقويَتْ روابطنا أكثر من تلك التي عقدتُها مع أي صديقةٍ أخرى، وقد صمدَتْ صداقتنا على مدى السنين.

وذات يوم تلقَّتْ برقيةً من انغمار برغمن. فنظرتُ إليها متسائلةً لأنها كانت شديدة الهدوء. ثم طوَتها وهمَّتْ بوضعها في حقيبة يدها، فسألتها إنْ كانت تسمحُ لي بالاحتفاظ بها.

* * *

الآن نحن الثلاثةُ نُساهمُ في صُنع " برسونا " في جزيرة فارو.

وكـان لدى بيـبي حسٌ سابق بما سـيـحـدث في المسـتـقـبل، وراحت تُحدِّثني بصرامـة ولكن بدون أي جدوى. كنتُ أنـظرُ إليـهـا من السـمـاء البـعـيـدة حيثُ أتربَّعُ في مـوقـعي كـأول امـرأة في العـالم أحـبَّتْ وكـانت محبوبة.

في الأمـسـيـات كنا نـتـمـشّى على طول الشـاطئ - بيـبي، وسْفِنْ نيكفستْ، المُصورِّة، وانغمار وأنا. وعلى الرغم من تحذيراتها، اكتسبتْ بيبي ولاءَ صديقتها فكانت تلتفتُ نحو سْفِن وتهتف " هيا نتسابقُ حتى المنزل "، وتضطرُّ سفِن إلى الركض على طول الشـاطئ أمـسـيـةً بعـد أخرى، وهي تتعجَّبُ قليلاً من فرط حيوية بيبي المفاجئة.

ونتبعهما انغمار وأنا على مهل.

في كل ليلة لدى عودتي إلى المنزل أجدني وجهاً لوجه مع قطٍ أسود كبير جالس عند الباب يُحدِّقُ إليَّ بحقد.

أدخلُ على أطراف أصابع قدميَّ إلى بيـبي، وأجلسُ ملتـفـةً حـول نفسي على سريرها وأهمسُ لها بكل ما لم أقدر على البوح به له.

الجزيرةُ تقعُ بين روسيا والسويد.

لا أذكرُ أني شاهدتُ مكاناً يفوقُه قحولة. كأنه رُفات أثرية من العصر الحجري. ولكنه تحت أشعة شمس الصيف يكونُ مؤثِّراً وغامضاً.

ليلاً كان في إمكاننا مشاهدة المحيط من غرفة النوم. ونتخيَّلُ نفسينا مسافرتين نقومُ برحلة. ونرى أضواءَ السفن بعيدةً بعيدة، فننظرُ إليها مع أنها رسائل غامضة موجَّهة إلى أشخاص غرباء يقفون في الأسفل على الشاطئ. ونتظاهرُ بأننا في حالةِ خطرٍ دائم، لأنَّ المنزلَ منعزل تماماً، وليس لأي منا إلاّ الأخرى.

حين كنتُ فتاةً صغيرةً حلمتُ بنوعٍ آخر من الجُزُر، فيها أشجارُ نخيلٍ وفاكهةٍ ودفء. وعندما يحلُّ الليلُ هناك تظلُّ حيواناتُ الغابة ساهرة تحرسني. وأنا لم أقرن قط هذا الحلم بالوحدة والأجواء المخيفة.

كان في جزيرته أشجارٌ راتنجيّة كثيرةُ العُقد ذات ألوانٍ خضراء غريبة، أغلبها مُقزَّم ومنحنٍ بمحاذاة الأرض. فقط القوي منها استطاع أن يرفعَ قامته عالياً. وعند الغسق تبدو، في توقها العبَثيّ إلى السماء كراقصاتٍ هيفٍ لم يعد في مقدورهنّ الوقوف على أطراف أصابع أقدامهن.

أجملُ الأشجار قاطبةً كان ينمو خارج نافذة غرفةِ جلوسنا، وقال لي إنها لي. وفي فصل الشتاء الذي تلا مغادرتي الجزيرة انهارتْ ووقعَت. وهذا أسعدني، لأنه لن يتقاسمها مع أي شخصٍ آخر.

كانت الأرض رمادية اللون وبنّية - حقولٌ شاسعةٌ يغطيها الطحلب الجاف. وخلال شهرٍ واحد في كل صيف تتفجّرُ الجزيرة بأكملها بأروع الألوان. وتُذكِّرُني بحقولِ الزهور في طفولتي، وسعادتنا عندما نخرج لنقطف الفريز البري معاً. ولكن حين تقصُر الأيام وتخفّ الألوان ويصعُبُ تمييزها، تصبح الجزيرة سجناً لا أدري إلى أين أذهب فيه مع وحدتي وخوفي. وينتابني القلقُ طوال الوقت وأشتاقُ إلى أماكن أخرى. لكني لم أبُح بهذا قط لأي إنسان.

في الوقت نفسه عرفتُ أني لم أكن مرةً أقرب مني حينئذٍ إلى الحياة.

وَمَضَات السعادة الخاطفة تركتْ بي أثراً أعمق من أي شيء آخر اختبرته. وكل ما هو مؤلمٌ وصعبُ الفهمِ مهَّدَ السبيلَ إلى التغيير الداخلي الذي كنتُ بدون وعيٍ مني أتوقُ إليه.

كان يطوِّقُ خط شاطئ الجزيرة نطاقٌ من الحجارة، أميالٌ من الحجارة يغسلها البحر. وعند موقعٍ واحدٍ تُفسِحُ الحجارة المجالَ للرمالِ لتصبحَ شاطئاً رملياً يُغري آلاف السياح في كل صيف.

حين يصلون نصبحُ أكثر عزلةً، ونتطلّعُ إلى اليوم الذي تعبرُ فيه المعديات اللسانَ البحريَّ وهي فارغةٌ ولا نعودُ بحاجةٍ إلى النظرِ عالياً إلى جدار القرميد الذي بناه حول المنزل، لنرى إنْ كان ثمة مَنْ يقفُ هناك حاملاً آلة تصوير، ويجعلنا نشعرُ أننا غرباء وعاجزون ونحن في عقر حديقتنا.

كنتُ أعلم أنَّ انغمار عَشَرَ على الجزيرة ضالَّته، وحاولت أن أحبها كما أحبها هو.

في الليالي التي كان يجافيه خلالها النوم كنتُ ألبثُ صامتةً إلى جواره، خائفةً مما يُفكِّرُ فيه. لعلَّه يرى أني لا أشكِّلُ جزءاً من الجزيرة - أني أشوِّشُ التناغمَ الذي عملَ على خلقِهِ داخله في الطبيعة والسكون اللذَين كانا يعنيان الكثير بالنسبة إليه.

أصبحتْ طمأنينتي تحيا بالطريقة التي أرادها، لأنه حينئذٍ فقط أصبحَ مطمئناً.

كان عندي كلبةٌ اسمها " بت ".

في منزلها الأول، مع ياب، كانت لطيفةً رقيقةً، تحبُّ الركونَ إلى حجرِهِ، ولو أنها كانت قطةً لخرخرت.

لدى عودة زوجي من المستشفى، كان في إمكانها أن تتعرَّف على صوت سيارته من مكانها على الأريكة في الطابق الرابع. ويطلُّ رأسٌ صغيرٌ مُدبَّبٍ بلهفةٍ من النافذة ويتمكَّنُ كلُ شخصٍ ضمن دائرةٍ نصفُ قطرها ميلٌ من سماع نباح سرورها العالي. يتبعُ ذلك وليمةٌ من التحبُّب بين الكلبة والرجل.

أثناء تناولنا الطعام تتمدَّدُ عند أسفل قدميّ سيدها وترفعُ بصرَها إليه هُياماً.

ثم دخلَ انغمار إلى حياتها، وكان فقدانُ الثقة فادحاً من الجانبين. وقد حاولَ أن يرشو أصدقائي ليساعدوه في التخلُّص من " بت ". طلبَ منهم أن يسيروا بها في شارعٍ مزدحمٍ بحركة المرور، وأن يرسلوها إلى نومتها الأخيرة عند طبيبٍ بيطري، ومن ثم يتركوها في أبعد وآخر نقطةٍ من البلدة. لكنَّ الجميعَ رفضوا.

وكان هو وهي يُطارِدُ أحدهما الآخر بهياج في أرجاء الشقة. الأول

يرفس، والأخرى تعضّ. ومُنِعَتُ منعاً باتاً من تدليلها أو من إبداء أي شكلٍ من العناية بها أثناء وجوده، وكانت تزمجرُ في وجه انغمار كلما أمسكَ بيدي.

حين انتقلتُ إلى جزيرة فارو، جاءتْ " بت " معي وكانت ضيفةً عزيزةً جداً.

خُصِّصَتْ لها خزانة صغيرة موجودة في الممر المؤدي إلى المطبخ لتنام فيها. وكانت غرفةُ الجلوس منطقةً مُحرَّمةً، وكان علينا أن نسترقَ مداعباتنا أثناء وجوده على الشاطئ الرملي أو في غرفة مكتبه.

لكنَّها كانت من شِدَّة الذكاء بحيث أنها سرعان ما أدركت أنه من الأفضل لها أن تمنحَ الحَبَّ للشخص الذي من الواضح أنه يُسيطر على مصيرها.

وببطءٍ نجحتْ " بت " في شق طريقها إلى داخل غرفة الجلوس. بمعدَّل ياردة واحدة كل يوم، إلى أنْ احتلَّتْ أخيراً موقعاً مرموقاً بجانب الموقد الكبير المفتوح.

لم أعرف في حياتي كلبةً تُبدي مثل ذاك القدر من الفهم عندما يقرأ انغمار لي بصوتٍ عالٍ في مخطوطٍ ما. وكانت تُرسِلُ في الفراغ نظرةً حالمةً كلما أدارَ إحدى اسطواناته المفضَّلة. وكان جسمها كله يرتعشُ شوقاً حين يرتدي معطفه ليخرجَ للتنزُّه، وتطفرُ من الفرح عندما يسمح لها أخيراً بالخروج معه، وهي تنبحُ وتقفزُ في المكان في استعراضٍ انفعاليّ، حتى يفهم مدى أهمية اصطحاب كلب حراسة أثناء التمشّي على الشاطئ الرملي.

قال انغمار " إنَّ بتْ كتلةٌ من الانفعال تسير على أربع "

حين تركتُ المنزلَ بعد ذلك بخمس سنين كان الاثنان واقفين معاً في ممر الباب. وأخذتْ بتْ تشمُّ الأرضَ، لعلَّها كانت تشعرُ بشيءٍ من الخجل من نفسها بسبب خيانتها.

والآن أسمعُ أنها قد بلغَتْ الخامسة عشرة من العمر، وأنها تستلقي على طاولة مكتبه أثناء كتابته إحدى مخطوطاته. ولن أُدهَش إذا ما اتضحَ أنَّ عقلها الفارغ يضمرُ أحلاماً بالخلود في أحد أفلامه.

كنتُ أُفتِّشُ عن شيءٍ ما على الجزيرة.

الناسُ هنا يعيشونَ بالقرب من الأرض، بالقربِ من البحر، بالقرب من كلِ ما هو طبيعي ومُقدَّرٌ لنا.

أبرز ما ميَّزَ الناس الذين كنتُ أقابلهم، بعد رحيل السيَّاح في نهاية فصل الصيف، هي البساطة.

شعرتُ أنه لا شيء في إمكانه أن يذلَّ أولئك الرجال والنساء؛ فهم يعيشون في تواؤم تام مع ذواتهم، مع كل ما يكمن فيهم من خير وشرّ. ولا ينجح أي دخيل يشير إليهم في أن يُشعِرهم بأنهم دونه.

إنهم أناس واثقون في مكانتهم على الأرض. وهم أبعد ما يكون عن التعقيد، ولا يخلون من المطالب، والأحقاد والعدوانية، إلاَّ أنَّ فيهم كبرياءً، كرامة لا يسمحون لأيٍّ كان أن يُحطِّمها. ولهم جذورٌ مقيمة في قطعة الأرض نفسها طوال حياتهم.

كثيرٌ من العجائز يملكونها. لقد تخلّوا عن خيلائهم، أسقطوا حلمهم الزائف، وكفّوا عن الانطلاق المجنون.

هم، أيضاً، سكان جزُر في مجتمعنا.

مثل حال الأطفال.

إنَّ مَنْ لا يأبهون بالاحتفاظ بأقنعتهم وواجهاتهم في أماكنها ؛ مَنْ يجرؤون على أن يكشفوا عن حقيقتهم.

هم من سكان الجُزُر.

إنهم الذين يعيشون أفكارهم، حتى الأفكار التي قد لا تكون لامعة جداً.

من بعضهم ينبثقُ شعورٌ بالطمأنينة، شعور بطمأنينةٍ بسيطةٍ، قد تكون كرامة القلب.

عاشتْ " سيري " على الجزيرة طوال حياتها. مرةً واحدة فقط ذهبت إلى ستوكهولم وكان الخوف ما يزال يتمكّن منها.

كانت مؤخرتها ضخمة وعريضة، وكأنها بعد انتهاء أحد أيام العمل جلستُ عليها مطوّلاً. جلستُ وتأمّلت.

كانت وهي ما تزال فتاة صغيرة قد تنكّبتْ مسؤولية أخوتها وأخواتها اليتامى. ولم يتسنَ لها أن تفكّرٍ في نفسها وفي ما تريد أن تفعله بحياتها، إلاّ بعد أن غادرَ آخرهم المنزل.

وكانت مسألةُ إكمال تعليمها أمراً غير وارد. ثم إنها لم تعد تلك الفتاة الشابة. بالإضافة إلى كونها امرأة.

لزِمَتْ الجزيرة وراحتْ تقومُ بأعمالٍ غير منتظمة حيثما تطلّبَ الأمر جهدَ امرأة. وكان في وسعها أن تُديرَ مزرعةً أبويها الصغيرة وتقوم بكل ما تتطلّبه من عمل.

أنجبتْ طفلاً وأنشأته وحدها. وبعد ذلك بعِدّة سنين جاء رجلُ ليعيشَ معها. وربَطَتْ بينهما صداقةُ رقيقةُ صامتةُ.

كانت جميلة، وقسماتها كبيرةً ومحفورةً عميقاً، وعيناها منتفختين وثدياها ووركاها ممتلئين أنوثةً وأمومة.

كنا كلما قدمنا إلى الجزيرة، جاءتْ إلينا.

وفي كل يوم كانت تقطعُ الغابةَ على متن دراجتها العتيقة. وحتى بعد أن مَنَحَها انغمار دراّجة بخارية صغيرة، ظلّتْ تشعرُ بأمان أكبر وهي تقودُ الدراجة العائدة إلى أيام الشباب. وكانت تتعجَّب من الحياة التي نعيشها، لكنَّها كانت أيضاً مُتفهِّمة وتفيض بالحنان. وحين كنا نجلس على مائدة الطعام مشدودي الأعصاب وبيننا كلامٌ مكتومٌ، كانت تنقلُ بصرها من أحدنا إلى الآخر، ومن ثم تميلُ على صحنها وهي عاجزةٌ تماماً عن أن تفهم لماذا يعمدُ اثنان إلى إيذاء أحدهما الآخر ما دام يجمعُ بينهما حبٌ كبير. أحياناً كانت تمكثُ في المطبخ وتبكي لأنها تطابقتْ تطابُقاً كاملاً مع وضعٍ كانت غريبةً عليه.

كنا إذا سعدنا، سعدتْ هي أكثر منا.

كانت تغمز لي بعينها وتبتسم وتكادُ تنسى خوفها من الظلام عندما تمتطي متن دراجتها لتتوجّه إلى بيتها.

كنا نفهم أحدانا الأخرى، على عادة النسوة حين تسودُ بينهنَّ الألفة.

لقد جعلتني أنفَذ ببصيرتي إلى الكثير من الأمور التي لم تكن في السابق تدخل في نطاق عالمي : كيف يكونُ يوم العمل بالنسبة إلى مَنْ تملُك خِرافاً ودجاجاً وإوزاً وقطعة أرض، بالإضافة إلى أعمالها كخادم وكبائعةٍ بديلةٍ في مخزنِ البقالة. ومني تعلَّمَتْ أشياءَ نقلتُها من بلدانٍ أخرى، من أسفار - من الحياة خارج الجزيرة. كنا نجلسُ وكلٌ منا تُمسِكُ بيد الأخرى أو ذراعها تحيطُ خصر الأخرى. وكنا سعيدتين بالتجارب التي تقاسمناها، وأحياناً كنا نبكي لأنَّ الأخرى فهمتْ فجأةً شيئاً كانت في السابق لا تجدُ مَنْ يشاركها فيه.

كنا نذهب معاً إلى الاحتفالات التي تُقامُ في الجزيرة. قبل ذلك كنا نتفحَّصُ أثوابنا وتساعدُ إحدانا الأخرى في انتقاء أجملها لارتدائه في السهرة.

ويجلسُ الرجالُ في إحدى الزوايا يتبادلون الأحاديث بينما ترقصُ النسوةُ كما هي العادة غالباً في الريف.

رقصتُ مع " سيري " ورقصتُ مع روزا، الأولى في الأربعين، والثانية في الستين. " سيري " بثوبها الحرير الضيِّق على جسمها القويّ الصحيح الذي كان يفورُ بالسعادة.

وتمَّ التخلّي عن النمط اليومي لبضع ساعات. واليوم حين أفكِّرُ فيهما ترتسمُ ابتسامةٌ على شفتي - كما حدث في تلك السهرة.

لم تكن تقرأ كثيراً، ولا تشاهدُ البرامج التلفزيونية نفسها التي أشاهدها، إلاّ أنها من نواحٍ كثيرةٍ كانت أوثقَ صلةً بالواقع مني.

كانت مسؤوليتها موجَّهَةً دائماً لصالح الآخرين، ومكافأتها من الأشياء المادّية ضئيلةٌ جداً. كانت أبيّةَ النفس وذات كرامة. وكنتُ أفضِّلُ أن أمكثَ معها في غرفةٍ موصدةٍ مائة يومٍ على أنْ أكونَ مع أُناسٍ مُعيَّنين أعرفهم، معروفين بظُرفِهم وذكائهم.

إنني أفتقدُ " سيري " الآن، إذ لمْ أعُدْ أراها على الإطلاق.

قطعان الماشية تبقى في العراء على مدار العام. إنها مثل المشهد الطبيعي الذي تعيشُ فيه، تبدو أشبه بمخلوقاتٍ مُتبقّية من زمنٍ غابر. ذوات رؤوسٍ غريبةِ الشكل، أجسادٌ ضخمةٌ مُثقلَةٌ بالصوف تتجرجرُ معها على الأرض.

حين تضعُ مواليدها في شهر آذار قد تكونُ درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر.

وذات يوم وقفنا نشاهدُ العمليةَ ونحنُ عاجزتان تماماً. كانت الرياحُ تسوطُ وجوهنا، والدنيا ظلاماً والجو عاصفاً. تدلّى حَمَلٌ من جسم الأم ووقفتْ هي تنتظر، ورأسها محنيٌ في وجه الريح. إن الحياة قصيرةُ الأمد بالنسبةِ إلى المولود الصغير. فما إن وُلِدَ ولَمَسَه لسانُ الأم حتى وصلَ الحَمَلُ الثاني. وكان البقاءُ للأصلح. وبدأتْ الأمُ تلعقُ الناجي الأخير الذي كان أكبر حجماً بكثير، وبقي الضئيلُ الجسم ملقى على الأرض، والدماءُ والمادة اللزجة تتحولان إلى ثلجٍ على جسمه.

قمنا بمحاولةٍ خرقاء للمساعدة، وكل ما نجحنا في عمله كان في جعل الأم تنفرُ فَزِعة، وكان علينا أن ننسحب. وعادتْ بحَذَرٍ إلى وليدها الأكبر حجماً وراحتْ تلعقه إلى أن نهضَ، جافاً وعلى قوائم نحيلة مرتعشة ليختبرَ العالم.

في تلك الليلة جمعت المزارعة ثلاثة حملانٍ نافقة خلّفها القطيعُ وراءه وهو يُتابعُ هجرته البطيئة الخُطى خلال الغابة الدائمة الخُضرة.

وترعرعتْ طفلةٌ صغيرةٌ معنا على الجزيرة.

وقفتُ في رواق المستشفى في الليلة التالية لولادتها. كان في استطاعتي أن أشاهدَ كل المواليد الجُدد الباكين الصِغار من خلال النافذة، وبينهم في مكان ما كانت طفلتي نائمة. وبقيتُ واقفة هناك لساعات تملؤني السعادةُ إلى أنْ اضطرّتني الممرضةُ الليلية إلى الخلود إلى النوم.

كيف يمكن أن أصفَ شعور الأمان لدى معرفتي أنها باتت الآن معي في العالم ؟ قريباً سيقومُ سريرها بجوار سريري. سوف ننامُ ويدها في يدي، ونصغي إلى الموسيقى ونشاهد اللوحات الجميلة معاً. سوف نناقشُ كل شؤون الحياة، ونجدُ الأجوبةَ بعد حوارات حميمة طويلة. سوف نساعدُ بعضنا لين وأنا لنكونَ أناساً حقيقيين. وشعرتُ منذ ذلك الحين أننا سنكونُ وحدنا ؛ أنَّ والد لين ستكونُ له حياته الخاصة، إلى جانبنا - ولكن أبداً لن يكونَ معنا. واستلقي على سريري وأديرُ الخاتمَ الذي أعطانيه، وأُضيءُ المصباحَ لأستمتع برؤيته. أقرأ الرسالةَ التي كتبها لابنته ولي. في الليلة الأولى تلك لم يكن في مقدور أي خطر أن يلحقَ بي.

نادراً ما تصبحُ الأحلامُ واقعاً.

كان من المُنتظَر مني أن أمنح طفلةً الأمان والحنان، لكنني شعرتُ أني أنا نفسي لم أتلقَّ كفايتي منهما. ووسطَ وحدتي في الجزيرة كنتُ أُماً قصيرة النَفَسْ وعصبيّة. كانت حياتي مع الطفلة متأثِّرة بالوضع الذي وجدتُني فيه ولم يكن دائماً وضعاً جيداً. كانت إحباطاتي تتركُ آثارها أحياناً عليها. ومرَّتْ عليَّ أيامُ حَمَلتُ خلالها شعوراً بالذنب وذلك حين أصبحتُ مأمورة من كليهما. هو الذي يجلسُ في غرفة مكتبِهِ ويريدني وحدي. وهي التي بالكاد قادرة على المشي، وتبكي تستدعيني من الطَرَف الآخر للمنزل. كنتُ أندفعُ من طرفٍ إلى آخر، ودائماً مع إحساسٍ بالذنب، بدون أن أتوصَّل بأي حالٍ إلى أنْ أعطي بشكلٍ كاملٍ ما كنتُ أتوقُ إلى تلقّيه.

هناك الكثير من الصور للين التُقِطَتْ لها في ذلك الوقت. تبدو فيها ريَّانةً سعيدة، وعيناها تبدوان وكَأنهما تُثمِّنان كل ما يدورُ من حولهما ؛ عينان ملؤهما الظُرف.

أعرفُ أني لا يمكن أن أُعوِّضها عن الأخطاء التي ارتكبتُها في حقِّها ؛ عن كل الاختيارات التي اتخذتُها ولم تكن لصالحها ؛ عن كل مرةٍ كنتُ أتركها في رعاية شخصٍ آخر.

أتساءلُ بماذا كانت تفكِّر، إلامَ كانت تتوق.

أريدُ أن أضمَّها إلى حضني اليوم وأُعبِّرَ لها عن مبلغ حبي لها ومقدار اشتياقي إلى الدفء والرائحة والثقة المُطلَقة.

إلى الوقت الذي كنتُ فيه عالمها كلّه وكنتُ مملوءةً بعالمي، حين كانت تنامُ في طَرَفٍ من المنزل وننامُ نحن في الطرف الآخر، وأَبقى أنا مُنصتةً لأنها بعيدةً جداً وأخشى ألاّ أسمعها إذا ما استيقَظتْ.

المهد الأزرق، وصورة انغمار وهو صبي فوقه.

لحظات الانتماء حين كنا نتمشى في الغابة ونقطف الفريز البري، وحين قصَفَ الرعدُ هادراً ذات ليلة، وانضممنا نحن الثلاثة بعضنا إلى بعض معاً في السرير وضحكنا.

وسعادتي حين أوصدا على نفسيهما باب غرفة مكتبه وأخذا يتبادلان الأسرار. وأيام الصيف التي كنا نجلس خلالها خارج المنزل يلفّنا الهدوء التام، نتأمل البحرَ والطيور والحجارة.

في عامها الأول عاشتْ هناك بيننا. وقد نسيت لتوّها أغلب تلك الذكرى.

تُرى أي ذكريات وتجارب مدفونة عميقاً داخلها ستتركُ أثرها البليغ على حياتها اللاحقة ؟ وستجلبُ لها مخاوفَ وقلقاً لن تفهمهما مطلقاً ؟ وتطلُّعات لا يمكنُ أن تتحقَّق ؟ لأنها تنتمي إلى فترةٍ مبكِّرة من الطفولة وما كان يمكنُ أن تشبع إلا في ذلك الوقت.

لديَ صـورةٌ لانغـمـار من عـهـد الدراسـة ؛ إنه واقفٌ وسـط رتلٍ من أولاد في الثالثة عشرة. أرى أنَّ بشرته مبثّرة، وأميِّزُ إحساسه بالوحدة والحياء، وأعتقد أنَّ في إمكاني أن ألمسَ إحساسه بأنه غريب.

ذات مـرة دُعـينا إلى العـشـاء عند منتج ثري في رومـا. وكـان من المفـروض أن نكونَ الضـيفين الوحـيدين، ولـكن في غـضـون نصف سـاعـة امتلأت شقَّة المضيف الكبيرة بأناسٍ دُعوا لمقابلة انغمار عن قُرب. عندئذٍ ارتسمَ على وجهه التعبير نفسه الذي ظهرَ في الصورة. وحين أخبر المنتج أنَّ عليه أن يغادر كان شاحباً. وجلس الآخرون على مائدة العشاء بدون ضيف الشرف.

بعـد ظهـر كل يوم كنا نسـتـقلّ، لين وهو وأنا، معـدّية جـزيرة فـارو ونعبُر اللسان البحريّ لنُحضِر الصحف. وغالباً ما كنا نشتري البوظة في طريق العـودة. حـتى في فـصل الشـتـاء والجـو عـاصف والناسُ يتلفَّعـون بالأوشـحـة الصـوفـيـة وأنوفـهم حـمـراء - كنا نجلسُ في السـيـارة ونأكل البوظة.

وذات عيد ميلاد على الجزيرة اشتريتُ لحمَ خنزير مملَّحاً ومُدخَّناً ظناً مني أنه طازج، وحمَّرتُهُ لمدة ساعة وقدَّمتُ كارثةً لا تصلح للأكل. وفي

وقتٍ لاحق من تلك الأمسية حاولتُ أن أُضيء بعض الشموع على الشرفة، فأطفأتْ الريحُ اللهبَ الخافق فنَقَرَ انغمار بغضبٍ على زجاج النافذة، لأني أخطأتُ فاشتريتُ شموعاً جنائزية، معتقدةً أنها شموعُ حفلات.

أثناء تصوير فيلم في جزيرة فارو كان غاضباً مني، وكنتُ واقفةً أمام منزل تتلظّى فيه النيران. وصرخَ " اقتربي أكثر "، وهو ينظرُ من خلال عين الكاميرا. وكانت شراراتُ تتطايرُ حول أذني. " اقتربي أكثر!"، وكانت الحرارةُ تلفحُ وجهي بقسوةٍ حتى إني أغمضتُ عينيَّ. واضطرم الغضبُ داخلي " اقتربي أكثر ! "، وكدتُ أدخل في الفرن حين هتف" يكفي ! ". لكنه على الشاشة يبدو جيداً.

في روما تمنَّيتُ شيئاً واحداً : أن أدخلَ إلى حانة وأشرب عصيرَ برتقالٍ طازج على النضد. وأقنعته باللحاق بي. فوقفَ عند الباب وهو يتميَّزُ غضباً. وكان الناسُ يتزاحمون جماعات ويرتطمون به في الأحياء المكتظَّة. وكان عليه أن ينتظر لأني كنتُ واقفةً في الطابور. ولم يكن العصيرُ لذيذاً كما تصورَّتُ وحين خرجنا مرةً أخرى، قال لي إنَّ تلك هي آخر مرة يتورَّط في مثل تلك المغامرة.

على مدى خمسة أسابيع كنا نتناولُ وجباتنا في المطعم نفسه.

كنا نتوجّه إلى كنيسة القديس بولص كل يوم. وكنا نحبُّ التسكُّع وسط الضياء الرائع، والظلام، والألوان، والظلال، والبرودة السائدة في الكاتدرائية. ونجلسُ على مقعدٍ ونتبادلُ الوعودَ بالعودةِ إلى المكان ذاته في العام التالي.

وعدتُ - ولكنتِ لين هي التي كانت بصُحبتي.

وقلتُ لها بحزن " هنا جلسنا البابا وأنا ذات مرة حين كنتِ ما تزالين طفلة صغيرة "

ردَّتْ لين بجفاف " مؤخرات كثيرة جلستْ هنا بعد مؤخرتيكما "

ذهبنا إلى الحدائق المُشرفة على السوق الروماني. ولم أرَ في حياتي مثيلاً لذاك الربيع. رحنا نمتِّعُ أبصارنا معقودَتيّ اللسانين بمشاهدة أشجار البرتقال والنخيل، وسرنا في ظل شمس كانت ادفأ من شمسنا في الوطن أثناء الصيف.

* * *

لا أحد يتفوَّق على انغمار في غضبه، إلا أنا ربما.

ذات مرة انتابني خوفٌ شديدٌ منه حتى إني أغلقتُ على نفسي باب الحمَّام. وكان هو في الخارج يدقُّ بقوةٍ على الباب ويرفسه محاولاً أن يدخل. وفجأةً أصابني الرعبُ حين اخترقتْ قدَمَه كلها الباب مثل قذيفة مدفع، مُخلِّفةً ثُقباً كبيراً - وبعنفٍ كان من الشدّة بحيث انطلقَ الخِفُّ منه وضربَ الطاس.

كان من السهل أن نعودَ أصدقاء حين ينظر أحدنا إلى الآخر من الخارج.

كما حدثَ حين دفعني، في نوبةِ غضبٍ، عبر غرفتنا في الفندق، مما سبَّبَ انضغاط قبَّعتي الجديدة على وجهي، وعلِقَتْ هناك، مُنهيةً بشكلٍ فعَّال احتجاجي بعض الوقت.

نادراً ما كنا نشعرُ بالملل ونحن معاً. أذكرُ مرة كنا في حديقة الحيوانات، نستعرضُ الحيوانات ونتمشّى طويلاً ولا نجدُ كلاماً نقوله، على الرغم من أنَّ الجوَّ كان مُشمساً وحاراً. وبعد ذلك احتسينا شراب

الكاكاو في أحد المطاعم. وعند انتهاء النزهة كنا سعيدَين حتى إننا جلسنا وأخذ كلٌ منا يقرأ في صحيفةِ المساء الخاصة به.

أو مرةً في كوبنهاغن، وكنا منذ فترةٍ طويلةٍ نتوقُ إلى الانفراد ببعضنا بعضاً. ومرت علينا عدَّة أيام لم نرَ خلالها أي شخص، وبعد ظهر أحد الأيام أطللنا لننظر من نافذة الفندق، فتجسَّدَ بيننا إحساسٌ بالخواء، بدون كلام وبشكلٍ غير متوقَّعٍ على الإطلاق.

لجأنا إلى النوم ورأسانا يتلامسان كحصانَين.

حين كنا سنقومُ برحلتنا الأولى معاً، طلبَ مني أن أسبقه مع الأمتعة، حتى أتمكَّنَ من فكّ الحقائب وجعل غرفة الفندق مكاناً أليفاً قبل وصوله. وأخيراً انفجرَ الاحتجاج العنيف المضطرم داخلي بعد مرور عدة أيام. وفي منتصف الليل أعلنتُ فجأةً أنَّ نهاية علاقتنا قد أزفتْ، وأنَّ من الأفضل أن ينهضَ ويطلبَ لنفسه غرفةً جديدة. وبمنتهى البطء أخذ يرتدي ملابسه، ووقفَ أمام المرآة مدةَ أربع دقائق وهو يمشِّط شعره الخفيف. كان أشبه بصبيّ في صورةٍ فوتوغرافيةٍ مدرسية.

* * *

عندما قابلنا أنا وهو فيلليني أصبحا كأخوين على الفور. تعانقا وضحكا معاً وكأنهما عاشا حياةً واحدةً. راحا يجوبان الشوارع في الليل متشابكي الذراعين، فيلليني يرتدي رداءً أسودَ دراماتيكياً، وانغمار بقلنسوته الصغيرة ومعطفه الشتوي العتيق.

عشاء في منزل فيلليني. حين انفرد انغمار مع جوليتا ماسينا، زوجة فيلليني، في إحدى الزوايا، وزالَ عنها خجلها وبدأت تُغنِّي، بصوتٍ عالي النبرة، صافٍ كصوت طفلة. وعند الباب قال فيلليني "

إنني ما إنْ أغادرُ الغرفة لحظة واحدة حتى تستغلها زوجتي في السخرية مني "، فنَهَضَتْ بسرعة، ولم تحر جواباً. ومن خلال نافذة الشرفة رأيتها تتمشّى في الحديقة، تقطفُ زهوراً من الأشجار. بعد قليل عادتْ إلى الدخول وأعطتْ لكلٍ منا زهرة. وكانت طوال الوقت تبتسم.

وحين كانت تتنقَّلُ، فعلى أطراف أصابع قدميها - حتى لا يلاحظها أحد.

* * *

اتَّفقنا انغمار وأنا على أن أظهر، أثناء مراسم جنازته، بثوبٍ أسود طويل. وكنتُ أُفضِّل أن يكونَ أحمر. وإذا كان متزوجاً من امرأةٍ أُخرى، أن أذهب وأتَّخذَ لي مجلساً في خلفية الكنيسة بعد وصول الجميع، وأن يُغمى عليّ أثناء التأبين وأن أُحمَل إلى الخارج أثناء ترنيمة الانسحاب.

* * *

بعد انفصالنا بعامٍ كنتُ جالسةً على دَرَج كنيسة القديس بطرس، والشمسُ مشرقة وكنتُ مُتيِّمةً قليلاً بالحب. وبدون سابق إنذار شعرتُ أنَّ روما، منذ ذلك الحين فصاعداً، ستحملُ ذكريات أخرى غير ذكرياتي مع انغمار.

ثم كتبتُ له رسالةً أقولُ فيها إنَّ كل شيء بيننا قد انتهى.

إنها قصة حبٍ قصيرة تُشبه الكثير جداً من مثيلاتها. استمرَّتْ خمس سنوات.

أثناء عيشها معه لبضع سنوات راحت تراقبه. كانت تجلس بهدوء وتختبره كفرد.

لم يعُد فقط ذاك الشخص الذي كانت لها معه علاقة.

وشيئاً فشيئاً بدأ فهمها له يستيقظ. وكلما ابتعد عنها فهمته أكثر - وكأنَّ البُعد كان يمنحها صفاء الرؤية.

وتلاشى الخوف وخفَّتْ وطأة الوحدة عليها حين لاحظت أنه فَقَدَ إحساسه بالأمان.

كانت تفيض بالحنان وتتجاوز عنفه وجوره.

لم تعُد عمياء عن أخطائه ونقاط ضعفه، كما كانت في البداية، لكنَّ فهمها واحترامها له ازدادا.

اختفى الولَه. ولاحظتْ أنَّ شعره أصبحَ شائباً ؛ كان أكبر سناً منها بكثير ؛ وكان حكيماً واستفزازياً ؛ وكان تافهاً وأنانياً.

واكتشفتْ وسط دهشتها أنَّ هذا كان حباً.

وأدركتْ وهي حزينةٌ أنَّ كل شيء سينتهي قريباً، وأنها جاءت إليه في وقتٍ كان قد بدأ لتوِّه يتحرَّك إلى مكانٍ آخر.

ونظرتْ إلى طفلتهما وأدركتْ أنها قريباً ستضطرٌّ إلى تولّي هذه المسؤولية وحدها.

كانت تلك آخر سنة تقاتلُ فيها للحفاظ على علاقتهما، مع أنها كانت تعرفُ أن لا فائدة تُرجى، وأنَّ ذلك ليس في صالح أيٍ منهما.

لما انتهى كلُ ما كان بينهما كانت تأملُ في ألاّ يبقى وحيداً، وأن تأتي امرأةٌ جديدةٌ وتعتني به بشكلٍ أفضل مما فَعَلَتْ هي.

ولكن طبعاً استغرقَ منها الوصولُ إلى هذه النقطة بعضُ الوقت.

حاولتْ أن تتذكَّر كيف كانت حين أتتْ إلى الجزيرة قبل خمس سنوات.

كان هناك شيءٌ مسحوقٌ داخلها، وشيءٌ آخر أكثر حياة.

لقد طرأ عليها تغيُّرٌ ما.

وبعد زوال المرارة والكراهية واليأس، باتت متأكِّدة من أنها عرفَتْ الحبَّ وأنها أضحتْ أكثر ثراءً.

لكنَّها لم تكن قادرةً أبداً على التحدُّث عن الأمر.

لقد سَبَرَتْ غور شخصٍ آخر وكانت شديدة الرِّقة مع ما اكتشفته.

أمضيا ردحاً من الزمن يُمسِكُ أحدهما بيد الآخر وكانا وثيقَيّ الصلة حتى الإيلام.

إلا أنهما لم يُصبِحا صديقَين صدوقَين إلا بعد أن انتهى كلُ ما كانَ بينهما.

كلُ مـا كـان أليـفـاً لديَّ كـان بعـيـداً جداً عني - الناسُ، الشـذا، الأصوات، التجارب. هنا، على الجزيرة، أنا في عـالمٍ غـريبٍ مع أشجارٍ غريبةٍ وحجارةٍ غريبة. مع ألوانٍ لا تتكشَّفُ إلا بالتدريج.

كنتُ مقطوعةَ الصلةِ بكل ما كان في السابق يؤلِّفُ عناصر حياتي، كنتُ في سياقِ البحثِ عن حياةٍ جديدةٍ داخلي.

الوحدةُ التي أحسستُ بها وأنا على جزيرته جَعَلَتْ من الممكن حدوثُ تغيير.

عندما بكيتُ، وصببتُ جامَ غضبي عليـه، عندما حَبَسَ نفسَه في غرفة مكتبه، وعندما غادرني لمدة يومٍ - مع أنَّ هذا كله كان مؤلماً جداً، إلا أنَي أعرفُ أنه ساعدني على أنْ أتطوَّر.

لطالما كنتُ أتبعُ الآخرين بسبب فقداني الأمان. اعتدتُ أن أمدَّ يديَّ إلى أيدي الآخرين طَلَباً للمساعدة وللفهم.

أما الآن حين كنتُ أشعرُ بالخوف والوحدة أكثر من أي وقتٍ مضى، أوجِدُ ولأول مرة نوعاً من الأمان مع نفسي.

كنتُ أشتـاقُ إلى الرجل الجالسِ يكتبُ في غرفةِ مكتبه. أردتُ أن أشاركه هذه المعرفة، لكني لم أستطع.

مشيتُ على الشاطئ الصخري، وتخيّلتُني جزءاً من طبيعة الجزيرة، وأني سأعيشُ هنا إلى الأبد.

حاولتُ أن أحبَّ البحرَ المتلاطمَ، الألوان الغريبة التي تنشرُ جمالها باقتصاد.

وكلما حاولتُ ازدادَ خوفي من ألاّ تطول فترة مكوثي هنا.

وددتُ لو أفتحُ ذراعيَّ واسعاً وأعانقُ كل شيء، ولكن لأنَّ خوفي من أنه لن يكونَ ملكي كان عظيماً جداً، لم يصبح ملكي.

عشتُ هنا فترةً وجيزةً من حياتي، وما أخذته منها معي لم تكن الحجارة والأشجار والجمال.

غادرتُ الجزيرة وأضفتُ الوحدةَ إلى أمتعتي، وإحساساً بأنَّ شيئاً داخلي قد تغيَّرَ إلى الأبد.

ماذا أقول عن الفِراق الحقيقي ؟

أهي الدعـاية التي تُحـيطُ بالحـيـاة الخاصـة ؟ إنهـا الصُحف التي تقـتـحمُ علينا حـياتنا، تضغطُ على موضعِ الألم ؛ إنـهـا مـجلات تحـملُ أغلفتـهـا الخـارجيـة صـوراً مُلتَقَطَة مـن لقاءاتنا الأولى ؛ بوجوهٍ مبـتـسمـة سعـيدة مـع عناوين كبـيرة بأحرفٍ سوداء : " حيـاته الجديدة بدون ليف. اقـرؤوا نهـاية القـصـة ". كنا وسطَ تعاسـتنا على علاقـةٍ حـميـمةٍ مع نصف الدول الاسكندنافيّة.

واتَّصَلَ مُـراسلٌ صـحـفي من باب المواسـاة الوديّة وقـال إنَّ في استطاعـتي أن أحكي الحقـيقـة بنفسي، أو أن أضعَ الصحـافـة في الموقع الذي تضطرُّ فـيـه إلى أن تكتبَ مـا ترتئيـه. وسـألني آخرُ إنْ كنتُ أحتـفظُ برقمِ هاتفِ زوجته الجديدة.

كـان عليَّ أن أتسلّل من غرفـتي في الفندق وأهرع على درج السُلّم الخلفي لأنَّ هناك مُصوّرين في انتظاري عند الباب الرئيسي. وأضعُ نظّارةً سوداء لأُخفي حُزني - قليلٌ مـن المُعاناة الإنسـانيـة تمرُّ مُسرعـةً في صـورةٍ تنفعُ لزيادة المبيعات. خاصةً حين يمدّنا النصُّ بسردٍ حميمٍ للكارثة.

أذكـرُ وقـوفي في زقاقٍ خلفيٍّ بين براميل القـمـامـة وطوابير الغـسـيل،

أنتظرُ مرورَ سيارة. وبطريقتي الدراماتيكية خضتُ تجربةَ الوضع بشكلٍ رمزيّ وقررّتُ أني لا أستطيعُ أن أمضي حياتي الباقية هكذا : بين براميل القمامة.

أذكرُ أصدقاء انتظروا في المطار لاستقبالي لدى عودتي إلى السويد بعد ذلك مباشرةً. كنتُ خائفةً وخجلةً وأنا مُعرّضةٌ لكلّ النظرات والملاحظات. كانت هناك فتيات يحملن زجاجات الشمبانيا ولوحات إعلانات. كنّ واقفات بأزياء الهيبيز، يُلوِّحن بعبارات تقول :" الحياة مستمرة " و " أهلاً بكِ يا ليف ".

ضحكتُ للمرة الأولى منذ وقتٍ طويل وسفحتُ الشمبانيا على أرض آخر خطِ مُدرَّج المطار.

بقينا في منزل بيبي طوال الليل. كنا أربع نساء أو خمس، ولدى كل واحدة قصة حب تحكيها، وكل قصة مُتعلِّقة بمكان، على الكرة الأرضية، لا يمكنها أن تعودَ إليه مطلقاً.

طوال فترة وجودنا معاً على الجزيرة كان علينا أن نهتمَّ بالأمور العملية كسبيلٍ للهروب. وكان الوضعُ معقَّداً جداً بالنسبةِ إلى الطرف الذي اضطرَّ فجأةً إلى الرحيل، وكنتُ دائماً ذاك الطرف.

أولاً، كان عليَّ أن أقودَ السيارةَ خلال ثلاث بوابات أو أربع، وكان يجب فتحُها كلها ثم إغلاقها : كنتُ أُغادر السيارة - أفتحُ البوابة - أعبرها بالسيارة - وأغادرها ثانيةً وأُغلقها. ثم هناك المعدّية. فهي تُغادر مرةً كل ساعة، ومشاجراتنا لم تكن قط تتوافقُ مع جدول مواعيدها. وبعد أن أعبر اللسانَ البحريَّ أخيراً، يتبقّى هناك مدة ساعة بالسيارة حتى الوصول إلى المطار. ومع وصولي إلى هناك يكونُ غضبي قد خمَدَ ودائماً أُغيِّرُ اتجاهي وأعودُ من حيثُ أتيت.

وغالباً ما أجده واقفاً ينتظرني عند إحدى البوابات.

لقد كنا، نحن الاثنان، أحمقين.

وفي إحدى المرات وصلَ غضبنا نحن الاثنان إلى آخر مداه وقرَّرنا أننا لا نستطيعُ أن نجازفَ بالمرور بإجراءات الخروج المُعقَّدة من الجزيرة، فاستدعي طائرةً مُستأجَرَة، وكانت ستحطُّ على متن المعدّية، وعلى هذا فلن يكون من المُحرِجِ كثيراً الجلوس بجوار قائد الطائرة فيما لو فهِمَ

الأمرَ، فيما لو بكيت، وشرحَ لي انغمار عبر الهاتف أنَّ عليَّ أن أُغادرَ على عجَل، لأنَّ جدَّتي حالتها خطرة. وبدأتُ أعدُّ أمتعتي بسرعة كبيرة وجلسَ هو على كرسي يُراقبني ويبتسم تلك الابتسامة الباهتة التي يتميَّزُ بها، التي ظهَرَتْ في الصورة الفوتوغرافية - الصورة المدرسية.

وعُدنا أصدقاءَ من جديد، هناك بجانب حقائب السفر.

حين تذكَّرنا الطائرة اتَّصَلَ بهم هاتفياً وأبلغهم أن يعودوا إلى ستوكهولم : لقد أحرزتْ جدَّتي شفاءً سريعاً.

* * *

حين حصلَ الفراق الأخير، لم نتحدَّث في الأمر. وبينما كنتُ أحزمُ أمتعتي تظاهرنا بأنه لا ينطوي على أي معنى. فقط رحلةٌ قصيرةٌ إلى النرويج.

تركتُ حاجيات لين، لم أجرؤ على لمسها - كان ذلك سيجعلُ الأمرَ واضحاً جداً، نهائياً جداً.

لم أنظر إلى الخلف بينما السيارة تبتعدُ بي، مُخلِّفةً ورائي كل ما كنا قد اكتشفناه معاً - الكراسي والمصابيح والطاولات. المشهدُ الطبيعي وهدير البحر وحفيف الأشجار.

ووقفتْ سيري، التي فهمتُ كل شيء أفضل منا، خلف الستارة وطَفِقَتْ تبكي.

أما نحنُ فلم نبك. ليس عندئذٍ.

لا يمكنك أن تتصوَّر كم عقدنا من آمال في البداية.

طوال الفترة التي عشتُ خلالها على الجزيرة كنتُ أُفكِّرُ قائلةً إني سأتمكَّنُ من كسر العُزلة وسأعثر عليه في الضفة الأخرى.

إنَّ كلاً منا ميَّزَ أشياءَ كثيرةً في الآخر. لعلَّنا كنا متشابهين كثيراً.

أحياناً كان يقولُ إننا كذلك.

كنتُ أحلمُ بتحقيق تلاقٍ عظيم وكنتُ متأكِّدة من أنَّ في إمكاننا تحقيقه.

ولكن مع عملية الكسر حلَّتْ العُزلة النهائية - وأدركت أنه لن يتحقَّق مُطلقاً.

ثم انكسرَ شيءٌ داخلي.

بكتْ الطفلةُ الكامنةُ داخلي وبكتْ ؛ جعلَتْ مني، أنا ذات الثلاثين ربيعاً، فتاةً صغيرةً في الثالثة عشرة من جديد.

ونَفِدَتْ الدموعُ من مقلتي وأدركتُ أنه باتَ من المستحيل عليَّ أن أعيشَ وكأنَّ حياتي لا يمكنُ أن تتحقَّق إلا من خلال شخصٍ آخر. لا معنى أن أبحث عن ملاذٍ في شخصٍ آخر هَرَباً مما كان وحدتي أنا وإحساسي الخاص بالخوف.

لم يعُد انغمار جزءاً من حياتي كما كان. وتلك حقيقة، ولا يمكن لأي شيءٍ أن يُغيِّرها.

ولكن لا زلتُ أملك نفسي، وأُقيمُ اتصالاً مع كياني، مع كل ما في داخلي ويريدُ أن يمتدَّ نحو الخارج.

اشتقتُ إلى حضور انغمار اليومي، لكني كنتُ أعرفُ أني أحتفظُ بصداقته، وكان الأمرُ عائداً إليّ لإيجاد نقطة اتصال جديدة نلتقي عندها، وكنتُ عندئذٍ بأمسّ الحاجة إليها.

وقمتُ بكل ما أوتيتُ من قوةٍ ببناءِ جسرٍ بيننا، وبعد ذلك أصبحَ كل شيء أفضل حالاً.

كنا لفترةٍ من الزمن نتّصلُ بعضنا ببعض بالهاتف مراتٍ عدَّة في اليوم. كنتُ أقرأ له مقاطعَ من مؤلفاتي القديمة، وكان يُديرُ لي الاسطوانات المفضَّلة لديه.

إنَّ للحبِ أوجهاً كثيرة.

* * *

أقمتُ صلات أفضل مع أناسٍ آخرين. وجدتُ الاحترامَ عندما أصبحتُ مستقلّة، وكففتُ عن التعلُّق الشديد، توقفتُ عن الاتّكال بشكلٍ يائس على الآخرين تحقيقاً لسعادتي.

وتلاشتْ مطالبي من سلوك الآخرين وتوقُّعاتي منه، لضمان أماني. ليس بشكلٍ تام. ليس بشكلٍ مطلق. لكني لم أرتد أبداً إلى الحالة السابقة.

قُلْ إنْ شئت إنَّ الحزنَ انقلبَ إلى فرح.

أعتقدُ أنَّ بعض التجارب أصبحتْ أقل تكراراً الآن، لكني أعيشُ حياة أكثر تناغماً.

هكذا استقرَّتْ الأمورُ معي.

أعتقدُ أنَّ السعادةَ الغامرة - حين يعبقُ العالم كله بالشذا وتشرقُ الشمسُ ويكادُ المرءُ يغيبُ عن وعيه من فرط الانفعال - أعتقدُ أنها أضحتْ أقلّ حدوثاً.

إلا أنها موجودة. وسوف أظلُّ مدركةً دائماً وجودها. لكني لا أشعر بالقلق لأنها لا تشكِّلُ جزءاً من حياتي اليومية.

لم أعُدْ أؤمن بالسعادة الدائمة. كيف يمكنُ قياس السعادة ؟

أعتقد أنه من الممتع إدراكُ ماهيّة اللحظة وقبولها كهبة.

أنجبتُ طفلاً للمرة الأولى. هذه الحادثة غير المحدودة لن أمر بها مرةً أخرى، إلا أنها تُعزِّز كل ما سأشعر به فيما بعد.

أجلس بالقرب من نور شمعة وأعتقد أني ما كنتُ سأتوصَّل قط إلى إدراك كنه اللهب الخافق كما أفعلُ الآن لو لم أرَ في وقتٍ من الأوقات لين وهي تأتي إلى العالم.

غادرتُ جزيرة فارو قبل أن يُتاحَ لجذوري أن تتشبَّث بالأرض، لكنها ترسَّخَتْ إلى الأبد في التجارب التي منحتني إياها الجزيرةُ.

الهبات ليست فقط سعادة. أعتقدُ أني أقبل هذه المقولة.

أظنُّ أن هذا هو أهم تغيُّر طرأ عليَّ.

تلألأ، تلألأ،
أيُّها النجمُ الصغير

أول فصل شتاء كان صعباً، وكأني عدتُ بالزمن إلى الوراء لأجدَ كل ما كنتُ قد خلَّفتُهُ ورائي ينتظرني. وقد أسعدني أيضاً أن أعلم أن التغيُّر لا يشكِّل عائقاً - إذ في استطاعتي أن أبدأ من حيث كنتُ حين غادرتُ النرويج قبل خمس سنوات. أم هل الأمرُ منذ البدء كانَ فكرةً طرأت على بالي ؟ حيَّاني رفاقي في المسرح القومي ونظروا إليّ وكأني كنتُ هناك طوال الوقت، أو لعلّي تخيَّلتُ ذلك.

وأخذتْ رفيقات لين في اللعب، اللواتي لم تكن تراهن إلا لماماً،بالتوافدُ على منزلنا بانتظام. وأصبح للمنزل الذي اشتريته، حين كنتُ ما أزالُ متزوجة، الدور الذي حلمتُ بأن يلعبه ؛ فهناك جيران يسامرونني في الطَرَف الآخر من السياج أو يدقّون على بابي ويجلسون على مائدة المطبخ ويحتسون فنجاناً من القهوة . وأخذتْ الصنابير تُسرِّب الماء والفاصمات تنفجر ؛ وبات عليَّ أن أتعلَّم كيف أقومُ بمختلف الأمور العملية - وأصبحتُ فخورةً بنفسي بعد أن نجحتُ في إصلاح الأعطال. وعاد كل شيء طبيعياً. هنا كنتُ أظنُّ أنَّ نهاية العالم قد آنت. ومن ثم عدتُ إلى سريري القديم وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

اليوم الأحد وابنتي ذات الأربع سنوات في غرفة الجلوس تتحدَّثُ

عبر الهاتف مع والدها. وفي الخارج الظلامُ يسودُ والثلجُ يهطلُ. بعد قليل سأنهضُ وأُضيء بضع شمعات، وأشعل الموقد، وأتناولُ طعام الفطور مع لين، كما أتصوَّر أنَّ كل الأمهات يفعلن في مثل هذه اللحظة مع أولادهنّ.

سوف أكونُ مخلوقاً خُرافياً أو دُبَّاً، وألعبُ باستمتاعٍ وانهماك أكبر مما كان يحدثُ خلال الأسبوع الذي أعقب عودتها من بروفات طويلة لمسرحية راسين " بريتانيكوس " في دار المسرح.

لين منهمكة في نقاشٍ حيويٍّ مع انغمار. تريده أن يزحف من خلال الهاتف ويزورها.

أحياناً أبكي.

لين تقفُ فجأةً في ممر الباب وتقول :

" لِمَ تبكين يا ماما ؟ "

" أَحياناً أشعرُ قليلاً بالوحدة "

" أنا معك "

" لكنَّ البالغين يحتاجون أيضاً إلى بالغين آخرين "

" ومعك أيضاً التاتا والخالة نان "

" إنَّ المرءَ بين حينٍ وآخر يتوقُ إلى شخصٍ يعتني به "

" حسنٌ، لديكِ شخصٌ في جزيرة فارو "

تزيحُ لين الستائر وتُغلق النافذة.

" إذا نهضتِ الآن يا ماما يمكنكِ أن تُخبريني كيف يُصنَعُ الأطفال "

***

ليس فقط فترة الصباح التي تكون طويلة في يوم الأحد - بل اليوم كله يبدو بلا نهاية. في الأمور الطيّبة والسيئة.

باقي أيام الأسبوع تمرُّ بسرعة. أتلقّى دروساً في تدريب الصوت في صباح كل يوم. مُدرِّستي متحمِّسةٌ وسعيدة، تستخدمُ كامل جسدها في الشرح، تهرعُ صاعدةً الدرجَ وتسبقني، تغني لنفسها حين لا تعودُ تطيقُ الاستماع إليّ. إنها في الثامنة والسبعين، ودائماً تكونُ معنوياتي مرتفعةً لدى مغادرتي لها.

أما في المسرح فالأمر معكوسٌ. كلهم وسيمون وذوو مقدرة إلا أنا. إنني أبذلُ جهداً كبيراً، لكنَّ المقاطعَ الشعرية مفرطة الطول والصياغة الشعرية جامدة جداً. إنني لا أستطيع أن أقترب من تصوير شخصية الفتاة الصغيرة، جونيا، التي وَصَفَها راسين. يا له من دورٍ غريب يُسنَدُ إليّ. فقبل أي شيء أنا في الثلاثين من عمري، مترعةٌ بالتجارب التي أتوقُ إلى استخدامها، وها أنا الآن أُحشَرُ ضمن حدود فتاةٍ ساذجة في الثامنة عشرة. والنتيجة ريفيةٌ خرقاء من تروندهيم تتسلّلُ إلى خشبة المسرح وتأمل في ألاّ يُلاحظ وجودها أحد. لم أتلقَّ حتى الآن أي راتب. أشعرُ أني غريبة وبشكلٍ ما غير مرغوب فيَّ.

إنَّ عملي في الإذاعة أهمّ بكثير بالنسبة إليّ : إنني أقومُ بدور نورا في " بيت الدمية ". أحاولُ أن أبثَّ في مشهد وداعها لمسةَ أملٍ في التئام الشمل. ورحيلي أنا ما زالَ حديث العهد.

أتساءلُ كم نورا هناك في العالم يتمنّين أن يرحلن، لكنّهن أبداً لا يجرؤنَ. وإذا رحلنَ - فإلى أين ؟ هل الوجهة مهمة - أم أنَّ المهم هو القيام بالخطوة الفعلية لاجتياز عتبة الباب ؟ إنها الإرادة للالتقاء بعالمٍ يقعُ خلف أمان المرء الراسخ.

الأمسيات كلها متشابهة. أحياناً أخرجُ مع أصدقاء، لكني أفضِّلُ أن ألزمَ المنزل مع لين. ولدينا شعائرنا الخاصة. فنحنُ نأخذ حماماً معاً، ونقرأ معاً، ونشاهد التلفزيون معاً. يجب أن أتلو الصلوات في آخر مرة فعلتْ هي ذلك بنفسها نادت الله بصوتٍ طفوليّ عال، ثم أردفت بصبرٍ نافد متصاعد " ياااااا رب ! " ونظرتْ إليّ بيأسٍ وكأنَّ الخطأ خطأي، وقالت" إنه لا يُجيب ! ". الآن أنا أتلو الصلوات، وهي مستلقية في السرير مُلحدة وتظنُ أني حمقاء. لكني لا أجرؤ على انتهاز الفرص. سوف تحصل على ذلك الدعم، إذا كان مُنصِتاً.

العرضُ الأول لمسرحية " يرتانيكوس ". على خشبة المسرح أنا شخصيتان : واحدة تحاولُ أن تمثِّل، والأخرى تقفُ جانباً، تنتقدُ كل حركةٍ، كل كلمة. بل إنها أحياناً تنزلُ بين صفوف المشاهدين وتجلسُ في حجر مشاهدٍ مُرتاب، يتلقَّى بنهمٍ الأفكارَ النقدية التي يجدها هناك. هاتان الشخصيتان (وهما معاً أنا) تتشابكان معاً، تثيران اشمئزازي، وأنا أفكِّرُ جدّياً في أن أتظاهر بالإغماء حتى يُسدَل الستار.

أثناء الليل يتَّصلُ وكيلي بي هاتفياً ويقولُ لي إنَّ في إمكاني أن أغدو نجمةً عالمية، ولن يحدث هذا إذا مكثتُ في أوسلو. يقولُ إنَّ في إمكاني أن أنتقي أدواري وأختارها.

وببطء يأخذُ قراري شكلَه في الظلام. لا ادري أين يوجد العملُ الهادفُ. لا أدري حتى ما أريد بالضبط. لكني متأكِّدة من أني يجب أن أحاول أن أُجرِّب القيامَ بشيءٍ ما غير ما أقومُ به الآن.

أشعرُ أن ذلك التغيير يلوحُ في الأفق.

صوّرتُ أفلاماً في إنكلترا وفرنسا والدانمارك ورومانيا والسويد. ورافقَتني لين، زرنا بقاعاً كثيرةً من العالم. لم يعُد عقدي مع المسرح ساري المفعول. ولم يعُد في مقدوري الإشارة إلى جذوري في الوطن.

ولكن كان لديَّ بيتي الذي أحب، وكتبي وأسطواناتي، والأشجار الراتنجية في الخارج، ونبات الخلنج الذي في إمكان لين أن تجري عليه حافية القدمين، ومنزل دُماها ومئات من أزهار التوليب التي زرعناها.

وأصدقائي. والعائلة.

كان لدينا الكثير لنشتاقَ إليه من غرف الفنادق المتعددة التي ننزل فيها. وحين كنا نتلو صلواتنا في الليل كنتُ أذكرُ ذلك كلّه.

قابلنا أناساً من كل الأنواع : مشهورين وحمقى وحكماء ولطيفين وفقراء وأثرياء.

بعثتُ رسائل إلى وطني النرويج أقولُ فيها كم أنا مستمتعة بالعمل في الخارج، لكن الشكوك كانت تساورني وأنا أكتب.

ما أحلى تخيُّل نفسي وأنا في مطبخي ! أصنعُ الشاي وأقلي بيضاً. وتجلس لين على طاولتها، تُقلِّبُ في أوراق كتابٍ مُصوَّر.

جمعتُ كل النقود التي كنتُ قد ادَّخرتُها واشتريتُ قارباً شراعياً قديماً. كان يرسو في مرفأ إيطالي وأصبحَ هو جذوري الممتدة في العالم.

لم أكن أعرف كيف أُبحر وأمضيتُ أسبوعاً فظيعاً في البحر مع أحد الأصدقاء، كان كلانا خلاله مُصاباً بدوار البحر طوال الوقت. وحين كنتُ أضطرُ إلى السفر كان يعِدُ بالاعتناء بالقارب. ولم أرِ القاربَ منذ ذلك الحين - قال لي إن أحدهم سرقَه واشترى بثمنه محلاً لبيع العاديات. كتبتُ رسالةً إلى بيبي أقولُ لها إني أصبحتُ قبل الأوان هدفاً للمتوددِّين المتكسّبين.

ذات يوم أهديتُ قصيدةً جميلةً حول الحنين إلى الوطن. وكان شون كونري، الذي ألّفها، بدوره قد جابَ العالمَ مثلي، وكان يُمضي لياليه في أسرةٍ غريبة، و يحتفظُ بين أمتعته بحزمةٍ كبيرةٍ من الكتابات. كان يقرأ لي الكثير منها. حقيبة مملوءةٌ بصفائح من الورق مُجعَّدة وبعضها مُلطّخ تماماً. كُتبَتْ على قرطاسيةِ فنادق من كل أنحاء العالم. كان يحمل معه حياةً سرِّية حتى لا يكونَ غريباً على الأرض. باح لي بما يتوقُ إليه : أن تنهمرَ الحياةُ عليه بحرية، حتى إذا ما جاءتْ السعادة تجده منفتحاً عليها. إنني كثيراً ما أرى صوراً له في الصحف دائماً يكونُ في المركز، ودائماً يبتسم. آمل أن يكونَ قد حقَّقها، وجدَ لحظات السعادة، بينما النجاحُ والمالُ ينهمران عليه.

* * *

أصبحتُ نجمةً سينمائية راسخة القدم، تظهرُ لي صورٌ ومقابلات صحفية في وسائل الإعلام. أبتسمُ في صورٍ أُخذَتْ لي في عواصم لا يعرفُ أفراد عائلتي شيئاً عنها إلا من خلال الأطلس. أبتسمُ وأنا متشابكة الذراعَين مع المشاهير والحمقى والحكماء واللطيفين والأثرياء.

أصادف مواقفَ كنتُ أحسبُني لن أقتربَ منها. أسفارٌ وانطباعات ورقَّة وطيبةٌ كنتُ آمل أن تُخزَّنُ في لا وعيي إلى وقت سوء الحظ.

بعد مرور عام قمتُ بزيارة أرض الوطن. مررتُ بدار المسرح مع إحساسٍ صادقٍ بالحزن لأني لم أعُدْ أنتمي إلى هناك. تسلّلتُ إلى داخل قاعة الاستماع أثناء إجراء بروفة وجلستُ في الظلام، استمتعُ في العالم الذي كنتُ أرغبُ بقوةٍ في أن أكونَ جزءاً منه. وفي الوقت نفسه شعرتُ بقليلٍ من التكبُّر لأني كنتُ أعلمُ أنَّ ما أشهده الآن أُعِدَّ من أجل إلقاء الأبيات التي لا أتلوها على خشبة ذلك المسرح.

في المنزل أمضي ساعات طويلة في المطبخ، أُعِدُّ الأطباقَ التي اخترعتُها من مُخيّلتي أثناء تناولي الوجبات في المطعم.

حلقةُ الخياطة والأصدقاء - والعائلة.

كل شيء تقريباً ظلَّ كما كان - ولكن في الوقت نفسه كل شيء بالنسبة إلينا تغيَّر : في علاقاتنا مع بعضنا بعضاً وفي الحياة التي نعيش.

لقد أقمتُ فوق جزيرة، وجبتُ العالم. من نافذتي كنتُ أشاهدُ الأشجارَ ونبات العنبيّة ينمو على الأرض التي كانت ملكي وأشعرُ بمتعةِ التملُّك.

شعرتُ براحة البال. راقبتُ لين وهي تلعبُ مع أطفالٍ آخرين وأدركتُ أنها سعيدة.

وابتسمتُ.

حين كانت لين ما تزالُ مولودة حديثاً وقفتُ خلفَ شجرةٍ ورحتُ أنظرُ بحسدٍ إلى مُربّيةٍ كانت مارّةً بصُحبة طفلتي الموضوعة في عربة أطفال كبيرة زرقاء اللون. خشيتُ أن أسبِّبَ لها الإهانة إذا ما طلبتُ منها أن تدعني أدفع العربة بنفسي. خاصةً وأنَّ ذلك كان أول عملٍ تمارسه، وحين وضعتُ طفلتي أخيراً كانت عندئذٍ قد أمضتْ معي فترةَ أسبوعَين.

تأخَّرَ مجيء لين أربعة عشر يوماً وطوال الوقت، ليلاً ونهاراً، كنت أتلقَّى مكالمات ٍهاتفية من محطة التلفزيون، حيث كان طاقمٌ كاملٌ ينتظرُ وصول طفلي حتى يتمكنون من البدء بإجراء البروفات على مسرحيةٍ كنتُ قد قبِلتُ بتهورٍّ التمثيل فيها قبلها بأشهر.

الأسابيع القليلة الأخيرة أمضيتُها وأنا أُخفي ذنباً، وأخشى من غضب الجميع مني.

حين وصلت طفلتي في آخر الأمر، تنازعتها تقريباً أيدي الجدَّات والأقارب والممرضات المنتظرين. لم أجرؤ على القول إني أفضِّل أن أعتني بها بنفسي. أثناء الليل فقط كانت لي وحدي.

كلبتي " بت " نظرتْ إلى لين بحزن وتمدَّدَتْ تحت الأريكة ولم تخرج إلا بعد أن طمأنتُها إلى أني سأحملها بين ذراعيّ وأحكُّ لها بطنها طوال فترة عنايتي بطفلتي.

وتخيَّلتُ أنَّ الكلبة متألِّمة جداً حتى إني شعرتُ بأنَّ عليَّ أن أُظهِرَ حباً متواصلاً بأن أصحبها وحدها في نزهةٍ بينما تخرج المربِّية مع لين.

إنَّ مَنْ يخشون جرح مشاعر كلبة دشهُند سوف يتورَّطُون في المشاكل، هذا ما فكَّرتُ فيه أثناء وقوفي مع الكلبة خلف شجرة نراقبُ مرور طفلتي المولودة حديثاً.

كان يمكن لذاك اليوم أن يكون أشد أيامي بعثاً للفخر.

أمضيتُ ساعات طويلة منغمسة كليّاً فيما أظنُّ أنَّ الآخرين يودّون رؤيتي أقومُ به. إنَّ الخوف من تسبيب الأذى ؛ من النفوذ، والحاجة إلى الحب، وَضَعَتني في أشدّ المواقف صعوبة. لقد كَبَتُّ رغباتي وأمنياتي وقمتُ، بدافع لهفتي لإرضاء الآخرين، بكل ما حسبتُ أنه مطلوبٌ مني.

* * *

أذكُرُ قلعةً في سورينتو، وجدتُني وحيدةً فيها، تكتنفني أسوارٌ حجريّة رطبة باردة. حدثَ ذلك حين كنتُ أعيشُ مع انغمار. وكان العمدةُ قد دعانا إلى حضور مهرجان أفلام محليّ ووضعَ سيارته الليموزين الفخمة تحت تصرُّفنا.

وكالمعتاد، ذهبتُ قبله بيوم مع كل الأمتعة، وكان عليَّ أن أنتقل إلى القلعة وحدي. ولم يحضر انغمار أبداً. ظلَّ على الجزيرة يكتبُ سيناريو فيلم، وتعلَّلَ بأنه أُصيبَ بالتهابٍ في الأُذُن. وكنتُ قد توقَّعتُ أنَّ هذا سيحدث، ولكن حين أردتُ أن أحجزَ غرفةً في فندقٍ ينزلُ فيه بقية المشاركين في المهرجان، أقنعوني بألاّ أفعل: فطوال فترة مكوثي في القلعة كان انغمار موجوداً رسمياً أيضاً هناك، أو على الأقلّ في طريقه إلى المكان. لقد كنتُ الأضحية التي تُقدَّمُ تجنُّباً لفضيحة امتناع ضيف الشرف عن الحضور.

أنا التي في طفولتي نمتُ في مغطس الحمَّام لأنه كان المكان الوحيد الصغير بما يكفي ليُشعرني بالأمان، باتَ عندي الآن غرفة نومٍ بحجم محطَّة قطار. في الأسفل، في الطابق الأول، ثمة مساحات شاسعة، يلفُّها الصمت، وأروقةٌ لا نهاية لها تُزيِّنُ جدرانها الدروع والشمعدانات.

السرير يقومُ في منتصف الطابق، وأنا أرقدُ عليه وأرتجف. أسمعُ على البُعد ضحكاً وغناءً ينبعثان من الفندق.

أردتُ أن أهربَ، لكني لم أجرؤ على المغامرة بنزول ذلك الدَرَج المُظلم. ورفضَ أيٌ من الأبواب أن يوصَد؛ وكانت الجدرانُ تصرُّ وساعةُ حائط جدّي تدقُّ كل خمس عشرة دقيقة.

ولم أُصدِّق أني سأخرجُ من تلك الليلة حيَّةً، ومع ذلك ففي كل

صباح كنتُ أوزِّعُ ابتساماتي على موظَّفيِّ المهرجان وأقولُ لهم إني نمتُ نوماً عميقاً.

أخشى أن أُزعج الآخرين ؛ أخشى أن أؤذي مشاعرهم ؛ أخشى أن أُدمِّرَ تنكُّري كفتاةٍ مُهذَّبة.

* * *

آخر رحلة قمتُ بها مع زوجي، ياب، كانت إلى بولندا. وصلنا إلى منتجع جبليّ، حيثُ يتسلّى الضيوف بمشاهدة الرقص الشعبي. ومع تقدُّم الأمسية يبدأ المشاهدون بالانضمام إلى الرقص على إيقاع الراقصين المحترفين، ويصفعون أعقابَ أقدامهم بأكُفِّهم مثلهم. وضحكَ زوجي واحمرَّ وجهه ورفسَ بقدميه أعلى من أي شخصٍ آخر. جلستُ بأمان في إحدى الزوايا أُراقبُ.

هتفَتْ بيبي التي كانت قد حَضَرَتْ معنا، " الآن جاء دورك في الرقص يا ليف "، وهتفَ ياب " هيا، ارقصي ! "

ورحتُ أجرعُ كأسَ فودكا بعد آخر حتى أكتسب الشجاعةَ ,وتعرَّقَ كفَّاي من شدة الخوف، لعِلمي أنَّ الجميع ينتظر نزولي إلى الحلبة.

غادرتُ أمانَ ركني، وسمحتُ لأحد الراقصين أن يُحيطَ خصري بذراعه، وفي اللحظة التالية حملَتنا الموسيقى معاً وانسابتْ. ولبرهةٍ من الوقت دارت بي الغرفةُ ودارتْ، ورحتُ أقهقه لأني شعرتُ كأني أطفو معها.

استطعتُ أن أسمعَ عن بُعدٍ ضحكات زوجي وهو يقولُ لبيبي "انظري إلى ليف ! إنها أشبه بفيلٍ يرقصُ البولكا "

كفَّتْ الغرفة عن الدوران، ورأيتُ الوجوهَ تلتفتُ نحوي وتضحك،

فـانـدفـعتُ أشُقُّ صـفـوفـهـم وأتحـرَّرُ منـهم لأهرعَ إلى قلب الليل. ركـضتُ وركضتُ إلى أنْ عثرتُ على مرجٍ استطعتُ أن أستلقي على عشبِه الذي كان طويلاً بما يكفي ليُخفيني عن عيون باقي العالم. بقيتُ مستلقيةً هناك ولم يفتقد غيابي أحدٌ ؛ لم يأتِ أحدٌ ليفتِّشَ عني.

بعد مرور ساعات عديدة ذهبتُ لآوي إلى السرير.

ظلَّ فيلٌ تعِس يبكي حتى نامَ، شاعراً أنه لا يمكن أن يستمرَّ في الحياة.

جميلٌ أن أرمي خلفي الرغبةَ في المشاركة بنمطِ حياةِ المُحيطينَ بي، وأتوصَّل إلى معرفةٍ أفضل لنفسي، وأفهم عِلَّةَ حاجاتي ؛ أن أُدرِكَ بوضوحٍ أكبر دوافع الآخرين وأتعرَّف على خوفي وانعدام إحساسي بالأمان بها.

كانوا أربعة رجالٍ ماكرين انتقلوا إلى غرفة جلوسي ليقضوا فيها أسبوعاً مع كاميراتهم، وأضوائهم، وآلات تسجيلهم وأفكارهم الجاهزة.

لقد كنتُ مشهورةً وبصدد تخليدي في " صورة شخصية "، فرحَّبتُ بهم وأخجلوا تواضعي. كان لديَّ الكثير لأقوله، ورأيتُ أني قد وصلتُ إلى مرحلةٍ متقدِّمةٍ بحيث تكون لي الشجاعة للبوحِ بمعتقداتي.

بعد مغادرتهم وقفتُ على الدرج أُلوِّحُ لهم مودِّعةً، لكني من الداخل شعرتُ بالمذلَّة، وبأني حمقاء قليلاً ووحيدة.

من جديد عادتْ غرفة الجلوس لتخصَّني وحدي. لم أعُد بحاجةٍ إلى أنْ أحذِّر لين كي تنتبه لكل الأسلاك والمناصب الثلاثية القوائم التي ظلّتْ طوال ستة أيام مُنتشرةً في كل مكان مع توجيهاتٍ صارمةٍ ضد لمس أي شيءٍ بعد مغادرة الرجال كل مساء إلى فندقهم.

لم يتَّصِلوا قط بي هاتفياً ليشكروني، وتساءلتُ لماذا يجتاحني إحساسٌ بأنهم قد آذوا مشاعري.

قال مدير المقابلة " نأملُ في أن تكوني فكهةً جداً ". كان مهتماً بأسباب قلقه الخاصة وتكلَّمَ في أغلب الوقت عن الوحدة. وبكى حين حكيتُ له عن وحدتي. لكنَّ الكاميرا لم تكن موجَّهةً نحوه.

قال المنتج، وهو يشدُّ على رأسِهِ بيديه، بعد أن تكلّمت، " لن يكون هذا مثيراً كفاية "

استعارَ مهندس الصوت سريري لمدة ساعة. كان متوعكاً قليلاً ولم ينَل قسطاً كافياً من النوم في الفندق - كحالهم جميعاً. ثم إنهم كانوا يشتاقون إلى وطنهم.

أحياناً كان المصوِّر يبتسم لي وكأنما ليُشيرَ إلى أنه لم يتوقَّع أبداً أن يُحقِّق كل هذا نجاحاً ساحقاً، وأنه مرتاح تماماً.

وماذا عني ؟ لقد اختارت مربية لين أول يوم من إجراء المقابلة لتُعطي إشعاراً بالرحيل. ولم أكن أدرس كيف أحصل على بديلةٍ لها. والرجل الذي كنتُ أعيشُ معه كان على بُعد مئات الأميال وكانت حياته زاخرةً بالمشاكل، وكنتُ أنا أفدح تلك المشاكل.

* * *

أردتُ أن أشرح لمدير المقابلة أنَّ في مقدوري بحقّ أن أضحك. ولكن حين أصبحتْ أسئلته جادَّةً جداً، وصوته حزيناً جداً، وحين أخذ أيضاً يذرف الدمع في أغلب الوقت، لم يكن من السهل عليَّ أن أُقدِّم شيئاً فكهاً.

ولكن حين كانوا يديرون الكاميرا نحوه ويُكرِّرُ أسئلته كان يتكلَّمُ بخفّةٍ وسلاسةٍ وتشعُّ عيناه بالذكاء، ولا يظهر عليه أي أثر للحزن.

كنتُ آمل في إجراء حوار، وأرادَ هو مفاجأةً ذاتيّةً : أفكاري الخاصة وآرائي. ولكن ما قلته كان يُفتَرَض أن يتطابق والصورة التي رغبَ في تقديمها عني.

الأربعة كلّهم كانوا ودودين وغادروا، بعد أَن أخذوا وجهي وصوتي وأدخلوهما في أشرطةٍ مصوَّرة ومُسجّلة، تاركين مساحة فارغة في بيتي.

أفسحوا لي المجال للتعبير عَلَناً عن حزنٍ وتوق. صوَّروا منزلي وطفلتي وكُتُبي - وبهذا خَلَقوا لديَّ خوفاً، ذهبوا وتركوه معي.

يقول لها إنَّ روحها نجدٌ جبليٌّ واسعٌ يأتي فجأةً بعده وادٍ سحيق مُظلم لا يقوى على النظر فيه.

لم يفهم قط رغبتَها القوية في أن تفتح حياتها أمامه.

الوادي السحيق الوحيد الذي تعي وجوده في روحها هو ذاك الذي يؤوي خوفها ووحدتها وهي بدونه. وتبكي وتتمنَّى منه أن يطأ النجد الجبليَّ الواسع.

إنَّ لديه جدولَ مواعيد وعليه الالتزام به، وحين يشعرُ بالسعادة وهو معها ينتابه إحساسٌ بالذنب. يجب أن يعودَ إلى منزله حيث زوجته وأولاده ووجبة العشاء، لعلَّه يجدُ لديهم متعةً أكبر لأنها توفِّرُ له السكينة التي يحتاج.

والمرأةُ ذات النجد الجبلي الواسع والوادي السحيق تبتاعُ كتاباً وتتوجَّه إلى منزلها لتُلازم الهاتف.

يده هي اليد الوحيدة التي ترغبُ في الإمساك بها وتودُّ لو أنَّ أمراً ما يقعُ وتتمكَّنُ بحقّ من العثور على يدٍ جديدة قبل أن تغرق.

لكنها أيضاً تعرفُ أنه حين يأتي اليوم الذي تعثُر فيه على رجلٍ آخر، سيكونُ عليها أن تعمد إلى بتر الحياة التي في داخلها، وتعانق

وكـأنما للمـرة الأولى - لتُـبرهِنَ من خـلال جـسدهـا المُخلص المسكين على أنها بارتباطها بشخصٍ آخر تنسى الرجلَ الذي أحبته.

وتعرفُ أنها بعد ذلك سوف تعودُ إلى صوابها مرات عديدة، كثيرة. ربما طوال حياتها، وتشتاقُ إليه. سوف تأسى على ما كانَ يجمعُ بينهما.

حيث كان لها، كانا يسافران إلى بلدٍ دافئ. وتمسك بيده وهو يقرأ، وتشعر بالسكينة لأنَّ كل شيء على ما يُرام. ويمكنها أن تتحمَّل معرفتها أنَّ هناك فترات طويلة لا يُفكِّر فيـها خلالها. لكنها أيضاً تعرفُ أنَّ اليدَ التي ترتاحُ في يدها سوف تضغطُ قريباً عليها بقوة وسرعة ليُبيِّن لها أنه يشعرُ بوجودها.

أحياناً يلتفتُ وينظر إليـها بسعـادة، ومرة كل فترة طويلة ترى قلقاً في عـينيه، وعندئذٍ تعـرف أنـه يُفكِّرُ في زوجتـه وأولاده وتدرك بـجلاء صافٍ أنه في وقتٍ واحد يحبها وسيتركها.

كان كأنه يقرأ أفكارها، فيضعُ كتابه جانباً، ويكذب عليها بكل وضوح " لا أستطيع أن أعيشَ بدونك "

وتُصدِّقَه إلى أنْ يستغرقَ في النوم، وهو يضمها إليه.

وتعرفُ حين يستيقظ أنَّ إحساسه بالذنب سوف يوقظُ حاجته إلى الأمان والنظام، وولاءه إلى إحساسه بالمسؤولية، إلى ما يُدينُ به للأخرى. رجلٌ محبوب.

أتيتُ إلى هوليوود ومعي حقيبةٌ مُعدَّة لقضاء عشرة أيام. كنتُ قد دُعيتُ إلى افتتاح فيلم " المهاجرون ". وبقيتُ فيها أَشهراً عديدة.

أُمطِرَتْ ممثلةٌ مذهولةٌ قادمةٌ من تروندهيم بوابلٍ من الهدايا. وقابلها الناسُ بالابتسامات وبعبارات الترحيب، وفتحوا لها منازلهم، وقطفوا الثمارَ من أشجارهم ووضعوها بين يديّ طفلتي.

باشرتُ العملَ، وانتقلنا لين وأنا إلى منزل مترامي الأطراف يحتوي على خمسة حمامات وبركة للسباحة وكوخٍ مُخصَّصٍ للضيوف ؛ وكتبتُ رسائلَ إلى أصدقاءَ أقول فيها إنَّ الناسَ هنا مجانين لا محالة. لكنَّ الأمرَ ممتع. وكان حمَّامي الخاص بحجم شقةٍ عاديةٍ في أوسلو. كان من الرحابة بحيث أنَّ المرحاضَ كان أشبه بكرسي عرش لكي يجلس عليه المرءُ بدون أي إحساس بالإحراج لأنه نجمٌ سينمائيٌ حين تناديه الطبيعة.

قال لي أحدُ المُنتجين " يجب أن تقصّي شعرك "

" كلا ! "

" سأجعلُ منكِ أكبرَ نجمةٍ فقط لو تُغيِّرين قليلاً من هندامك "

" أنا معتادة على هندامي هذا "

" ربما يجب أن تزيدي من مساحيق التجميل. أرسلي فاتورة المُزيِّن لي وأنا سأسدِّدها "

" لن أفعلَ حتماً "

بعد ذلك تركوني وشأني. كنتُ في الحقيقة أستمتعُ بمركزي كممثلة، وكان لروحي عمقٌ، وكنتُ أوروبيّة. لم أكنْ أستخدم مساحيق التجميل، وكنتُ قادمةً من النرويج.

قوبلتُ بكرمٍ، ووجدتُ أصدقاءَ ومعارفَ، سبحتُ في برك للسباحة مياهها ساخنة، وجلستُ على كراسٍ وثيرةٍ أشاهدُ أفلاماً في غُرَفِ عرضٍ خاصة، ومشيتُ على طول شواطئ بحريةٍ رملية.

وقفتُ على مرجِ منزلي في الصباح أنظرُ شذراً إلى الشمس، ثم توجَّهتُ إلى الاستديو قبل أن يستيقظَ معظمُ الناس - في الساعة الخامسة والنصف، حين يلتقي أفضل أوقات النهار والليل.

بينما أنا جالسةٌ على كرسي اختصاصي التجميل رحنا نُثرثرُ. أعطاني نصيحةً جيدةً تفيدني في حياتي الجديدة وكان دائماً يُحيط بي، وكأنما يريدُ أن يتأكَّد من أني لا أُصادفُ صعوبات. كان منذ سنين عديدة حتى قبل أن أولدَ، ينحني فوقَ الوجوه ذات الشهرة العالمية، يُغطيها بأنواعِ الكريم وأحمر الشِفاه والبودرة. وأجسادٌ لنساءٍ كنَّ محطَّ أعذب أحلام الرجال في كل أرجاء العالم تراخَتْ هنا وهي ترتدي أثواباً سائبةً، تستمتعُ بلحظاتٍ من الحرية قبل أن تؤخَذ إلى خزائن الملابس لتُشَدَّ بالأربطة وتُحشى في الأماكن المناسبة.

قال لي اختصاصيُّ التجميل " الحياةُ قصيرةٌ جداً، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يُقنعني بالتخلّي عن شيءٍ اليوم لصالح احتمالاتٍ تخصُّ الغد، أو لوعودٍ مستقبليّة ". كان عنقُهُ ويداه مُغطّاة بالسلاسل والتمائم، وكانت تصدُرُ عنه القرقعات المرحة وهو يتحرَّكُ. كان يعتمرُ قلنسوةً صغيرةً ليُخفي بها صلعه.

همسَ في أذني " تألّقي "، قُبيلَ توجُّهي إلى الأضواء والحرارة وآلات التصوير. " هذا ما كانتْ تُردِّده والدة شيرلي تمبل دائماً على مسمعِ ابنتها الصغيرة ".

أمضيتُ بضعة أشهرٍ في هوليوود وحاولتُ أن أتألّق. وحين كان يحتجُّ شيءٌ في داخلي، كنتُ أُمنِّي نفسي بأني قريباً سأعودُ إلى أرض الوطن. كنتُ أصبو إلى تصوير فيلمٍ على الجزيرة في السويد، والعيش مع أصدقاء قُدامى في أكواخٍ صينيّةٍ بدائيّةٍ حيثُ لا مياهَ ساخنةً ولا طاقة كهربائية. والسير مئات الأميال لبلوغ بيت الخلاء، مهما كانت الأحوال الجوية. وهناك أجلسُ وأشاهدُ البحرَ من خلال الشقوق التي في الجدار، وأشعرُ بطيبِ الحياة.

يحدثُ هذا حين تقضي حياتك المهنيّة متتوجِّهاً في يوم إلى هوليوود وفي اليوم التالي إلى جزيرةٍ قاحلة في بحر البلطيق.

أَصبحَ من الصعوبةِ بمكان أنْ أسيرَ في الشوارع بدون أن يتعرَّفَ عليَّ أحد. ويقتربُ مني أشخاصٌ غرباء ويقول واحدهم " عفواً. ألستِ ليف أولمن ؟ "، ويعودُ إليَّ حيائي القديم، ويُربكني أيَّما إرباك، غير أنه اليوم باتَ ممزوجاً بانفعالاتٍ أخرى أكثر تعقيداً. وأردُّ على عباراتِ المديح بالإنصات والابتسام، أُنصِتُ ومن ثم أبتعد، جزئياً لأردعَ نفسي عن الاستسلام للتقريظ.

لم أكن قد حقَّقتُ أي شيءٍ رائعٍ في ذاتي، لكني اكتسبتُ خِبرةً وفهماً. وكفَّ ضميري، أحياناً، عن تبكيتي بسبب كل ما لم أفعله ولم أعرفه. صرتُ أجدُ متعةً في مقدرتي المكتشفة حديثاً على اتخاذ قراراتي (حتى عندما تكونُ سيئة)، وأبتهجُ بقيامي بعملي، بغضبي، ببكائي، بضحكي، بالعيش.

وجدتُ متعةً بسماحي لنفسي أن تكونَ على سجيتها، إيجاباً أو سلباً.

لم أتغيَّر بفعل أي أعجوبة. لم تكن حياتي سعادة متواصلة، وغالباً ما تملَّكَني الخوف.

إلا أني كنتُ أكثر ثراءً من الداخل ؛ كنتُ أكثر تواؤماً مع ذاتي.

أمـا الأمـر الصـعب فـكان صـراعـي ضـد كـل مـا يُحـيطُ بي، بعض الكتب، برامج التلفزيون، الأفلام، الصحف - وفي كل يوم تصرخُ وسائل الإعـلام مُعلنةً عن مكوِّنات الإنسـان السـعيـد، واعـدةً بكل مـا هو ضخم ومنتصر.

جلستُ هناك مع سعادتي الصغيرة البسيطة، قانعةً بما لديَّ. إلى أنْ اتضحَ لي أنَّ الحبَّ، مثلاً، الذي يُعبَّر عنه بالغناء وبالكتابة وبالرسم، كان أكبر بكثير مما حظيتُ به منه.

أحياناً كان ينتابني الخوفُ فأستيقظُ وأصرخُ في الليل، لأنَّه مهما كان ما وصلتُ إليه - أو في كل مرة أظنُّ أني أنجزتُ شيئاً ما - يهتفون قائلين إنَّ ثمة ما هو أفضل يمكن تحقيقه.

لكني طوال الوقت كنتُ أصـارعُ لأتمكَّنَ من أن أرتاحَ في مـا هو ملكي، أنْ أستـمتعَ بأطيب وأدفأ المشـاعر الآنيّة، وأن أتجنَّب التفكير طوال الوقت، أه، يا إلهي، إنَّ هذا غير كاف.

العديد من أحلامي لم يتحقَّق أبداً، لكني اكتشفتُ مـا لم أحلم به قط : أنَّ الواقعَ يمكن أن يكونَ رائعاً حتى عندما لا تكون الحياة كذلك.

* * *

بدأتْ يدايَ ترتعشان ؛ أحيـاناً أضطرّ إلى الإمسـاك بكلتـا يديّ. وفي السـابق كان في مقدوري أن أنامَ في أي مكانٍ وفي أي وقت، أمـا الآن فغالباً ما أبقى مستيقظة وأنا في فراشي.

فوجئتُ بأني أمرُّ مرورَ الكرام بموقفٍ أصيلٍ بدون أن أتوقَّف وأصبح جزءاً منه، ومن ثم أُعيد تقديم الموقف نفسه على الشاشة بكل تعاطفي.

كنتُ حين أقـابلُ رجـلاً ثملاً في الشـارع أتبعـه - ليس لأقـدِّمَ له يد

المساعدة، بل لأدرسَ طريقةَ سيرِه، وكيف تتدلّى ذراعاه متراخيتَين على جنبيه.

كان الآخرون مواد أقابلهم وأستغلّهم لأغراضٍ مهنيّة.

مسحتُ الدموعَ عن عينيّ الشخصيّة التي كنتُ أُجسِّدها وسرتُ كالعمياء مارّةً بالدموع في منزلي.

آه، نعم، رأيتُ الأخطار. وتردَّدت.

قابلتُ رجلاً رياضياً كان قد وصلَ إلى القمة. سمعته يتحدَّثُ عن رقمه القياسي في السباق عندما كان الفرقُ بينه وبين المتسابق التالي من أعشار الثانية. بماذا ضحّى من أجل تلك اللحظات ؟ ماذا كان شكل الجانب الآخر من ميداليته ؟ ألمْ يدفع ثمن ثواني انتصاره القليلة أياماً وشهوراً وسنين كان خلالها يقول لا لكلّ شيءٍ آخر ؟

ألهذا الغرض كنتُ أستغلُّ حريتي المُكتَسَبَة حديثاً ؟

حزمتُ أمتعتي وتوجَّهتُ إلى الوطن إلى أوسلو، ووقَّعتُ عقداً مع المسرح النرويجي. وأخيراً أصبحتْ لي صِلة مِهنيّة مع النرويج من جديد.

كنتُ أشبه بتمثالٍ على مُقدَّم سفينةٍ عتيقة، أقفُ وِقفَةً تبدو في الظاهر شديدةَ الفخر على مُقدَّم السفينة تشقُّ الأمواج وتُحدِّقُ أمامها، بينما كامل جسدها مُلتصقٌ تماماً، بشكلٍ منحرف، بالسفينة التي تنتمي إليها.

لقد تعلّمتُ شيئاً واحداً :

أنَّ الزوجَ بالنسبةِ إلى المرأة هو نوعٌ من الحجّة، بغضّ النظر عما يبدو عليه الأمر في السر.

قد يكونُ بديناً وغبياً وعجوزاً، ومع ذلك ففي إمكانه أن يدين جسم المرأة المترهِّل ووصولها إلى سن اليأس، ولا يُقابَلُ إلا بالعطف إذا ما استبدلها بأخرى أصغر سناً. ينطبقُ هذا على الحياة المهنيّة. وينطبق أيضاً على الحياة الخاصة.

عشتُ فترات من الحياة في الوضع المُعرَّض للانتقاد الذي على المرأة، عزباء كانت أم مُطلّقة، أن تتواءم معه. كنتُ المرأةَ التي يعرفُ الجميعُ أنه " ليس لها أحد ".

يمكن للرجل أن يذهبَ إلى المطعم وحده في المساء ؛ أما أنا فلا أستطيع، وذلك بدون أن أعرِّضَ نفسي : ١- للانتقاد. ٢ - لأنَّ يُعْرَضَ عليَّ الذهاب برفقة ذكَرٍ لا يُثير اهتمامي. ٣ - للشفقة.

لدى مناقشةِ أمرِ الأجر، طلبتُ الحصولَ على ما يحصلُ عليه زميلي الذكَر على قدم المساواة. وعلى الرغم من أننا كنا موجودين في المسرح لعددٍ متساوٍ من السنين، قيلَ لي إنه يجب أن يحصلَ على أكثر مما

أحصل عليه لأنه يُعيلُ عائلة. أما أنا، التي كنتُ أتكفَّلُ بمسؤوليات طفلة ومنزل، فلا تشملني هذه الفئة، لأني امرأة.

إنني مورد رزق عائلتي، لكني لا أحظى بمساعدة مجانية في منزلي وأنا بهيئة زوجة، كما يحظى هو.

في إجراءات الطلاق، غالباً ما يكونُ للزوج الخيار.

المرأة خُلِقَتْ لتشعرَ بالذنب إذا ما أرادت أو احتاجت إلى العمل وتركَتْ أمرَ رعاية طفلها للآخرين، فلأنها امرأة يحتاجها الطفلُ في المنزل، ولأنه رجل، فمن الطبيعي أن يولي مهنته أولويّة عنايته.

حين لا يتزوج الرجل والمرأة، تكونُ هي أمّاً لطفلٍ غير شرعي.

على كتفيها تقعُ المسؤولية. عليها أن تعدّ ثماني عشرة سنة من حياتها لتتوافق مع ما هو أفضل للطفل. وعليها أن ترفضَ العملَ والتواصُل مع بقية الناس بما أنها لا تستطيع الحصول على المساعدة. عليها أن تدير أمور المنزل وأن تعود في الوقت المُحدَّد لأنها تعلم أنَّ مَنْ تقوم على مساعدتها سوف تغادرها إذا شعرت أنها تتعرَّض للاستغلال.

أنظُرُ إلى ما خُصِّصَ لي وأتساءلُ ماذا تفعلُ النسوةُ اللواتي لا يتمكنَّ من إعالة أطفالهنَّ بأنفسهنَّ، بل عليهنَّ أن يعتمدنَ على ما يرى الرجل أنه إعالة معقولة.

لديَّ صديقات لم يُغادرن المنزل في المساء طوال عامٍ كامل، لأنهنَّ مُرهقات بالمسؤوليّة المزدوجة : الاندفاع للمحافظة على جدول المواعيد، والإحساس بعُقدة الذنب، وقِلّة النوم. إنهنَّ يكبُتنَ حاجتهنَّ إلى الاتصال العاطفي بغير أطفالهنَّ وحتى وقتٍ لاحقٍ في المستقبل، وعندئذٍ يتمكَّنَّ من أخذْ قسطهنَّ من النوم، والراحة، ويقضينَ يوماً كاملاً لأنفسهنَّ.

ولكن، لحُسن الحظ، الأمَّ المتوحِّدة تحظى بالقُبَل، بالنقود الموضوعة على وسادتها، بالأسرار، بالدفء الجسدي، وبالمسؤولية. وهي في كل يوم تتعلَّقُ بالطفل. ومن الناحية الاقتصادية لها ميزةٌ أبديّة على الرجل.

توقَّفتُ عن تلبية الدعوات التي لا تُرى فيها النساءُ إلا كذيول للرجل، وأنا لا شيء لأني عزباء. ولكن لم يعد ذلك يزعجني، فتلك التجمُّعات التي لا يتساوى فيها جنسي في القيمة مع جنس الرجل يمكنني الاستغناء عنها.

أن أكونَ امرأةً يعني أن احصل على الحاجات نفسها والأشواق التي للرجل.

إننا بحاجةٍ إلى الحب ونرغبُ في منحه.

ليتنا فقط جميعاً نتقبَّلُ أنه لا فرقَ بيننا في القيَم الإنسانية، مهما كان جنسنا، ومهما كان نوع الحياة التي اخترنا أن نعيشها.

أنا أيضاً مررتُ بفترات العادة الشهرية وبمرحلة سن اليأس؛ وانتابني الرعبُ من ارتخاء ثدييّ، ووعيتُ للبنت الصغيرة التي هي أنا وقد تغيَّرتْ ملامحها إلى الأبد.

أما هو فلديه مستقبله المهني ومصاعب العمل وخوفه من الإصابة بالصَلَع ومن العِنَّة والشكوك التي تراوده، وفقدانه الإحساس بالأمان منذ أن بلغَ الثالثة عشرة.

نحنُ معاً لدينا متاعبنا. لا أحد منا يُشكِّلُ خَطَراً على الآخر أو يُهدِّده - ليس حين يشعرُ كلٌّ منا أنه في حاجة إلى الآخر.

في نهاية عام ١٩٧٢ نشرتْ مجلةٌ سينمائية أميركية مقالةً طويلةً عني، وقد كُتِبَ تحت وجهي المبتسم : " قصة شخصية ناجحة ".
وإليك أَحداث أسبوعٍ انتُقيَ لا على التعيين من تلك الفترة :

من يوميات شخصية ناجحة.

الاثنين:

في هوليوود يمكن أن تقع أغرب الأحداث قاطبةً. يمكن لامرأة أن تغدو نجمةً سينمائية بين ليلةٍ وضحاها. يمكن أن تظهر فجأةً على عتبة دارها المجوهرات والفراء. ولكن أعتقد أنه لا أحد غيري يملك تسعَ أشجار عيد ميلاد.

واحدة للين، لكنها ذاهبة إلى الوطن عند جدَّتها وأقربائها وإلى عيد ميلاد ناصع البياض في النرويج.

الأصدقاء جالسون على الأرض في ردهة الفندق الذي أنزل فيه يزيّنون شجرةً ستكون في انتظاري لدى عودتي من مرافقة لين إلى المطار. اشتروا كرات ملوَّنة وخيوطاً طويلةً مُعلَّقة منها أعلامٌ سويدية.

وهذا خطأ مألوف في هوليوود، حيث يظنّون أنَّ النرويج هي مقاطعةٌ في البلاد الاسكندنافية.

كان أصدقائي ينتظرون عند بابي لدى عودتي وتلقَّيتُ هداياهم الجميلة وحملتُها إلى غُرفتي التي كانوا يتصوَّرونها خاوية تبعثُ على الانقباض في القلب بعد رحيل ابنتي.

شهقوا إعجاباً، فقد وجدوا على طول الجدران وفي الزوايا أشجار ميلاد من كل شكلٍ ولون تتلألأ وتشرق بأضواءٍ فاتنةٍ صغيرة وكبيرة. بل إنَّ أحدها كان يدورُ وينشد ترانيم.

جاءني بطلٌ سينمائي شهير لتناول طعام العشاء، وأحضرَ معه شجرةَ تنّوب ضخمة مغطّاة بفضة مزيّفة ولآلئ مُقلّدة. ولسوء الحظ كان يشبه حبيبي الأول وحين أُصادفُ أمثاله تُضاء داخلي أضواء تحذير حمراء. وفي أميركا يكون الوضع صعباً جداً حين تبدأ تلك الأضواء بالومض - لأنَّ الرجال الأميركيين يقولون " أحبك " وكأنها جزءٌ من حديث عادي.

وحين يكونُ الرجل أحد المشاهير لا يمكن الاستخفاف بقوله ؛ لأنهم يتّصفون بذوات حسّاسة جداً، ويعتقدون أنَّ أفضل عروضهم هي حين يُغمِضون عيونهم المخمليّة نصف إغماضة وهم يرشفون كأساً من النبيذ ويهمسون أسطراً من أفلامٍ شاركوا في تمثيلها.

في اليومِ التالي أعلنتْ الصحف كلها أنَّ البطلَ السينمائي الشهير وأنا عاشقان.

الثلاثاء:

دُعيتُ إلى حفل عشاء عند هيو هفنر، ناشر مجلة " بلاي بوي ". وحين وصلنا كان علينا أن نمرَّ خلال عِدَّة بوابات كهربائية مزوَّدةٍ

بكاميرات شبكة تلفزيون داخلية. وتلتقطُ صوَراً لكل مَنْ يمرُّ خلالها لتظهرَ على شاشةٍ موجودةٍ في غرفة الحرّاس، يُدقِّق النظرَ فيها ثلاثة من التحريين الخاصين مُدجَّجين بالمسدسات. وكانت قد تمَّت عدة محاولات للسرقة ولأعمال العُنف. وكانت قد ارتُكِبَتْ قبل ذلك بأسابيع قليلة فقط وفي ذلك الحي بالذات جرائمُ وحشية، والغرضُ أو الدافعُ الوحيد لذلك هو متعة القاتل في قتلِ أولئك الذين، حسب رأيه، هم فاحشو الثراء والنجاح.

ملكُ البلاي بوي يرتدي بيجاما من نسيجٍ وَبَريّ. وثمة فتيات يتجوّلنَ وقد ثبّتنَ على رؤوسهنَّ آذان أرانب طويلة، وعلى مؤخّراتهنَّ ثُبِتت أذيالٌ صغيرةٌ مستديرة.

رحنا نُشاهدُ بعض الأفلام : كلبٌ يمارسُ الجنسَ مع فتاة. تذكّرتُ " بت " وتمنَّيتُ ألاّ تكتشف ما أفعله.

بعد ذلك جلسنا في مجموعاتٍ صغيرةٍ، لا ندري عمّا نتحدث لأنَّ مُضيفنا نائم على الأريكة وبقيتُنا لا يعرفُ أحدهم الآخر معرفةً وثيقة. وعَرَضَتْ الفتيات- الأرانب على بعض الضيوف التفرُّجَ على أرجاء المنزل.

رحتُ أتمشّى في الأرض المحيطة بالمنزل. وجدتُ جبلاً صناعياً في الحديقة. يوجد داخله كهفٌ صناعيٌّ محفورٌ تحت الأرض تصطخبُ فيه أمواجُ دافئةٌ مُدوِّمة. وثمة شخصان يقومان بعملٍ ما في المياه تحت الأضواء الكاشفة الحمراء والزرقاء.

الأربعاء:

يوم عمل طويل. في الصباح الباكر قمتُ ببروفة ثوب من أجل فيلم " ٤٠ قيراطاً "، بعد رحلةٍ طويلةٍ جداً بالسيارة مع سائق كان يقومُ بأدوار

راعي بقر بدون أن يدري أنه طوال الوقت كان يقرقع بأسنانه الصناعية في فمه.

فيما بعد كان هناك تدريبٌ على التزلُّج على الجليد ,وتبعني عشرة رجال، يترأسهم المخرج، والمصوِّر، والمنتج، ليروا ما يمكنني عمله. وعلى الرغم من أنه من المقصود في الفيلم أن أبدو خرقاء ويعوزني التدريب (كما هو مُنتظَر من امرأةٍ في الأربعين)، إلا أنهم كانوا يريدون أن يتحقَّقوا مما إذا كان في استطاعتي حتى أن أقفَ على قدَميّ.

لم أكن قد مارستُ التزلُّجَ على الجليد منذ طفولتي. أذكرُ محاولاتٍ مُخفِقَةً تماماً على مزلجتين باردتين في تروندهيم حين كنتُ خرقاءَ في الثالثة عشرة من العمر، بركبتَين وكاحلَين مرتعشين وملتويين. وتكرَّرت محاولتي أمسيةً بعد أخرى، على أمل أن أتعلَّمَ فنَّ التزلُّج - لكي أتمكَّنَ ذات يوم من أن أنسابَ خلال الليل الرقيق بمصاحبة موسيقى مُداعِبة، ويدي مشتبكة بيد جيمس ستيوارت.

والآن، بعد مرورِ سنين عديدة، فإنَّ الاختلافَ الوحيدَ الذي طرأ هو التهليل من الحضور العشرة، وسؤالهم لي إنْ كنتُ أرغبُ في ممثلةٍ بديلة.

مائدة الغداء. يجلسُ صحفي سويديّ على المرج خارج المطعم المتنقِّل في انتظاري. وبما أنه لم يكن قد قرأ صُحُفَ هذا الأسبوع، يظنُّ أني لا أزالُ أخرجُ مع البطل السينمائي الذي شوهدتُ بصُحبَتِه في الأسبوع الفائت. وأنفقتُ فُسحةَ الخمسَ عشرة دقيقة النفيسة لتناول طعام الغداء عليه، لكي لا تذكُر صحف الوطن إني أصبحتُ " متكبِّرة ".

في غرفة الطعام ينتظرني وكيلُ أعمالٍ ومنتج، ويريدان أن يتشاورا معي حول مَنْ سيكون بطلَ الفيلم التالي معي. أسعدني هذا السؤال،

على الرغم من معرفتي من أنَّ هذا كله ادِّعاءُ الغرضُ منه إسعادي. وأشكُّ في أنَّ ثمة رجلاً يحملُ عقداً موقَّعاً قد استُشيرَ بالطريقة نفسها حولي.

خلال فترة بعد الظهر جرِّبتُ بعض القبعات. وثمة حشدٌ مُشابه للذي تجمَّعَ في الصباح في مكتب المنتج ليعرفَ مني إلى أي مدى أرغبُ في أن تنزل حوافُ القبعة على جبيني. وأنا التي ليس لي ذوق ثابت في ارتداء الملابس بحيث أني أُغيِّرُ ثوبي إذا ما وجَّهَتْ ابنتي إليَّ نظرةً مُنتقِدة.

ثم هناك مقابلة صحفية. يقولون لي " لقد كنتِ حزينةً جداً في ذلك المقال الذي ظَهَرَ في صحيفة لوس أنجلوس تايمز. ألا يمكنكِ أن تُرينا الجانبَ المُسلّي لحديثك ؟ "

حضرتُ لتوي افتتاحَ أول فيلمٍ لي مثَّلتُهُ في هوليوود، ولم يُعجِبْ أحداً.

يقولون " كنتِ رائعةً " ويعانقونني.

في المساء أحضر حفلاً راقصاً. أشهر الشخصيات من الضيوف وُضِعوا على خشبة المسرح حيثُ مكان تناولهم الطعام. جلسنا هناك صفوفاً، واحداً فوق الآخر، مواجهين الصالة بحيث يراقبنا أولئك الذين دفعوا ثمنَ طعامهم ونحن نمضغُ طعامنا وليروا أننا نتجاذب أطراف الحديث ونتصرَّف كأُناسٍ بسطاء عاديين.

ماي ويست[١٢] يحملها رجلان قويّان بشعرٍ مسترسل وقميصٍ مفتوح تبدو من تحته كتلٌ من العضلات. ويهمسون لي في أذني بأنهما عاشقاها. كانت خصلات شعرها صفراء مُلولَبة مثل نازعة السدادات

الفلّينيّة، وكان وجهها مُثقلاً بمساحيق التجميل، وتضع رموش عيونٍ زائفةٍ تكادُ تنحلُّ عن مكانها. وطلبوا مني أن أقابلها. وهي أيضاً تودُّ أن تتعرَّفَ إليّ. وتصافحنا بدون أن نتفوّه بأي كلمة.

وبعد أن سرتُ مبتعدةً عنها سمعتها تهمسُ لأحد عاشقيها " مَنْ هذه بحق الجحيم ؟ "

الخميس:

أتَّصِلُ بلين في النرويج. تقولُ إنها مشغولة بمشاهدة التلفزيون، فهل لي أن أتفضَّل وأختصر. فأُخبرها عن الشجرة التي أهديتها لها. إنها كبيرة، أغصانها من الكراميل والشوكولاة، والجذع من جميع ألوان الحلوى، والشجرة بأكملها مُغطَّاة بأضواءٍ صغيرةٍ تومضُ وتومضُ وتومضُ.

في وقتٍ لاحقٍ من هذا اليوم أطيرُ إلى نيويورك. تستمرُّ الرحلةُ خمس ساعات ونصف الساعة وأنامُ طوال الوقت. وهذا بالذات ما أحبه في السفر بالطائرات : لا توجدُ مكالمات هاتفية. إنه أشبه بهِبةٍ من الوقت - وقتٌ لي وحدي.

في المطار مصوِّرون، وسيارات، وأناسٌ يجب أن أتعرَّفَ عليهم. وفي الفندق يُخصِّصون لي أفضل جناح، يزدحمُ بالزهور والفاكهة. كم أشتاقُ إلى رحيل الناس كلهم الذين لا أعرفهم من غُرفتي ! مَنْ هم ؟ ماذا يريدون ؟ ولماذا ؟

أقفُ لأطلَّ على نيويورك من الطابق الثالث عشر. أبنيةٌ شاهقة لسُكنى البشر، تكادُ تلمسُ عنان السماء. السيارات في الأسفل تتزاحمُ معهاً حتى ليتعذَّرُ رؤية الشارع.

ثم أسيرُ مُتنقِّلةً بين المساحات الشاسعة التي هي الغُرَفُ المُخصَّصة لي ؛ بيتي لبضعة أيام. على الجدار أُلصِقَتْ لائحةٌ تُرشدني إلى ما يجب أن أفعله إذا ما أردتُ أن يكونَ مقامي ممتعاً : إياكِ أن تلزمي الغرفةَ دون أن تُثبِّتي السلسلة على الباب ؛ إياكِ أن تسمحي لأي شخصٍ يدَّعي أنه جاء لإصلاح جهاز التلفزيون بالدخول ؛ وإياكِ أن تتحدَّثي مع أشخاصٍ غرباء في بهو الفندق.

أتذكَّرُ فجأةً لين. لين في حفلٍ مُخصَّصٍ للبالغين قبل رحيلها بيوم : أعطي كلَ ضيفٍ من الضيوف آلةً موسيقية، ونجلسُ على الأرض ونأخذ نغني ونعزفُ بآلاتنا ونضحك.

تسألُ لين إنْ كان في إمكانها أن تُغني وحدها، ونصمتُ جميعاً لنُفسِحَ لها المجال. وتُغني بجدّية تامة " جسر لندن يتقوَّض وينهار "

في مكانٍ ما داخلي يستيقظُ حلمٌ قديمٌ - رؤيا : صوابُ اجتماع أجيال عِدَّة من البشر في سرورٍ مشتركٍ في غرفةٍ واحدةٍ، يتبادلون المسرَّة.

عن لين في وقتٍ لاحق من تلك الأمسية : أراها من خلال زجاج الشرفة، جالسةً على الأريكة مع رجلٍ عجوز. رأسها يتحرَّكُ. لا أدري غير ظهريهما ويديها بإيماءاتهما. إنها هناك تعيشُ حياتها الخاصة.

بضع سنين أخرى وتصبح مركزاً لعالمها الخاص، كما كنتُ أنا في عالمي ذات يوم - إلى أن ولِدَتْ وأدركتُ أن رؤيتي لها تحتلُ مكاني داخلي إنما هي هِبَة.

الجمعة:

غداء عمل مع ممثلي مجلة " تايم ". دعاني كبار الهيئة الإدارية لمقابلتهم في غرفة طعامهم الخاصة جداً. يريدون أن ينشروا مقالاً رئيسياً

عني ويجب أن أخضع لامتحانٍ ليروا إنْ كانت شخصيتي من الأهمية بحيث أستحقُّ هذا الشرف. وخلال تعرُّضي لوابلِ الأسئلة والاستفزازات عبر المائدة الكبيرة المستديرة، أحاولُ أيضاً أن أتناولَ بعضَ الطعام. ما زال أمامي يومُ عمل طويل. إنهم رجالٌ صلبون، أما أنا فمجرَّد امرأة من تروندهيم.

ظلَّ مراسل من مجلة " تايم " يُلازمني طوال الأسبوعين الأخيرين خلال اشتراكي في فيلمٍ يُصوَّرُ في اليونان، ومن ثم ركبْنِ الطائرة إلى لوس أنجلوس في رحلةٍ استغرقتْ ساعاتٍ طوال - ولم أجرؤ على الاستغراق في النوم لئلا يَنفتِح فمي، فبعض الأسرار يجب أن تُحجَب عن الصحافة. وأصبحنا صديقَين حميمين وافترقنا كأخٍ وأخته بعد قضاء أسبوع في هوليوود.

الآن سمعتُ أنَّ كاتباً آخرَ سيكونُ معي في نيويورك. وأسألُ الرفيقَ الجديد لِمَ ظهَرَ فجأةً على مسرح الأحداث، فيقول لي إنَّ السببَ يعودُ إلى أنه صلبٌ ومُتَّزنُ العقل وليس من السهل خداعه. ومجلة " تايم " تُريدُ أن توازِنَ المعلومات الإيجابية التي جَمَعَتْها، وهي تفتِّشُ الآن عن الجانب السلبي للمس أولمن.

وهو موجودٌ الآن للكشف عنه.

وأشاركه عن طيبِ خاطر في نقاط ضعفي، وأفيضُ في كشفِ جانبي السيئ، ولكن بالطريقة التي آمل في أن تفتنه حتى الجنون.

بحلول المساء أغدو مُرهقَةً حتى الموت وأتوقُ إلى الوصولِ إلى المنزل. على الطاولة المجاورة لسريري هناك شجرةٌ من نوعٍ خاصّ آخذها دائماً معي. هي نبتةٌ صغيرةٌ ملتويةٌ، وعلى أغصانها عُلِّقَتْ أشكالٌ نُحاسية متنوعة، لكلٍ منها دلالتها الخاصة. وأتصوَّرُ أنها تجلبُ لي الحظَّ الحَسَن. أهدتها إليّ ممثلةٌ عظيمة حين تركتُ المسرح الوطني وانطلقتُ إلى العالم الفسيح.

اتصلتُ هاتفياً لأقولَ إني غير قادرة على تلبية موعد على العشاء وأعطي تعليمات بعدم إيصال أي مكالمة هاتفية إليّ، وأشدُّ الأغطية فوقَ رأسي. وأستيقظُ في منتصف الليل تؤرِّقني أفكارٌ مضطربةٌ يُثيرها حديثي لمجلة " تايم ".

السبت:

أصوِّرُ مشاهدَ في شوارع مدينة نيويورك، وأرتدي ثياباً مفصَّلة عند الخياط وأعتمرُ قبعات أنيقة وأسير بها في وسط أكبر مدن العالم. ويتجمهر الناسُ ليتفرَّجوا عليّ. وتتداخل السيارات وناطحات السحاب والوجوه. صائدو التوقيعات يتحركون حولي مُتكتّلين يجمعهم معهاً اهتمامهم المشترك.

مُصفِّف الشعر، واختصاصي مساحيق التجميل، ومُلبِّس الأزياء – الثلاثة دائماً على بُعد بضع خطواتٍ مني، يُجرون التعديلات عليَّ : هذا يشدُ شعري، وذاك يُزوِّدُ وجهي ببعض اللمسات، والثالث يشدُ أثوابي، يُبدون بذلك كم هم ودودون، وطوال الوقت يجب أن أُحافظَ على تركيزي، أن أبتسم وأردَّ على الود بالود.

أفكِّرُ في الوقت الذي كنا فيه هنا، الماما وبيتن وأنا، قبل سنوات، حين رغبنا في احتساء مشروب في فندق بلاتزا، لكنهم منعونا من الدخول لأننا كنا نرتدي بناطيل واسعة. وأخذت الماما تشرحُ بسخطٍ بلغةٍ إنكليزية- ترونديمية هائجة أنَّها خرجتْ للتنزُّه مع ابنتيها وأنَّ هذه المعاملة هي إهانة لهنَّ. وأنَّ ذلك ما كان يمكن أن يحدث في أميركا التي كانت قد عاشت فيها قبل ذلك بثلاثين عاماً.

والآن، بعد ظهر هذا اليوم، ها أنا هنا من جديد، أُصوِّرُ فيلماً في قلب فندق بلاتزا، أعملُ داخل ردهته الأنيقة بألوانها الحمراء والذهبية.

هناك حشدٌ كبير جداً من الناس يبغي الفُرجة، حتى أنهم كانوا أشبه بجوقةٍ ضخمةٍ تصطفُّ على طول الجدران.

التلفزيون، والإذاعة والصحافة.

وتسأل امرأةٌ فضوليةٌ بدينةٌ مَنْ النجمة السينمائية.

فأقولُ بتواضع " إنها ليف أولمن "

" أنا لا أعرفها. ولا يمكن أن يكون الفيلم جيداً "

بعد انتهاء يوم عمل أقابلُ صحافي مجلة " تايم "، فيُعطيني نسخةً من كتابه عن فيتنام - فقد عمِلَ مُراسلاً هناك لمدة عام. وأُعجَبُ به : نتحدث عن الحرب والتلوُّث، والأطفال، والحب، ونتوصَّلُ إلى اتفاقٍ عفوي سريع يلبون حديثنا، ويحوِّلُ لقاءنا إلى وليمةٍ من الأفكار والفكر.

على الأقلّ هذا ما شعرتُ به.

يمكنه أن يكتب عني بقذارةٍ كما يشاء؛ على الأقلّ لقد دارَ بيننا حديثٌ.

في المساء يزورني ماكس فون سيدو. إنه أحد افضل أفراد طاقم العمل معي وهو أيضاً صديق حميم، منذ فيلم " ساعة الذئب "، الفيلم الذي تقابلنا فيه، وكنتُ مُثقلةً بحمل لين.

قمنا بجولةٍ في أرجاء جناحي. تخيّلنا نباتات الأصص أشجاراً، والوسائد الحريرية عُشباً وزهوراً.

إنَّ فندق بلاتزا شديد الأناقة إلى درجة أنَّ تعبيرات وجه النادل لا تتبدَّلُ أبداً ؛ لا نرى إلا ارتعاشاً بسيطاً في منخريه عندما يتفانى في خدمتنا على مائدة العشاء الممدودة على السجادة الممتدة إلى الجدار.

الأحد:

أعودُ إلى لوس أنجلوس. إنه عيد الميلاد. أشجار عيد الميلاد منصوبة في كل شارع. الأضواء تشعُّ من النوافذ والأبواب مُزخرفة بألوانٍ غنية. المشهد يختلفُ كثيراً عمّا يجري في النرويج:

الصمتُ الأبيضُ في الغابات. الثلوجُ وأشجار البيسية وآثار المزالج.

هنا الشمسُ تسطعُ وأخرجُ وأنا مُرتدية سترةً رقيقةً. لا أطيقُ وجودي في غرفةِ الفندق وكل أشجار عيد الميلاد تومضُ في وجهي.

إنها الساعةُ السابعةُ عشيّة يوم الميلاد وأنا في طريق عودتي من الاستديو. في الوطن يكونُ الجميعُ جالسين يأكلون أضلاع الخنزير والكرنب المُخمَّر.

أربع بنات صغيرات - صغيرات جداً - تطلُّ من نافذةٍ نمرُّ بها. إنَّهنَّ سعيدات، يملنَ نحو الخارج، يضحكن للسيارات وللناس القابعين داخلها. إنهنَّ نحيلات، وشُعُث الشعور.

أشعرُ بطعنةٍ في قلبي من فرط الشوق والخوف لأنَّ تلك الأيام لن تعود أبداً.

أحضِرُ اثنتين من أشجار عيد الميلاد إلى غرفة نومي.

واحدة من لين. كانت قد زيَّنتها بأشكال ملائكة وسانتا كلوز صَنَعَتها بيديها.

الثانية من صديقٍ مُقرَّب. مزروعة في أُصيصٍ يحوي تربة.

ويقولُ لي " لكي تزرعيها في أميركا عندما تسافرين، وهكذا يصبحُ لك جذورٌ هنا أيضاً "

عـادتْ لين، ونحن عـلى شـاطئ مـاليـبـو. نقلي بلح البـحـر ونشـرب النبـيـذ. كل شيء أبيض اللون : المنازل، الرمـال، النبيـذ ؛ حـتى الهـواء المرتعـش مُكوَّن من مـادةٍ خفيـفةٍ واضحـة. تلقَّتْ لين هدية مؤلَّفةً من أربعة ضفادع مُذهلة تقتات على الجنادب الحيّة مرتين في الشهر. وتبكي حين أقولُ إننا لا نستطيعُ أن نحتفظ بها.

نُضرِم ناراً كبيـرةً على الشـاطئ، على الرغم من أننـا في منتـصف النهار.

يعزفُ أحدهم على القيثارة ويغني، وترقصُ لين لنا.

أنا مع لين، وأتظاهرُ بأني عدتُ صغيـرةً وأركضُ معـهـا على حـافة المياه ونضحكُ على الأمـواج ؛ نتفحّصُ الأصدافَ المجروفة إلى الشاطئ ؛ ونمعنُ النظرَ في الزهور التي ليس لدينا منها في النرويج.

تعثُر على طائر جريح وتحمله بين يديها إلى أن تعـتـقد أنَّ قلبَه لم يعُد يخفق بقوةٍ من الرعب. ثم حين يقترحُ أحدُ البالغين أنه من الأفضل قتله لأنه جريح، تبتعد وتختبئ.

إنهـا الطفلة الوحـيـدة بيننا، لكننا جـمـيـعـاً نمارسُ الألعـابَ ذاتهـا. ولا شيء يُوقفها، إنهـا تندفعُ منطلقةً، بجسمها الصغير المُسمَّر

بأشعة الشمس والمُتوَّج بشعرٍ كِتَّانيّ، يُلاحقها جمعٌ ضاحكٌ من البالغين مُشكِّلين ذيلاً طويلاً.

فيما بعد أُقيمَ حفلُ عشاءٍ كبير في بيفرلي هيلز، أقامه منتجٌ فيلمي على شَرَفي. وصلنا جميعاً إلى هناك على متن حافلة، وتبعتنا سيارةُ الليموزين التي أرسلها الاستديو. وضحكنا على هذا ورحنا نقول لبعضنا بعضاً إننا نركبُ على الموضة.

يُلقي بول كونر، وكيلُ أعمالي الأميركي، خطاباً، موجَّهاً إلى نجمةٍ صاعدةٍ موجودةٍ على المائدة، وأعتقدُ أنه يقصدني أنا، إلى أنْ أرى لين تتململُ في جلستها على الكرسي، وتُعيدُ ترتيبَ شعرها وتبتسمُ وعيناها مغمضتان. إنها على حقٍ (وهي دائماً تقريباً كذلك) ؛ إنها هي المقصودة !

يرفعُ كأسه لشُربِ نخب الطفلة، وينهضُ الضيوفُ المائة، الذين بالكاد نعرفهم، واقفين ويبتسمون لها - بالطريقة التي يُتقنونها في أوساط هوليوود. وسعدتْ بهذا، وهي تُخفي رأسها في حجري. وأرى أننا نُحسِنُ عملاً لأننا عائدتان قريباً إلى وطننا النرويج.

بعد ذلك يُعرَضُ علينا فيلم. ونجلسُ هي وأنا في الظلام. هذه أول مرة تشاهد فيها فيلْماً سينمائياً. إنها في الخامسة. أستطيعُ أن أميِّزَ وجهها على نور الإضاءة الصادرة عن الشاشة. ثم أسئلةٌ مهموسة سريعة، وخوف مفاجئ، ومن ثم ابتهاجٌ - فمٌ صغيرٌ يتحرَّكُ بانتباهٍ أخرس. كل شيء حقيقي. هنا والآن ويدها في يديّ ،وتقاربُنا ونحن نمرُّ بتجربةٍ واحدةٍ معاً.

نعود إلى المنزل. الأصابع الصغيرة النحيلة تتضافرُ مع أصابعي.

غرفة الفندق كبيرةٌ وشبه مظلمة. نجلسُ بجانب النافذة نطلُّ على الليل. بعد برهةٍ من الوقت نسدل السِتائر وأطلبُ كأساً كبيرة من الحليب. وأسمحُ لها بالجلوس وهي ترتدي البيجاما لتشربه أمام جهاز التلفزيون.

أقولُ لها إنني حين كنتُ صغيرةً لم يكن لدينا جهاز تلفزيون، فتنظر إليّ بإشفاقٍ وأتحوّلُ أمام عينيها إلى امرأةٍ عجوز. وتسألني إن كنا في الأيام الخوالي نتجوّل بعربةٍ يجرُّها حصانٌ، حين كنتُ أنا فتاةً صغيرة.

تشرب كأسها من الحليب برشفاتٍ متمهِّلة، لكي تُطيلَ أمَدَ النهار قدر ما تستطيع.

في وقتٍ متأخِّر من الليل تستغرقُ الطفلةُ الصغيرة في النوم على الكرسي. أحملها بعناية إلى سريرٍ كبيرٍ عريض، حيث تُغيَّرُ الأغطية في كل يوم، والفراش وثيرٌ ووفير الحشو.

يتناهى إليّ عن بعد أزيز السيارات المارة من جادةّ السنست، وضجيج حياة الليل.

أنتظرُ وصولَ زائرٍ هام.

هنري كيسنجر سيرافقني إلى حفلٍ كبير.

في لوس أنجلوس سألَ مَنْ هي أنسب مُرافقةٍ له في " حدث العام " هذا في هوليـــوود. ولَحَقَ بي أحــدهم، وعلى مــدى يومين كنتُ أتلقّى الاتصالات الهاتفية من البيت الأبيض. واليوم اتّصلَ بي بنفسه.

إنه عام مجده، والكلّ يسعى إلى مقابلته. واتّضحَ فيما بعد أنَّ ذلك كان قبل أن تبدأ حكاية ووترغيت بكاملها بيومين بوضع نهاية لرئيس الجمهورية. وسيكونُ ذلك آخر ظهورٍ عَلَني لنيكسون قبل أن يعرف العالم كلّه بأمر الفضيحة.

يبدو أن الجميعَ يريد مشاركتي في اللقاء مع كيسنجر. كوّمتُ الوسائدَ والأغطية فوقَ جهاز الهاتف، لكي لا أسمعه.

إحدى صديقاتي من أرض الوطن ستكون سكرتيرتي الخاصة. ونطلُّ من النافذة بصبرٍ نافد، نحاولُ أن نخمِّن أي السيارات الواقفة صفاً واحداً أمام الفندق هي سيارته.

وتقترحُ صديقتي " لعلّه شديد التواضع ويقودُ تلك السيارة الحمراء الصغيرة "

أنظرُ إليها بتسامحٍ. إنَّ الإجراءات الأمنية في الحياة السياسية لا تسعها سيارة فولكسفاغن.

بما أنَّ السيد كيسنجر هو أول لقاء لي في حياتي مع شخصٍ مجهول لدي ارتبكتُ وأنا أكلِّمه عبر الهاتف ونسيتُ أنْ أسأله متى سيأتي ليأخذني. وعلى هذا فأنا و " السكرتيرة " مرتديتان ملابسنا منذ ثلاث ساعات.

وَصَلَتْ رسالةٌ من إحدى الإدارات الرسمية في النرويج بشأن البترول. واضحٌ أنهم يريدونني أن أبلِّغَ السيد كيسنجر بشيءٍ، لكني ما زلتُ لا أدري ما هو. (وقد اتضحَ أنه لم يكن يعلم حتى أننا قد عثرنا على البترول).

تلقَّيتُ من السويد رسالةً من سكرتيرة أحد رجال السياسة يطلبُ مني فيها أن أنفي بعضَ التعليقات التي صَدَرَتْ عنه حول شخص كيسنجر. (بعد ذلك بأسبوع كرَّرَ الإدلاء بتعليقاته في مؤتمرٍ صحفي).

رسائل تهديد مجهولة المُرسِل تتكوَّمُ جَعِدة في سلة المهملات. (أحياناً أفكِّرُ فيها حين أستيقظُ أثناء الليل).

الهاتف يهرُّ من تحت الأغطية.

أعرفُ ما هو النبيذ المُفضَّل لديه. إنَّ الزجاجة منتصبة وسطَ الثلج الذي ذابَ منذ ساعات مضت.

تمَّ تفتيشُ جناحي - إذن فالذي أوصى بي لم يكن مُقنِعاً كفاية. ما زال من الممكن أن أكونَ عميلةً سرِّيةً أو أني أحتفظُ بقنابل تحت سريري.

إنَّ هذا كله أمرٌ غاية في الغرابة بالنسبة إلى مَنْ لم يجتمع قط مع شخصٍ مجهول لديه، وتوتَّرَتْ أعصابي كثيراً حتى إني بدَّلتُ، واخترتُ آخرَ أقلَّ جمالاً من الذي كنتُ أرتديه أصلاً.

يُرسل صحفيٌ نرويجي بطاقته، ويسألُ إنْ كان من الممكن أن يتخفّى بزيّ نادل. وقد قَدِمَ مباشرةً من أوسلو يحدوه هذا الأمل، فأجبناه بأنَّ هذا المنصِب قد شُغِلَ فعلاً.

مرةً أخرى نُراجعُ أنا و " السكرتيرة " البرنامج : كيف ستُقدِّم النبيذ، وقد تأتي على ذكر البترول في ملاحظةٍ عابرة، وتتنقَّلُ قليلاً في المكان، وتُرتِّبُ بعضَ الأوراق – ومن ثمَّ تلزم الهدوء.

ثمة قرعٌ على الباب.

ونندفعُ نحن الاثنتان لتلبيته، وتتعثَّرُ إحدانا بالأخرى، وأدفعها وأزمجرُ في وجهها قائلةً إنَّ الخطةَ قد تغيَّرَتْ، وإني سأفتحُ البابَ بنفسي.

إنه يبتسم وهو أضألُ مني حجماً بكثير. وأُدركُ أني اخترتُ الحذاءَ غير المناسب.

نتصافحُ ويلوِّح بيده مُطَمئِناً لبعض الرجال العابسي الوجوه الموجودين في الرواق.

تلك التي كان من المفترض أن تصبَّ النبيذَ سَفَحَتْ مُعظَمَه على بنطاله. ورحنا ثلاثتنا نحاولُ بحركةٍ محمومةٍ أن نذيلَ البقعةَ، إلى أن باتَ أخيراً من الصعب تمييزها.

ولم أُدرك إلا ونحنُ في المصعد أنَّ رقعةَ محل التنظيف لا تزال مُثبَّتةً إلى ثاني أفضل ثوبٍ عندي، وأخذتُ أشدُّ وأشدُّ وأشدُّ لأزيلها، فانتزعتُ أيضاً قطعةً صغيرةً من الثوب، وسقط الحزامُ عن حقيبة يدي.

لدى عودتي تقول " السكرتيرة " إنَّ هذا كان مرئياً على التلفزيون.

أحفُّ بثوبي وأنا ألجُ سيارةً ذات زجاجٍ مضادٍ للرصاص، يتبعني رجالٌ يحملون ميكروفونات صغيرة يتكلمون فيها طوال الوقت.

أعتقدُ أني بعيدة جداً عن ترونديم.

* * *

في وقتٍ متأخّرٍ من الليل أستلقي في سريرٍ مُزدوج مع صديقتي " السكرتيرة " التي بقيَتْ يقظةً في انتظار تقريري.

لديَ ألفُ شيءٍ أُخبرها به - ثم يرنُّ جرسُ الهاتف. إنه الصحفيُ النرويجي، يتحدَّثُ من ردهة الفندق. إنَّ رحلته كلَّفَته مئات الدولارات، وقد انتظرَ طوال الليل، ويُذكِّرني بالخدمة التي أداها لي ذات مرة. وبعد نِقاشٍ طويلٍ وبضعة تهديدات، يشُقُّ طريقَه صعوداً ويجلسُ بجانب سريري. وينظرُ إليّ، ودفترُ الملاحظات في يده، مُترقِّباً ويطلبُ مني أن أخبره بما قُلتُه لكيسنجر وأيضاً، وهو الأهمّ، ما قاله كيسنجر لي. أنا صامتة ، لكنَّ صديقتي تُغمغمُ بشيءٍ عن ضوءٍ تظنُّ أنها رأته حول رأسه. وأغفرُ لها في قلبي، لأنها ظلّتْ يقظةً وحدها طوال الأمسية في انتظار أن تُعبِّرَ عن نفسها. ثم لابدَّ أنَّ التعبَ قد نالَ منها الآن.

في اليوم التالي تُصوِّرني كل صحافة العالم وأنا أرقصُ الفالس وأقولُ " بدا هنري كيسنجر وكأنَّ هالة تتوِّج رأسه "

حَلَقة الخياطة تقومُ بزيارةٍ لهوليوود.

فعندما تُرشَّحُ إحدى عضواتها لنيل جائزة أوسكار، فمن اللائق أنْ تجتمع الفتيات جميعاً.

البطلةُ مُقتنعةٌ بأنها لن تفوزَ بأي جائزة.

أخذتْ الغرفةُ في الفندق تمتلئ شيئاً فشيئاً بالناس الذين أكَّدوا لها كلهم أنهم سمِعوا - أنهم واثقون - ولاشك في ذلك : سوف تفوز !

في آخر الأمر تكادُ هي نفسها تُصدِّقُ ذلك. وتصطبغ وجنتاها بحُمرةٍ محمومةٍ وحين يُرسِلها أصدقاؤه لتخلد إلى النوم حتى تكون جميلة في المساء، تعجزُ تماماً عن العثور على الراحة.

الأمُ أيضاً تأتي إلى هوليوود. وهي الآن جالسةٌ في غرفتها تتمنى أن يسيرَ كل شيء بالنسبة للطفلة على أحسن ما يُرام.

تُجيبُ عضوات حَلَقة الخياطة على الاتصالات الهاتفية القادمة من الشرق ومن الغرب، وتفرز برقيات التهنئة المُرسَلة مُقدَّماً، تحسُّباً، وتُعدُّ باقات الزهور، وتندفع إلى النوافذ لتتفرَّج على أشجار النخيل وعلى الناس. وأخيراً تفتح جهاز التلفزيون حيث كل الحديث يدورُ حول جوائز الأوسكار.

وَجَنات الصديقات أيضاً تصطبغ بالحُمرَة وتوقظ البطلة التي تتظاهر بأنها نائمة.

وتجلسُ الأربع على السرير العريض وتفتحُ زجاجة شمبانيا، وتُرسِل في طلب كافيار روسي، وتقول إحداهنّ للأخرى إنَّ الناسَ في الوطن سوف يُشاهدونهنَّ الآن.

ثم يأتي مُصفِّف الشعر واختصاصي التجميل، وهما صديقان حميمان من أفلام عديدة مثَّلتُها في أميركا. ويصرُّ الاثنان على أن تسمحَ لهما بإصلاح مظهرها قليلاً.

هما أيضاً تناولا شمبانيا، لكنها لم تدُر رأسيهما كما فعلتْ بعضوات الحَلَقَة. لقد مرَّ تحت أيديهما مُرشّحون كثيرون لجائزة الأوسكار. إنهما لطيفان وكفئان، أخفيا عصبيّتها تحت غطاءٍ من مساحيق التجميل وخصلات الشعر. وحين أنهيا عملهما لم تكدْ تتعرَّف على نفسها. أحضرتْ الصديقات الثوبَ الجديد، وشعرتْ البطلةُ لبرهةٍ من الوقت كأنها البطَّة القبيحة في لقائها الأول بالبجعات.

الأمُ جالسةٌ على الأريكة وتترقرقُ الدموعُ في عينيها عندما تحضر الطفلةُ في نسختها النهائية. وتشعرُ بأنَّ هذا هو أنسب ردَّة فعلٍ بالنسبة إلى الأم في مثل هذه الظروف.

يصلُ الوكيلُ، مبتسماً ودوداً، حاملاً هدايا من الجميع.

لم تزُره من قبل حَلَقَةُ خياطة قادمة من النرويج.

لأول مرة تلاحظُ البطلةُ أنه هو أيضاً يتمتَّعُ بالشجاعة. إنه شديد التوقِ ليطمئنهنَّ بأنَّ هذه ليست نهاية العالم. فإذا لم تنل جائزة الأوسكار هذا العام فسوف تنالها في مرةٍ قادمة.

ويؤكِّدُ الجميعُ للجميعِ أنه لاشك في أنه لا يهمُّ إنْ هي فازتْ أو لم تفُز. ولكن في قرارهنَّ يُخطِّطنَ للمكان الذي سيضعنَ فيه الجائزة في غرفة الجلوس.

السيارة في انتظارهنَّ عند المدخل، طويلة وسوداء، كالعادة. السائق لا يبدو أنه يُدرِكُ خطورة المناسبة. عيناه مرهقتان. إنه يكره ليالي الأوسكار لأنَّ كل الشوارع تصبحُ مزدحمةً. وسُفُنٌ سوداءُ تنسابُ ماخرةً الليلَ، مُحمَّلةٌ بأناسٍ بأزياء فخمة. وتُحدِّقُ وجوهٌ مُتبرِّجة برصانةٍ إلى حمولات عابرة أخرى.

وصلوا !

فوضى من الأضواء الكاشفة ورجال شرطة وحرس ومصورين. وسقالاتٌ ضخمةٌ منصوبة. الناسُ متزاحمون كما في ملعبٍ لكرة القدم. وأسماءٌ ينادَى عليها بمكبِّرات الصوت. ومصابيح وَمْضيّة تسطع.

البطلةُ القادمةُ من تروندهيم ترتجفُ في كلِ طرفٍ منها. غير قادرة على الابتسام، لأنَّ فمها لم يعُد طوعَ أمرها.

يقودونها إلى منصَّاتٍ وتجري مقابلةً مع التلفزيون ويُعلَنُ عن وصولها بمكبرات الصوت ويُصفِّقونَ لها ويُقيمونها لدى مرورها بجمهورِ كرة القدم.

وتسمع هنا وهناك تحيةً بلُغتها الأصلية وتشعرُ بدفقٍ من الامتنان وهي تسيرُ وتتعثَّرُ بالسجادة الحمراء.

تودُّ لو تشرحَ لِمَنْ يبدو عليهم الودُّ سببَ عدمِ استطاعتها أن تردُّ عليهم بالابتسام.

حَلَقَةُ الخياطةِ في حالةٍ من الإثارة، وهنَّ يشاهدنَ كل شيء في

التلفزيون في الفندق، ويتّصلنَ هاتفياً بالأقارب في النرويج ليقلنَ إنَّ الإثارةَ لا تُحتَمَل.

البطلةُ تؤخَذ إلى قاعةٍ شاسعةٍ لتجلسَ في الصف نفسه الذي يجلسُ فيه المُرشَّحون. وينظر كلٌ منهم إلى الآخرين مُتَفَحِّصاً، يبتسمُ، ويتمنَّى كلٌ منهم للآخر الحظَّ السعيد. وكلهم يبدو أكثر جمالاً وثقةً بالنفس منها، هكذا راحتْ البطلةُ تُفكِّرُ وهي حزينة.

من بين كل الحضور الأمُ وحدها تظنُّ أنه لا أحدَ يُعادلُ طفلتها، وإذا كانوا لا يرون ما ترى فالويلُ لهم. ومن ثم تعاودُ البكاءَ قليلاً في منديلها.

القاعةُ مشحونةٌ بالترقُّب والخوف وبجوِ تقليد المناصب. وعلى خشبة المسرح عرضٌ مُبهرَج يُبَثُّ إلى كل أنحاء أميركا وإلى أماكن عديدةٍ من العالم.

ويُنادَى على اسمٍ بعد اسم. كل فرعٍ من فروع صناعة السينما سينالُ جائزة. وقُرابة النهاية اتَّجَهَتْ آلة التصوير نحو خمسةٍ من وجوه النساء الشاحبة. وتلاحظُ حَلَقَةُ الخياطة أنَّ وجهها يبدو هادئاً تماماً وأنَّ عليها أنْ تُخبرها بهذا.

في ذلك الوقت البطلةُ تتعجَّبُ من إحدى المُرشَّحات التي خرجتْ وبدَّلَتْ ثوبها وسط المراسم، وتشعرُ أنه إذا ارتدتْ إحداهنَّ ملابس النصر مُقدَّماً فإنَّ ذلك سيجعلُ الإحباطَ الأخيرَ أفدح.

ويُعلَنُ عن اسم الفائزة - وهو ليس اسمُ البطلة ولا اسم الواثقة من نفسها. وترى الدموعَ تطفرُ من عينيّ الأخرى - نجمةٌ يائسةٌ تنهارُ على كتفِ أحدهم. وفجأةً، تدركُ البطلةُ أنَّ هناكَ من المُخاطرةِ أكثر بكثير مما

تمرُّ هي به. وببطءٍ تمتلئُ بإحساسٍ رائعٍ بالارتياح، وهي تُصفِّقُ للفائزة الواقفة على خشبة المسرح.

وتستحسن حَلَقَةُ الخياطة حُسنَ تقبُّلها للأمر. وانظروا كيف تبتسمُ. للمرة الأولى في ذلك اليوم أمكنها أن تُسيطر على فمها. وتنهض واقفة لدى انتهاء الاحتفال. وتضحك في وجه الوكيل وتربتُ على وجنة الأم وتُراقب الواثقةَ من نفسها وهي تغادرُ المكانَ خلفَ نظارات قاتمة.

تحاولُ أن تتجاهلَ حقيقةَ أنَّ لديها الآن دوراً جديداً، يتمثَّلُ في طبطبةِ الجميع المواسيةِ المكتومةِ على ظهرها هي : الخاسرة.

في الخارج مئاتُ من صائدي التواقيع الذين يندفعونَ نحوها، ولا يزالون يتذكَّرونها بعد ظهورها في التلفزيون.

بعد أن دوَّنتْ اسمها بضع مراتٍ سمِعَتْ صُراخاً عالياً كأنما من ألف نورس.

وهاهي الفائزة تصل.

انشقَّتْ دفاترُ التواقيعِ عنها، ولم تكن قد كتبتْ إلا نصف الاسم على الورقة التي كانت تُمسِكُ بها. بل كادتْ تُداسُ بالأقدام وهم يندفعون متجاوزينها في سعيهم إلى الأخرى الفائزة.

حين عادتْ البطلةُ إلى الفندق بعد ليلٍ طويل، وجدتْ ملاحظةً على وسادتها، تقول :

" إننا نعتقدُ أنكِ كنتِ الأفضل. أيقظينا حين تعودين إلى المنزل. مع تحيات حَلَقَةِ الخياطة "

من جديدٍ ابتسمَ الفمُ. الآن بدا كأنه لا يستطيع أن يكُفَّ عن الابتسام.

يان ترويل كان يقبعُ آمناً في بَلَدِه ؛ يجوسُ حاملاً آلة التصوير، يأسرُ أجملَ المناظر الطبيعية، يصوِّرُ من أجل المستقبل بين الناس العاديين بطريقةٍ لا يُجاريه فيها إلا القلائل.

حقَّقَ فيلما " المهاجرون " و " الأرض الجديدة " نجاحاً ساحقاً في البلاد الاسكندنافية، أولاً في العرض السينمائي ثم في التلفزيون. وعندما عُرِضا في أميركا قوبلا أيضاً باستحسان واحتفاء.

الآن تقابلنا يان وأنا من جديد، بعد أن كنا عملنا معاً في السويد ؛ هذه المرة التقينا في كاليفورنيا لتصوير فيلم " عروس زاندي " لصالح الأخوة وارنر.

وطوال الوقت كان يحنُّ إلى الوطن.

في حين كان في السابق يُحاطُ بفريقٍ من خمسة عشر شخصاً، يعملون معاً على مدى عامٍ بدفءٍ وثقةٍ وودٍ، إذا به الآن يلتقي بمائة شخص غريب عنه تماماً.

صوَّرنا بين جبالٍ جميلة في منطقة قريبة من كارمل، وهي من أجمل الأماكن الطبيعية في أميركا : إنها بيغ سور.

كنا في صباح كل يوم نستقلُّ سيارة ليموزين سوداء طويلة من

الفندق، بما فيه من بركة سباحة ساخنة وشطائر الهمبرغر، وننطلق وسط ضباب كثيفٍ، نحدِّقُ إلى الجو الرمادي ويقول أحدنا للآخر إنه لا يمكنُ أن تكون هناك إضاءة كافية للتصوير اليوم. وبعد مُضيّ ساعة تميلُ السيارات عن الطريق الرئيسية لتواصل المسير على دربٍ ضيقةٍ ملتويةٍ. وبعد مرور ساعة أخرى من الحركة لولبيّة أعلى الجبل، يكونُ الضبابُ لا يزالُ سائداً. وفجأةً - خلال مسافة بضعة أقدام - بعد منعطفٍ في الطريق - ينفتحُ المنظرُ الطبيعي بكل روعته. نصلُ إلى طبيعةٍ جديدةٍ ومناخٍ مختلف. يصبحُ الضبابُ تحتنا. هنا، في الأعالي، كنا نجدُ المعجزةَ ذاتها يوماً بعد يوم: عالماً من الشمس الساطعة ومنحدرات خضراء شاسعة، ومرجاً بزهورٍ لم أرَ مثيلاً لها من قبل. وكان هناك خنازير بريّة وأسودٌ جبليّة والكثير الكثير من حيّات الأجراس.

أقاموا منزلاً صغيراً، كاملاً من كل شيء، مطلياً، وجُعِلَ ليبدو وكأنه كان موجوداً هناك، مُظلَّلاً جزئياً بأشجار درداءٍ ضخمةٍ، منذ دهرٍ من الزمن.

هناك كانوا ينتظرون يان في صباح كل يوم: فريق المائة بأكمله.

كانت رؤيتهم تُسبِّبُ له دائماً صَدْمةً، ويتنحّى بي وبجين هاكمن، محاولاً أن يخلقَ لحظةً حميمةً معنا تطولُ أطول مدة ممكنة. وأخيراً يضطرُّ، وهو يجرُّ قدميه جراً، للتوجُّه نحو الآخرين؛ ليُصدِر التوجيهات، وليُخطِّط ويكونَ القائد - للقيام بكل ما لا يرغبُ في عمله ولا يستطيع. ويظلُّ ينظرُ بشوقٍ إلى الكاميرا، آلته الخاصة، التي لا يُسمح له بلمسها هنا. كانت النقابةُ تُقيمُ رقابةً مُشدَّدةً للتأكُّد من أنَّ كل شخص مُلتزم بعمله؛ وفي أميركا لا يَسمَحُ العقدُ الذي وقَّعَ عليه يان له إلا بأنْ يُخرِجَ.

وفي إحدى المرات انغلقنا على أنفسنا داخل المنزل الصغير وقُلنا إننا نريدُ أن نتدرَّبَ وحدنا. وكان مع يان كاميرا محمولة، كما كنا نفعل في السابق. وراحَ يُتابعُ حركاتي وكأنه جزءٌ مني، وصوَّرَ بحساسيّةٍ وعن قُرب أحدَ أجملَ المشاهد في الفيلم : حين تتوقُ هانا إلى الرحيل، فتنظُر إلى متعلقاتها القليلة من الوطن، وتنهارُ وهي تبكي على صندوق السفر.

لقد دعوا هذا الفنان العظيم إلى بلدهم لأنهم مُعجَبون بالشعر الذي تنطوي عليه أفلامه، ثم انتزعوا آلته من بين يديه وانتظروا منه أن يُعيدَ إحداث المعجزة لهم.

وكنتُ أنا، التي لا أتنكَّبُ مسؤوليته، سعيدة. كانت الطبيعةُ أساس فَرَحِي. وكنتُ قد نسيتُ أنَّ حقلَ الزهورَ يبدو كما يبدو. ما كان أمتعَ الجلوس على الأرض والإحساس بالهواء المنعش النقي من حولي.

ظهرَ على جسمي كله طفحٌ جلديٌ من تأثير نباتات سامّة تنمو هناك، وكنتُ أطأ الأرضَ بحذرٍ لكي لا أُباغت بأفعى في العشب. وكنتُ أستمتعُ بمشهد لين وهي تركبُ مع الرجال المسؤولين عن الجياد.

وتحت شجرة جلسَ يان ترويل يكتبُ رسائلَ موجَّهةً إلى الوطن.

كنتُ قد قرأتُ عنه في مجلات السينما. وأطلقتُ الزفرات لمرأى عينيه الزرقاوين في الأفلام. كنتُ أظنُّ أنه لا يمكنُ لمن يحملُ مثل تلك الابتسامة الجميلة إلا أن يكونَ إنساناً طيّباً.

آه، أيتها الشاشة كم تخدعيننا!

كنا قد دُعينا إلى منزله الكبير الكائن في بيفرلي هيلز. غاصتْ حاضنتي السويدية، غنفور، التي ترعرعتْ في مزرعةٍ صغيرةٍ في الشمال وأضحتْ هنا فتاةً مُتخمةً، في أريكةٍ عميقة وأعلنتْ أنَّ مثل تلك المنازل تُسبِّبُ لها صُداعاً. إنها في العشرين من عمرها ولا غِنى عنها للين ولي.

يقولُ " أنا مضطرٌ للطلب منكِ أن تُلبِسي ابنتكِ ثوب استحمام ".

كان ابنه ذو الثلاثة عشر ربيعاً يقومُ بزيارةٍ له. " سوف تستاءُ أمه استياءً شديداً إذا سمِعَتْ أنه كان يسبحُ مع فتاةٍ عاريةٍ تماماً في منزلي "

تزفر غُنفور في الهواء يائسة، وجسمها كله يُعبِّرُ عن اشمئزازٍ من نجوم السينما، وبِرَك السباحة ومن هذا الصبي الصغير بالذات.

عندما يحين موعد تناول طعام الغداء، يقول لها إنَّ عليها أنْ تتناولَ طعامها في المطبخ. أنظرُ إليه، مصعوقة، لأنه من الواضح أنه لا يمزح.

على المائدة يوبِّخُ لين، حتى تبكي، قائلاً إنه لا يجدر بالأطفال أن يتكلّموا وهم يأكلون. فقط ضيفتاه البالغتان يُسمَح لهما بالاشتراك في

حديث يُشرفُ هو عليه. وذُهلتُ.

يُعلنُ المذياع أني نلتُ جائزة أفضل ممثلة لهذا العام. ويعجِّل فيُعبِّر لي عن قلِّة أهمية ذلك. أما جوائز الأفلام والممثلين فأهملَتْ لأسبابٍ سياسية. ويقول لي، بالمناسبة، أنه كان من السخف مني أن أسمحَ بنشر قصة الغلاف تلك في مجلة " تايم ".

" إنَّ ذلك يقتلُ الممثل "

هو نفسه كافحَ لسنين ليتجنَّبهم.

بعد ذلك ضحكنا عالياً ومن أعماق قلوبنا على حماقتي المفرطة. ضحكنا حتى أبرزتْ غُنفور رأسها من خلف باب المطبخ ووجَّهَتْ عينيها نحو السماء.

سُمِحَ لها بالانضمام إلينا لشُرب القهوة، لأنَّ أحد أفلامه القديمة كان عندئذٍ يُعرَضُ على شاشة التلفزيون.

بعد ذلك أخذنا نناقشُ بالتفصيل المشاهدَ التي يحبها أكثر من غيرها. إلى أنْ بدأتْ غنفور، والشيطان يطلُّ من عينيها، تتكلَّمُ عن جائزتي. علا الشحوبُ وجهه ونهضَ واقفاً مُقاطعاً كلامها ليُعلِنَ أنَّ لديه عملاً يقومُ به، ويجب أن يقلَّنا بالسيارة إلى بيتنا الآن.

ويُنزلنا خارج الفندق، والشياطين التي كانت تطلُّ من عينيّ غنفور تُستبدَلُ الآن بملائكة، وتتناولُ يده وتنحني له احتراماً، وتقولُ شكراً لك على الفرصة التي أتاحها لها للاقتراب منه وتعِدُ بأنْ تُخبر كل صديقاتها في السويد بأنها قد قابلته شخصياً .

ويقولُ لي إنَّ لديَ مربيّةً لذيذة.

ونحتفلُ، لين وغنفور وأنا، بانصرافنا بشُرب الكاكاو والكريما في سرير لين.

نقومُ لين وأنا بالتمشّي في بيفرلي هيلز.

إننا الوحيدتان اللتان تتسكّعان في تلك الشوارع.

المروجُ والزهورُ تعبقُ برائحة التربة المُشبعة بماء المطر. الشجيرات غنيّةٌ بكل ألوان العالم.

نتحدّثُ عن الحياة - عن الرجال والنساء والأطفال، عن الأحزان والسعادة التي نعرفها وعن أحلام غريبة راودتنا في منامنا.

لين تعرفُ أكثر مني بكثير. لديها حكمة داخليةٌ لم أكن أعرفُ عنها أي شيء.

نتحدّثُ عن المسؤولية، وتقولُ لي إنها في الواقع لا تحتاجُ إليّ :

" إنَّ كل ما تقرّرينه نيابةً عني أمران : أنْ أُحضِرَ الصحيفة في الصباح والموعد الذي يجب أن آوي فيه إلى النوم. وأنت تعتنين بي وتُطعمينني. هذا كل شيء "

في مثل هذه اللحظة نكونُ لين وأنا شديدتيّ القُرب من بعضنا بعضاً. نتمشّى في أحد الشوارع بعيداً عن المنزل ونتحدثُ عن الأصدقاء في النرويج. عن والدها وعن ثمار الفريز التي لعلّها في هذه اللحظة تُغطي الأرضَ على جزيرته.

وتسألُ لين " ما هي الحياة يا ماما ؟ هل هي فقط الناس ؟ "
ونتأمَّلُ بعضَ الحشرات الصغيرة الزاحفة على الأرض عند أقدامنا.

أقولُ لها إنه حين كنتُ طفلةً صغيرة كانت هناك بدون شك أنواعٌ أكثر من المخلوقات الزاحفة، لكنَّ الناسَ دمَّروا ما يجعلُ حياتها ممكنةً، وبالطريقة نفسها دمَّرنا نحن الطيورَ والنباتات والحيوانات. مخلوقاتٌ لن نراها مُطلقاً. ونحنُ الذين نتذكَّرها لن نعيشَ طويلاً حتى نُبقي ذكراها حيَّةً بيننا.

وأقولُ " إنَّ عالمَ الزهورِ واللعبِ والأحلام والإيمان الذي ما زال عالمكِ أنت يا لين، العالم الذي تشاركينني فيه في هذه اللحظة - ذلك العالم سوف تنسينه، حتى وإنْ كانت الحياة ذاتها - وهو ما لن يستطيع أحد أن يُلقّنك إياه - تحيا فيك الآن "

سوف تنمو لين في عالمٍ لم يرَ فيه أحدٌ شيئاً غير بِحارٍ وهواءٍ فقيرة، حيث النجوم التي رأيتُها وأنا طفلة لن تُرى مطلقاً.

هي، التي في إمكانها أن تدير مفتاح جهاز التلفزيون عندما تشتاق إلى الصُحبة التي سوف تحشو رأسها بالتواريخ وقواعد النحو، وتُحاط بمعلومات عسيرة الهضم من المجتمع الذي تعيشُ فيه - هي المفعمة بالحياة وحُرَّة اليوم - سوف تُطحَنُ ببطءٍ في المطحنة التي لا يخرج منها إلا البالغون.

نجلسُ في بقعةٍ من الظل تحت شجرة نخيل وأحكي لها عن نبات سحلبيّة سمعت عنه ذات مرة، يمكنه أن يعيش في حرٍّ أفريقيا أو في ثلوجِ غرينلاند. وأقولُ لابنتي، إنَّ أغرب شيء هو أنَّ في إمكانها أن تحتفظ ببذورها المُخصبة داخلها لعدة سنوات، وهكذا يمكن لنا نحن

الاثنتان أن نعثُر ذات يوم عليها ونزرعها في حديقتنا، وببعض الرعاية نبعَثُ فيها الحياة التي بدأت فيها قبل زمن طويل جداً.

أحكي لها عن زهرةٍ فريدةٍ تنمو في فرنسا ولها شكلٌ وعَبَقٌ يجتذبان نوعاً من النحل لا يعيشُ إلا هناك، ولعلَّها أصبحتْ كذلك لأنها بعد تجربةِ آلافٍ من السنين باتت تعرفُ مَنْ تغوي وكيف. ولكن يمكن أيضاً للإنسان أن يؤمن بأنَّ الله هو الذي وَهَبَ الزهرة هذه الموهبة.

تُنصِتْ لين بفم مفتوح. لقد أصبحَ الواقع، كما عرفته أنا، فجأةً أقرب إلى عالم الخيال الذي تعيشُ فيه.

نراقبُ كلباً يهرول ماراً بنا، تتبعه امرأةٌ بدينةٌ مقطوعة الأنفاس. وتخطر لنا على الفور فكرةٌ واحدةٌ توحي لنا بها. ويتقافزُ عصفورٌ متنقِّلاً وينصُب رأسه متعجِّباً من شخصين قابعَين في هدوءٍ شديد حيث كل شيء آخر تقريباً يضجُّ بالنشاط.

إنه اليوم السابق لتوقيع قوَّتين عُظمَيين معاهدة عامة.

نيكسون وبريجنيف يجتمعان إلى مائدة عشاء في السفارة الروسية.

أجلسُ بين السفير الروسي وكيسنجر.

أحاولُ، وقد فوجئتُ بما يحدثُ من حولي، أن أترجمَ رموزاً وسط طنين الأفكار المبتذلة المتبادَلة عبر المائدة. إنني وسط أخَويّةٍ ذكَريّة مُقدَّسة وبعد فترة وجيزةٍ من الوقت أشعرُ كما كنتُ أشعرُ أيام المدرسة حين يناقشُ الفتيةُ أمراً مُعيَّناً ويصعُبُ عليَّ تصديق أنهم جادُّون حقاً على الرغم من هيئتهم الوقور وصيغهم.

غروميكو شاحب الوجه ويجلسُ مُحدودب الظهر في أحد أركان المائدة، بفمٍ مُغلقٍ بشدَّةٍ وحزين.

يُذكِّرني بقريبٍ لي كئيب حَضَرَ حفلَ زواجي.

لكني أرى أيضاً الظُرفَ في عينيه. وكلما ذُكِرَ اسمه في خطاب يحمرُّ وجهه خجلاً.

بريجنيف يبدو مزهواً قليلاً، لكني أشعرُ بميلٍ فوريّ إليه حين يُمسِكُ بيدي بين كفَّيه العريضين ويقولُ لي إنه أحبَّ فيلم " المهاجرون ".

وأشكر الله لأني مجرَّدة من أي نفوذٍ سياسي، بعد أن اتَّضَحَ لي أني أقعُ بسهولةٍ في فخ المديح. ويدا نيكسون وهو جالسٌ ضئيلَ الحجمِ جداً. يكادُ جذعه يكون أصغرَ من رأسه. وتذوبُ قليلاً مساحيق التجميل التي يضعُها وأفرحُ لأجله لأنَّ التقاطَ الصورِ انتهى. وأُشفِقُ على وجهه، حيث تَلَطَّخَ قليلاً الصِباغ الأسود حول عينيه. كان يمكن أن يكونَ شخصيةً مأساويّة رائعة في فيلمٍ لبرغمن، لو أنه كان أفضل كممثّل.

أكلنا " دفقاً " من الكافيار وشربنا " دفقاً " من الفودكا وقامَ على خدمتنا نُدُلٌ يتنقّلونَ " بتدفُّقٍ " وسوفَ يخرجون " بتدفُّقٍ " فور انتهاء الوليمة.

إنَّ كل شيء تقريباً فخمٌ مثل حفل عشاءٍ حضرتُهُ في إيطاليا حيثُ كان كل خادم يقفُ خلفَ كل كرسي يلبس قفازاً جديداً لتقديم كل لونٍ من الطعام وسترةً جديدةً لتقديم القهوة.

أعلمُ أنَّ نقاشات سرّية طويلةً ولقاءات تكمنُ خلفَ هذه الأمسية، وأنَّ إنجازات عظيمة وكوارث يتفاوضُ حولها بضعةُ أشخاص في غرف خاصة، ولكن في هذه الليلة ما زال يبدو أنه لم يتقرَّر أي شيءٍ. والمعاهدة المتوقع توقيعها في صباح اليوم التالي، والتي ينتظرها العالم بأسره، ما زال أمرها غير مؤكَّد.

لاشك في أنَّ مستقبلنا لن يتقرَّر أثناء تناول الفاكهة ؟

يبدو أنَّ كلَّ شخصٍ يُشاركُ في لعبة الغُرف الخاصة.

يجتاحني شكٌ رهيبٌ في أنَّ الجدّية التي يُقدِّمُ بها الصحفيون تقاريرهم حول لقاءات هؤلاء الرجال هي إما لعبةٌ من نوعٍ آخر أو تلاعبٌ مدروسٌ بالوقائع.

بالنسبة إليّ يبدو الأمرُ أشبه بحفلِ يوم الافتتاح في المسرح النرويجي.

الخطابات المُلتَبَسة والكلمات والأنخاب والوعود التي، بحدّ ذاتها، لا تعني أي شيء.

أيمكنُ أن يكونَ العالمُ كله مُشاركاً في العرض نفسه؟ عدد قليلٌ من الناس يؤدُّون الأدوار الرئيسية، ويقومُ المراسلون بأدوارٍ أصغر ولكن على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية. ثم تأتي أدوارُ بقيَّتنا نحن، المشاهدون. والضحايا.

أنا جوّالة. حتى حين أظنُّ أنَّ لي جذوراً، أجدني، فجأةً، في اليوم التالي، منطلقةً إلى مدينة أخرى، إلى بلدٍ آخرَ. لكني دائماً، عاجلاً أو آجلاً، أعودُ إلى الوطن.

على خشبة المسرح في أوسلو، أو في السويد مع انغمار.

وكيلي، بول، يرى أنَّ من الأفضل لمسيرتي العالمية أن أستقرَّ في كاليفورنيا.

يُريني صوراً لأحفاده، ويملؤه الفخر وهو يدورُ مع ضيوفه في أرجاء منزله وحديقته، وحين يكونُ مع أفراد عائلته، وكلُّهم قريبون منه، تغمره السعادة.

ذهبتُ إليه لأتبيَّنَ الحاجات نفسها عندي. يصعُبُ عليه أن يفهم أنَّ في إمكاني أن أعتبرَ دوراً مسرحياً أؤديه في وطني في النرويج لا يقلُّ في أهميته عن أي شيء يمكنه أن يُقدِّمه إليّ.

نتناولُ بول وأنا طعام العشاء مع ابن ابنته الأكبر. والفتى يُلقي من خلف نظارته المستديرة إلى بول نظرةً مُنتَقِدةً، ويقول الصغير " من الواجب أن ترتدي سترةً وأنت جالس على المائدة "، ويبتسم جدُّه ابتسامةً عريضةً جداً مُبدياً افتخاره وعلى الرغم من أنَّ جوَّ الغرفةِ يتلظّى بالحرّ

فإنه يعثُر على سترةٍ ويرتديها، وأجده أكثر دماثة وسعادة من أي مرة رأيته فيها في أيٍ من مهرجانات زبائنه الافتتاحيّة.

في فيللتي في بيفرلي هيلز يحكي لي جيري براون عن حياته كراهب. لقد عاشَ طوال سنين حياة شديدة التقشُّف والبساطة في ديرٍ صارم. يُحدِّثني عن الله وعن معتقداته، عن كل الأمور الجيدة التي يودُّ أن يقومَ بها حين يحصل على السلطة السياسية. وجيري يدفنُ عصفوراً في حديقتنا، فقد ارتطمَ وهو طائر بالنافذة ومات على الفور تقريباً، فيحمله بيده مُعتقِداً أنه فألٌ، ولا أدري ما هي دلالته. واليوم هو حاكم كاليفورنيا. ولعلّه ذات يوم سوف يصبح رئيساً للدولة.

ألبّي دعوات عشاء سياسية، ظنَّاً مني أحياناً بأنَّ الناسَ الموجودين فيها أشبه بالدُمى التي تُحرَّك بالمفتاح : فالرؤوس تلتفتُ بانتظام من جانب إلى آخر بغضّ النظر عما يقولونه. والابتسامات لا تُفارقُ الوجه مُطلقاً - ولا تمتدُّ إلى العيون.

أيام الأحد بجانب بركة السباحة، وأصدقاءٌ يأتونَ ويذهبون. بعضُهم يأتيني مباشرةً من النرويج، وهم الآن يستمتعُون بالاستلقاء تحت أشعة الشمس.

أتناولُ طعام العشاء عند إميلي. إنها سكرتيرتي الصحفية الخاصة، وهي هنا صديقةٌ وبديلةُ أمي. كلباها، الصغيران والمكفهرّان، يجلسان على مائدة الطعام وهما يرتديان ربطة عنقٍ فراشيّة. وأمها، التي تبلغ التسعين من العمر، وتربتُ إميلي على وجنتها طوال الوقت، تمثِّلُ مركزَ عالمها.

أجلسُ على الأريكة في غرفة أحد الفنادق، أودِّعُ رجلاً لم أعُد أطيقُ العيشَ معه. أبكي ويبكي هو. أرفعُ نظري برهةً من الزمن. أمامنا

مباشرةً على الجدار مرآةٌ، يُحدِّقُ هو فيها، يُرتِّبُ الشعرَ المُنسدل على جبينه بينما يتنشَّق.

يتناولُ أحدهم يدي ويقرأ لي المستقبل المتمثِّل في خطوطها. سوف تمرُّ عليَّ سنتان صعبتان وبعد ذلك تأتي أفضل حُقَبُ حياتي. وأُصدِّقُ كل ما يقوله لي.

أقابلُ مُنجِّماً عالميَّ الشُهرة في إحدى الحفلات. يقبضُ على ذراعي بحزمٍ وينظُر إليّ بتركيزٍ ويقولُ لي إنني شخصيةٌ مثيرة للاهتمام بشكلٍ هائل؛ وكل ما عليه أن يفعله هو أن يرسمَ خريطة بروجي. أوافقُ، وقد أخجَلَ تواضعي - وأصدِّقُ كل كلمة يقولها: سوف أعيشُ سنتين سعيدتين سعادةً غامرةً، وبعدهما سنة صعبة جداً. وطلبَ مني مائتيّ دولار. ويقولُ إنه لم يطلب مني مبلغاً كبيراً لأنه صديقي.

أقضي ليالي طويلة موحشة جالسة يقظة في السرير، آكل سباغيتي وأسفحُ صلصةً حمراء على اللحاف، أو أُجري اتصالات هاتفية مُكلِفة جداً مع الوطن، أو أختارُ برنامجاً من إحدى قنوات التلفزيون الثلاثين.

أثناء العمل، وأنا سائرة في الشارع، في خضمّ حياتي الاجتماعية، أصادفُ، آجلاً أو عاجلاً، كلَّ الأسماء التي قرأتُ عنها، وكلَّ الوجوه التي شاهدتُها في السينما.

ترنُ فانيسا ردغريف جرسَ بابي وتحكي لي على مدى ساعتين عن الثورة، دون أن تُلقي ولو نظرة واحدة إليّ. وتبدأ أعصابي بالتوتُّر. إنها لا تتركُ لي أي مجالٍ لقول كلمة واحدة. وتطلبُ مني أن أحرِّرَ شيكاً - سوف يبنون مدرسةً في لندن لتدريب قادة ثوريين جُدد. وأقولُ إني أُفضِّلُ أن أُشبِع الموضوع مزيداً من النقاش، فهل بين يديها أي نوعٍ من البحث

الموجز يمكنني أن أدرسه وحدي ؟ ولأول مرة تنظر إليّ نظرةً مباشرة وتقولُ لي إنهم بحاجة إلى المال " الآن ". وأسألها إنْ كانت تظنُّ أنَّ الثورةَ ستكونُ ثورةً دمويّة، فتُجيبُ بأنه بالنظر إلى ما يتّصفُ به أعداؤهم من عدوانيّة فإنه لا مفرٌ من سفك الدماء. الآن باتت لا تزيحُ عينيها عن وجهي. أعبثُ بأصابع مُتيبِّسة بدفتر شيكاتي. أفكِّرُ في أنَّ بطنها مملوءٌ بوجبة غدائي، وفي أنها أطول قامةً مني بكثير، ولعلَّها تدركُ أني خائفة منها. يأمرني صوتُها بأن يحتوي الشيك على أكبر مبلغ ممكن من المال. أراقبها وأنا معقودة اللسان وهي تخرج من الباب ويدها تقبضُ على الشيك. بعدها بساعة أُرسِلُ لها برقيةً أطلبُ منها فيها أن تُحوِّلَ النقودَ إلى مُنظَّمة العفو الدولية.

جين فوندا تنال جائزة أوسكار. وفي صباح اليوم التالي، بينما أقرأ عن إحرازها النصر الكبير في الصحف، تتّصِلُ بي هاتفياً لتقولَ إنها تمكَّنَتْ من العثور على اسم ورقم هاتف اختصاصيّ رائع في المساعدة على إلقاء الخطابات، " سمعتُ أنك تبحثين عن مثله ". ثم تتمنى لي الحظ السعيد بكل حرارة.

حَلَقة الخياطة تُشاركُ في حفلات الكوكتيل في كل أنحاء هوليوود. وأفضل ذكرى حَمَلنَها هي عن أمسيةٍ أمضينها مع روك هدسن. فبعد أن صَحِبَهُنَّ إلى مدينة ديزني في يوم فراغه، أعدَّ عشاءً لذيذاً خصيصاً لأجلهنَّ. ودار بهنَّ في أرجاء منزله الجميل، الذي لم يرين مثيلاً له في النرويج كلها. خمس نرويجيات جالسات على مسطبةٍ فسيحةٍ في منزل أحد أبطال شبابهنَّ، يُراقبن الليلَ وهو يحطُّ على مدينة لوس أنجلوس.

أتناولُ طعام العشاء مع منتجٍ وزوجته. وبينما نحن نأكل نحدِّقُ إلى

ثلاثة أجهزة تلفزيون دفعةً واحدة، إنه يحبُّ كرة القدم، وثمة ثلاث مباريات تُعرَضُ على ثلاث أقنية مختلفة.

أُمثِّلُ دور نجمةٍ سينمائيةٍ مع ابنتي وأقفزُ معها بكامل ملابسي إلى بركة السباحة، لأننا سمعنا أنهم يفعلون ذلك هنا.

إنَّ دفء الناس الذين أقابلهم في هوليوود فريد. وحُسنُ ضيافتهم، وكَرَمهم.

لين تُقابَلُ بالترحاب نفسه الذي أُقابَلُ به في كل منزل. وأعياد الشكر وعيد الميلاد وغيرهما أصبحت بالنسبة إلينا سلسلة من الزيارات من منزلٍ إلى آخر حيثُ يُعاملنا الجميعُ بالعناية الرقيقة نفسها، نحنُ البعيدتان عن وطننا.

ولكنَّ لوس أنجلوس يمكنُ أيضاً أن تكونَ مخيفةً، وذلك حين يرنُّ جرسُ الباب وأجدني أمام رجل شرطة يقفُ في الخارج ويقولُ لي إنَّ عليَّ ألاّ أدعَ لين تلعبُ وحدها في الشارع. أو حين يأتي صديقٌ لزيارتنا ويُصعَقُ لأني أتركُ لين تفتح الباب.

الأمرُ مخيف، لأنَّ هناك الكثير مما لا أفهمه، وتجارب لا أستطيع المشاركة فيها. هناك من المخدرات، والأحلام المُهشَّمة، والعيون المُتعبَة، والعقول المريضة، ما يفوقُ كل ما شاهدته في أي مكانٍ آخر. هناك السطحيةُ والتملُّق؛ وقَسَمات هي من الحِدَّة بحيث لم يعُد في إمكان أي كمية من المساحيق أن تُخفيها، ومرارة وإحباط يحفران باستمرار في الوجه المكسور المُقنَّع بكل عناية بأنواع البودرة والكريم.

كثيراً ما أشتاقُ إلى أنْ أكونَ هناك في كاليفورنيا - ولكن حين أعيشُ هناك، يجتاحني اشتياقٌ أكبر إلى أرض الوطن.

لقد ترعرعتُ في بلدٍ للنورِ فيه صبغةٌ زرقاء.

على امتداد سنين كثيرة رأتْ الفصولَ تُضفي وجوهاً جديدةً باستمرار على المشهد العامّ الذي عاشت فيه. كانت تُسجِّلُ أربع مراتٍ في كل عام التغيُّر الذي يطرأ من حولها.

فتاةٌ صغيرةٌ - في يومٍ شتائيّ - بملابس صوفيّةٍ تَحُولُ بينها والبرد - تحني ظهرها اتِّقاءً لشرّ الرياح - تكادُ تتجمَّدُ من شدة البرد وكأنها تقبعُ داخلَ كرةٍ من الثلج.

ظلَّتْ تحملُ في داخلها هذا الشعورَ حتى مرحلةٍ لاحقةٍ من حياتها.

بالطريقة نفسها احتفظَتْ بسعادةِ اليوم الأول للسماح لها بالخروج وهي ترتدي الجوربَ الطويلَ وأيضاً، إذا ما حالفها الحظُ، ثوباً بكُمٍ قصيرٍ. وتضعُ معطفاً على ذراعها " تحسُّباً ".

والشجرةُ، التي ظلَّتْ شهوراً عديدةً تظهرُ خارجَ النافذة، بأغصانٍ عاريةٍ، وتكادُ تكون سوداء اللون، تحوَّلَتْ في غضون بضعة أيام إلى غلالةٍ خضراء تُخفي عنها بقية العالم حين تطلُّ إلى الخارج.

ثم هناك جمال الخريف.

لقد كان ذلك الفصل على امتداد حياتها الراشدة الفصل الذي تشعر بألفةٍ فيه، حتى وهي طفلة كان الخريفُ هو فصلها المفضَّل.

حين تتّخذُ الأوراقُ أروع الألوان الذهبية - وكأنَّ الله أرادَ أنْ يُزيّنها للمرة الأخيرة قبل أن تسقط وتموت وتذروها الرياح.

في البـيت الأبيض ضللتُ طريقي. رحتُ أسـيرُ في أروقـةٍ يـغـمـرها الظلام في الليل، مروراً بضباطِ أمنٍ وسكرتيرات يُجِبن على هواتف.

وحده المكتب البيضاوي خالٍ وشبه غارق في الظلام.

أرى صوراً عائليةً مُعلّقةً على الجدران، وكراسيَ مطْليّةً بالذهب.

الباب موارب ؛ أُدقِّقُ النظرَ في غرفة حمام أصغر حجماً بكثير من غرفتي في الوطن. أما هنا فيوجد جهاز هاتف : فيه أربعة أزرار يمكنه أن يضغط عليها طلباً لأربعة مستشارين، في حال ما تطلَّبَ الأمرُ اتِّخاذَ قرارٍ وهو جالس هناك.

واليوم، حين أرى صوراً فوتوغرافيةً لرئيس الجمهورية السابق، أتساءلُ ماذا كانت تلك الأزرار تعني له - وإن كان يفتقدها وما هي دلالتها.

* * *

في وقتٍ آخر ومكانٍ آخر أرى سريراً مَلَكياً وغرفة نومٍ مَلَكيّة، ولكن بلا ملك.

السرير أضيقُ بكثير من سريري في الوطن، وأرى زوجاً من الخفّ البالي تقريباً، وصوراً عائليةً مُعلّقةً على الجدران، وكراسيَ غير مُذهَّبة.

* * *

ذاتَ خريف دعَوتُ الماما وأختي إلى مدينة طوكيو، مسقط رأسي، حيث كانت الماما، قبل قُرابة الأربعين سنة خلتْ، في أسعد مراحل حياتها وأشدّها امتلاءً بالشباب.

عندما انطلقنا كانت مترعةً بالتوقُّعات، وتتطلّعُ إلى التحدُّث باليابانية، والتجوال في الطرقات القديمة، والعثور في الحديقة العامة على المنزل الذي كان لنا - وتدُلُّ بناتها على المكان الذي عاشت فيه أيامها السعيدة.

نصلُ إلى محطة وقود. إنها تُمطِر. نحن مُحاطون بصور فوتوغرافية، تبعتنا أثناء بحثنا عن بيتي الأول. الآن يبدو عليهنَّ الضجر ونفاد الصبر. أختي تكادُ تتجمَّدُ من شدة البرد. وأخشى أن يفسد شعري الذي كنتُ قد صفَّفتُهُ حديثاً.

الماما تتوسَّطُنا جميعاً، وحيدة ومرتبكة. تنظر إلى الجدران المُحيطة بنا، والسيارات، والمضخّات. وتكاد تخاطب نفسها " ولكن كنا نقطُنُ هنا. لابد أنَّ المكانَ هو هنا "

إنَّ ذاكرةَ الماما، التي فقدتُ منزلها، أشدُّ صفاءً من الصورة التي نُشِرَتْ في الصحف في اليوم التالي.

الماما التي تُلوِّح بذراعيها، ضاحكةً، وكأنها تأسفُ بشكلٍ مازح لأنَّ كل ما كان يؤلِّفُ ماضيها قد اندثر.

أقنعة

أنا في نيـويورك وسـأقـومُ على مـدى أربعـة أشـهـر بدور نورا في مسرحية " بيت الدمية ".

هذه هي المرة الثالثة : فبعد انفصالي عن انغمار لعبتُ الدور في إعدادٍ إذاعيّ في النرويج ؛ وفي العام الفائت لعبتُ نورا في أوسلو، ومن ثم جلتُ البلاد بالحافلة مع الرواية. وهذه المرة في مركز لينكولن في نيويورك.

العرض الأول لـ " مشاهد من حياة زوجية " افتُتِحَ مؤخراً، ووصلتُ إلى نيـويورك مـسبوقـةً بنجاحي. وعندمـا توجَّهتُ إلى هوليـوود للمـرة الأولى انتهى بي الأمر إلى أنْ أصبحتُ موضوع غلاف مجلة " تايم " ؛ والآن جاء دور " نيوزويك ". وقد بيعت جميع البطاقات لكامل العروض قبل أسبوع من بدء العرض الأول. ووصلَ إلى مكتب العلاقات العامة التابع للمسرح أكثر من مائة طلب لإجراء مقابلات. طلبتُ منهم أن يضعوا حداً لذلك.

لعلَّ هذه هي المرة الأخيرة التي أقومُ فيها بدور نورا. وأريد أن أكرِّسَ نفسي لها، وأحاولُ أن أكتشف من خلالها موقعي كامرأةٍ اليوم.

إنني أكتبُ مذكراتي، أو بالأحرى أكتبُ على قُصاصاتٍ من الورق، أتركها في كل مكان.

* * *

لا يزالَ يحدثُ (وإنْ كنتُ أعاني من ذلك) أنْ أجدني وأنا مع رجلٍ أعتذرُ لفرطِ قوتي. لأني أجده الأضعف، وربما لذلك تُخيفني تلك القوة.

أنظرُ في عينيه مباشرةً وأطري ما يُحرزه من تقدمٍ وأقلّلُ من شأن تقدُّمي.

* * *

إنني أحظى بمعاملةٍ مميَّزةٍ - أفكِّرُ في هذا بشيءٍ من الإحساس بالخجل في كل يوم بينما السيارة توصلني إلى دار المسرح، وبعد أن أتناولَ وجبة إفطار تُمَدُّ لي ببذخ على مائدةٍ ساخنة، وكلما انحنوا لي احتراماً عند دخولي مصعداً أو خروجي منه، وعندما يصحبونني إلى السيارة وهم يُظلّلونني بمظلّة لدرء المطر عني.

إنني من النوع الذي يُسمَّى بصاحب الامتياز، ولكني اكتشفتُ ومنذ وقتٍ طويل أنَّ النجاحَ بالمعنى الإنساني لا يمكنُ العثور عليه في تلك الأوساط.

إنَّ أفضل ما يمكنُ أن يُرافقَ النجاح هو معرفة أنه ليس شيئاً يُتاقُ إليه.

* * *

لن أنسى ما حييت الوحدة التي عرفتُها في طفولتي.

لقد أمضيتُ ردحاً من حياتي مختبئةً خلفَ قِناع. لم أرغب في أن أعترفَ بأي شوق.

الآن بات جزءاً مني - شيئاً يمكنني أن أتقاسمه.

أقصدُ بكلامي الوَحشَة والشوق.

* * *

أتسلَّلُ لمشاهدة عرضٍ لفيلم " مشاهد من حياة زوجية ". أريد أن أشارك الجمهور الأميركي هذه التجربة. أشعرُ بقليلٍ من وخز الفخر وأنا واقفة في الرتل الطويل، أشكِّلُ جزءاً من كل أولئك الناس المتوجهين لمشاهدة الفيلم.

إنَّ ماريان[13] ضيِّقة الصدر كثيراً في حبّها. أراها الآن بوضوح أكبر مما فعلتُ وأنا أؤدي دورها.

انفصالها عن يوهان[14] : إنها تتشبث بحبيبها وتظن أنها بذلك ستتمكَّن من الاحتفاظ به. إنها لا تقبل في قرارة نفسها الحركة المستمرة لكل شيء - بما في ذلك الحب - لذلك تذعن لقانون التغيُّر.

أبكي عندما يغادرُ يوهان، وكذا تفعلُ المرأة المجاورة لي في قلب ظلمة المسرح. وأتمثَّلُ بدقَّة شعوري عندما يُصفَقُ الباب. وتبتعد السيارة. وبعد ذلك الصمت، الذي يُعلن أوضح مما يفعلُ أي شيءٍ آخر أنه لم يعُد هناك أي بصيص لأمل. انتهى كل شيء.

ظلَّتْ ماريان سنين عديدة تسمحُ لجزء منها أن يبقى مُهمَلاً، يتألفُ من كل ما كَبَتتْه التنشئة التقليدية. موقفها من الحياة مبنيّ على العُرف والافتقار إلى الخيال ؛ كان الحبُ إلى حدٍ كبير هو إحساسٌ بالاتّكال. حاولتْ أن تؤسِّس حياتها على كائنٍ بشريّ آخر يحدوها الاعتقاد المتفائل بأنه يتمتَّعُ بقوة تكفيهما معاً.

لقد استكانت داخل ما كانت تأملُ أنه إشفاقه عليها.

الآن لم يبقَ غير الصمت. لقد تركها.

تصرخُ ماريان، حنقاً وعجزاً، تنفيساً عن كربِها. وهو كربي أنا. والمرأة المجاورة لي أيضاً تبيَّنته.

تختبئ ماريان عميقاً، عميقاً تحت اللحاف، تُقرِّر ألاّ تخرج أبداً. سوف لن تعود أبداً إلى سابق عهدها.»

بعضهنَّ يفعلنَ ما فَعَلَته نورا : يصْفِقنَ الباب خلفهنَّ ,وأخريات، مثل ماريان، يسترقن النظر من تحت غطاء السرير الذي يُصغي مطوَّلاً إلى نشيجهنّ.

ثمة تغيُّر قد طرأ والحياة القديمة انتهت، والجديدة في طور البداية.

* * *

إنني شديدة التوق إلى اكتساب التجربة - المقدرة - لأتمسَّكَ بيدٍ واحدةٍ فقط. على مدى الحياة. وبدون مطالب كثيرة.

لكني أقفُ في طريقي الخاصة. أقفُ بكُلِّيتي مثل حمولةٍ هائلةٍ مُقفلة من الرعب، مثل فصولٍ منسيَّةٍ من كتابٍ يجب استذكارها، مثل الخوف من الوحدة.

كلُّ الأمان المفقود الذي يتلبَّسُ المخلوقة المُسمَّاة ليف.

* * *

نورا تقفُ في ممر الباب وتقول : " لا أدري ما هو مصيري. لا أدري إلى أين أنا ذاهبة. كل ما أعرفه أني لم أعُد آبه لما يقوله الآخرون. يجب أن أعثر على طريقي الخاصة ".

أليس هنا تكمنُ إمكانات الحياة ؟ ليس مهماً الوصول، بل الالتزام دائماً بالطريق، بالتحرُّك المتواصل.

وأيضاً بالحب.

وأيضاً على أن تبقى اليدُ نفسُها في يدي - إنْ كنتُ محظوظة.

* * *

إنَّ تمثيل " بيت الدمية " بلغةٍ أجنبية بعد أن مثَّلتُها باللغة النرويجية لهو أمرٌ في منتهى الصعوبة بالنسبة إليّ. أضبطُ ساعتي المُنبِّهة على الساعة الخامسة صباحاً. أقرأ وأقرأ. أجري تعديلات جمَّةً على الترجمة لأنَّ كلمات نورا مفعمةٌ بالمعنى بالنسبة إليّ. إنني أفهمها بعمق، وأعتقدُ أنَّ الترجمةَ الإنكليزية قد فاتها الكثير من طبيعة نورا المتميِّزة.

إحدى المشكلات التي أعاني منها هي " غسلُ " النص النرويجي من رأسي. لقد بات من الجوهري بالنسبة إليّ الآن أن أفكِّرَ باللغة الإنكليزية، وإذا لم أستطع طرح التداعيات النرويجية ورائي، فلن أتمكَّن من النجاح في هذا.

هنا، عليّ أن أكتسب مجموعةً جديدةً من الصور ؛ شبكةً جديدةً من الإشارات. إنَّ نورا نيويورك لا يمكنُ أن تكونَ مثل نورا أوسلو.

مُنحنا ثلاثة أسابيع لإجراء التدريبات. وفي أرض الوطن كنتُ أحصلُ على شهرين. وبلُغتي الأصلية.

* * *

في الأمسيات أشاهدُ التلفزيون. لا أستطيعُ أن أخرج ليلاً حين يكون المُنبِّه مضبوطاً على الساعة الخامسة صباحاً. الإعلانات التجارية التي تقطعُ البرامجَ كل عشر دقائق - أحياناً أكثر من ذلك - تثيرُ حنقي لمصلحة جنسي.

إنهم يحثُّون النساء على تغيير عطورهن، ودَهن أيديهن بالكريم، وغسل شعورهن بأعشابٍ معيَّنة، وتجميل وجوههنّ حتى يتعذَّر التعرُّف عليهن، وتطوير أثدائهن - كل هذا من أجل اصطياد و / أو الاحتفاظ بالرجل.

* * *

كنتُ معتادة على الاعتماد على جيب شخصٍ ما فأعبُّ منه وفقَ ما يناسبني. أما الآن فأتجوَّل وأُنصستُ إلى بكاء نساءٍ أعتقدُ أنهنَّ حبيسات جيوب الآخرين.

* * *

أُدرِكُ أني ربِّيتُ لكي أكونَ كما يُريد لي الآخرون، وهكذا يحبونني ولا يأبهون لوجودي.

ذلك الشخص لم يكن أنا.

حين بدأتُ بتحقيقِ ذاتي، شعرتُ أنَّ لديَّ الكثير لأمنحه.

أضحتْ الحياةُ أكثرَ ثراءً.

أحاولُ أن أُزيلَ كل إحساس بالذنب سبَّبَته أشياء ليس لها من الأهمية ما يجعلها تقفُ عائقاً في سبيل ما أؤمن به حقاً.

تقولُ نورا لهولمز[15] " لكني لم أعِش إلا بوصفي دُميَتَكَ الخاصة، وهكذا أردتَني "

* * *

انتهى عرض الافتتاح والأمور تسيرُ على أحسن ما يرام بالنسبة إليّ. الصُحُف، والإذاعة والتلفزيون تريدُ إجراءَ مقابلات. ويتَّصِلُ بي أناسٌ لا أعرفُ إلا أسماءهم هاتفياً ويدعونني لزيارتهم في منازلهم.

بطريقةٍ غريبة لا أشعرُ بأني جزءٌ من كل هذا.

أقرأ كل ما كُتِبَ من كلامٍ جميل : آه، ما أجملها من كلمات ! آمل أن يقرؤوها هناك في أرض الوطن النرويج.

لكن هذا لا يُمثّلني. أنا امرأةٌ تشتاقُ إلى طفلتها، إلى الناس الذين تُحبّهم، إلى وطنها.

أنا امرأةٌ قلقة حولَ ما سيحدثُ بعد العرض الأول ؛ ما إذا كانت ستحصلُ على عملٍ آخر في المستقبل ؛ ما إذا كانت أُماً سيئة.

إنَّ مذاقَ النجاح لا يدومُ إلا يوماً واحداً. ويكونُ مُريحاً حين يأتي بعد فترة من العمل المكثَّف. إنه طيِّب. لكنَّ الفشلَ باتَ الآن أكثر قُرباً، لأنَّ النجاحَ لا يحتملُ إلا نجاحاً أعظم - أو فشلاً.

أريدُ أنْ أقولَ شيئاً، من خلال عملي، عن الإنسانية - شيئاً يمكنُ للإنسان أن يتطابقَ معه، وينقل رسالةً تقولُ إنه يمكنُ للناس أن "ينتموا"، وإنه من الممكن التوق لتحقيق ذلك، بحيث يفهمُ الذين يشعرون أنهم منبوذون أننا نشاركهم في ذلك : في التوق.

* * *

كان فيلم " مشاهد من حياة زوجية " فرصةً للوصول إلى الآخرين، لأنَّ الكثير من الناس تعرَّفوا على أنفسهم فيه - وإنْ بشكلٍ طفيف.

الفيلم يدورُ حول التواصُل، حول مشاركة الحياة مع كائن بشري آخر، حول رؤية الآخرين كما هم، وليس كقناعٍ يتنقَّلُ نيابةً عن الشخص الحقيقي.

لا يوجد تواصُل كامل بين الناس.

حين يُقبِّلني أحدهم لا أسمعُ أنغام آلات كمان. و " النهاية السعيدة" التي تصنعها هوليوود هي إنتاجٌ مفبرك لا ترى مثيلاً له في الحياة. إنه عالمٌ من الأحلام مُخادع لأنه يحثُّ الناسَ على مواصلة المسير على أنغامٍ مُتجدِّدة على الدوام، وهم مقتنعون بشكلٍ تام بأنهم هذه المرة عثروا على " النغم الصحيح ".

حين تنفصلُ ماريان عن يوهان يكتشفان روابطَ أقوى بكثير من رباط الزواج. إنهما يعرفان أنَّ كُلاً منهما ينتمي إلى الآخر بطريقةٍ

مبهمةٍ، لأنهما بتحرُّر كلٍ منهما من الآخر تعلّما شيئاً عن نفسيهما - تعرُّفا على نفسيهما بشكلٍ أفضل قليلاً.

إنهما ليسا كاملين، وصداقتهما ليست صداقةً كاملة. إنهما مُثخنان بالجراح، لكنّهما تغلّبا عليها.

لقد عَثَرَ كلٌ منهما على الآخر حين اعتقدا أنَّ كلَّ شيء بينهما قد انتهى.

ماريان دائماً تفكِّرُ في الحب، وهي قلقةٌ لأنها لا تستطيع أن تجعل شعورها مُشابهاً لِما تعتقدُ أنه يجب أن يكون.

" ما الحب ؟ " " هل ما أنا فيه حب ؟ "

نهاية الفيلم تُعطي الجواب :

إنه الحنان المتبادل بين الاثنين - إنه احتفاظُ كلٍ منهما بالآخر الآن.

إنه يتمثَّلُ في السعادة البسيطة.

هذا هو الحب. الحب المناسب لهما.

أما الباقي فمحضُ خيال.

أذكُرُ كريستينا وكارل أوسكار بطلي فيلم " المهاجرون ". إنهما لم يتبادلا الحديث أبداً عن مشاعرهما. ولا أظنهما كانا يُفكِّران كثيراً فيها. لكنْ حين تنطرح كريستينا وهي تحتضر على بُعد آلاف الأميال من أرض الوطن، يجلسُ كارل أوسكار على حافة سريرها، ويُمسكُ بيدها ويقولُ بهدوءٍ تام، وبثِقةٍ متناهية : " أنتِ وأنا أفضل الأصدقاء "

وما كان يمكنُ التعبير عن ذلك بأجمل من هذا.

ظلَّ التعليقُ على مسرحية " بيت الدُمية " متواصلاً في فيلادلفيا على مدى ثلاثة أسابيع. إننا نتدرَّبُ خلال النهار ونُمثِّلُ في المساء.

أريدُ من الجمهور أن ينفذَ إلى ما خلف قناع نورا، أسلوبها في التمثيل على المُحيطين بها.

أريد منه أن يرى الدمية ترقص.

بعضُ الممثلين يعملون عن طريق تخيُّل أنفسهم داخل تضاعيف الشخصية. أما أنا فأشعرُ أنَّ التحدّي يكمنُ في القدرة على رسم ما هو حقيقي في اللحظة. إنَّ الفرحَ الذي أشعرُ به عندئذٍ يشبه ما أشعرُ به وأنا أكتب.

إنني أكتبُ دوراً، شخصيةً. أحاولُ أن أقولَ كل ما أعرفه عنها على خشبة المسرح. في تلك اللحظة تقتربُ الممثلة أكثر من المؤلف. إنَّ ما أفعله على خشبة المسرح لا يمكنُ أن يقومَ على شعوري وحده، لأني حينئذٍ قد أكونُ ممتازةً في أدائي في أمسيةٍ واحدة، ولكن لأنَّ كل شيء نابعٌ من انفعالي أنا، فلن أعرف ما جعلني أضحك وأبكي، ولن أتمكَّن من تكراره في العرض التالي.

يجب أن أعرف ما أفعله مع نورا ؛ أن أقفَ وراءها، بمعنى ما - أن أقدِّمها : هل تتعرَّفون على هذه المرأة ؟

* * *

نحنُ جالسون في غرفةٍ في فندق. أسعدُ كلما اجتمعَ طاقم الممثلين بعد انتهاء العرض. إننا ننزلُ في مكانٍ مُظلم موحش. ينتابني الخوفُ ليلاً. أنامُ والمكان مُضاء. أظلُ أسمعُ أصواتاً أجهلُ كنهها. وثمة أناسٌ غرباء بهيئةٍ متوعِّدة يتسكعون خارجاً في الشارع.

إحدى الفتيات تذهب إلى غرفتها لتُحضِر شيئاً ما. ولا تعود. ثم نعثر عليها عارية تماماً على سريرها، وقد شُدَّ وثاقها، وكُمَّ فوها

واغتُصِبَتْ. فحين دخلتْ كان في الحمَّام رجلٌ، مُختبئ خلف ستارة الدش. أزاحتها - وإذا به هناك، مجرَّد من ملابسه، ويُغطي رأسه بقلنسوة سوداء، ويُمسِك بيده سكيناً لتقطيع الخبز.

ساعدتُها على ارتداء كنزتها الصوفية وبنطالها الفضفاض. وكان رجال الشرطة ينتظرون في الرواق. سوف يستجوبونها ثم تؤخذ إلى المستشفى لإجراء الفحص. لأنَّ على المرأة أنْ تُثبِت أنها قد اغتُصِبَتْ قبل أخذ الاتهام على محمل الجد.

السكين مُلقى على الأرض، وكذا قناعه، والوثاق، المصنوع من بيت الوسادة الممزَّق، يتدلَّى رطباً من عنقها. لكنَّ هذا لا يُعتَبَر دليلاً كافياً.

إنها لا تبكي، لكنني لن أنسى دهري عينيها - إنهما تتكلَّمان لغة لا أفهمها.

في تلك الليلة نمنا كلّنا معاً ؛ كان في غرفتي خمسة منا. وفي اليوم التالي انتقلنا إلى فندق آخر.

* * *

عَيَّنَ المسرحُ سكرتيرةً خاصة لي، اسمها ديبي. حجمها يبلغ نصف حجمي، لكنها قوية وممتلئة بالنشاط، وتُبعد عني أولئك الذين لا أرغب في مقابلتهم.

مُصفِّف الشعر اسمه روي. وذات يوم وصلتْ إلى غرفة تغيير ملابسي، التي كانت في السابق باردة ولاشيء يُميِّزها، فألفيتها مُزخرفة بالسجَّاد والوسائد على شكل زهرة. وثمة رداء وضع المساحيق من المادة نفسها، صَنَعَه خصيصاً لي، يتدلَّى على الكرسي.

ويقول " هذه غرفتك. في وسعك أن تأخذي كل شيء فيها معك من

أجل تزيين غُرف تغيير الملابس المستقبليّة، وسوف تظلُ دائماً الغرفة نفسها "

غرفتي.

مرَّت فترة كان خلالها يقفُ رجلُ شرطة مُسلَّح خارج الغرفة.

وأثناء الليل يسهر حارس خاص في غرفة جلوسي. وفي الشقة أسلاكٌ شُدَّت في كل الاتجاهات ؛ وساعة مُنبِّهة ترنُّ كلما هبَّتْ نسمةٌ واهنة وتلامس بأثرها سِلكَين فيها. ولم نكن نجرؤ على فتح النوافذ. ومع ذلك كان هناك الكثير من الإنذارات المُخطئة، ثم يندفع أربعةٌ من الرجال الضِخام شاهرين مُسدَّساتهم. ومرت فترة كنتُ خلالها لا أنام خلال الليل إلا بضع ساعات.

وتقول لين، التي كانت تقوم بزيارتي، إنها لن تعود إلى أميركا أبداً.

* * *

طوال حياتي كنتُ أقرأ أنَّ على الأم ومن واجبها أن تلزم المنزل مع طفلها.

إنَّ ذنبي مُتجذِّر داخلي، وإحساسي بهذا الذنب يُشكِّلُ جزءاً من حياتي اليومية. وأخشى أني أُجحِفُ بحق لين.

لكني في الوقت نفسه أعتقد أنها باتت أقرب شبهاً بي، والسبب في ذلك وبِدِقَّة يعودُ إلى سعادتي التي أستمدُّها من مهنتي التي أحب، والتي تمدُّني بحافز قويّ.

* * *

انغمار موجود في نيويورك. يبدو تائهاً ومستغرباً إلى أقصى حد. إنَّ من يعرفه كما أعرفه أنا، ويُراقبه بدون أن يراه، يبدو له بلا أي حولٍ

أو قوة، وهو وسط الشارع، تُحيطُ به حركة المرور وناطحات السحاب المتوعدة - إنْ صحَّ التعبير. بعيداً عن السكينة، ورتابة جزيرة فارو والتمشي فيها بهدوء.

إنه دائماً يلمس الأم الكامنة داخلي. كما فعل حين كنتُ في سن الخامسة والعشرين ولا أكادُ أعرف عنه أي شيء.

وقد كتبَ غوتة يقول إنَّ وقوف المرء وجهاً لوجه مع ذاتٍ أسمى، لا يسعُ ذاته إلا أن تُعلِنَ حبَّها.

بالنسبة إليّ الأمرُ ليس بهذا الشكل :

- انغمار في ردهة فندق بيير، وابتسامةٌ حائرة تُحيطُ بفمه بينما عامل المصعد ينحني له وهو يدخل.

- لين، وهي تقبضُ على يدي، وترمقني بنظرةٍ تطلبُ مني أن أرشدها إلى ما يجبُ أن تفعله.

- ورجلٌ أحبه، صوته يختنقُ وهو يتكلَّمُ، يحاولُ أن يحبسَ الدموعَ التي لا يرغبُ في أن تراها.

- الماما، وهي تدخل متهادية لمشاهدة العرض الأول، عزلاء بكل كبريائها لأنها لا تستطيع أن تفهم أنه قد لا يشاركها الجميعُ في حماسها لعمل ابنتها.

- صديقتي المُفضّلة، التي تكتبُ رسالةً طويلةً لا معنى لها، وتذكُر بشكلٍ عابر في حاشيةٍ أنَّ الرجلَ الذي كانت تُساكنه منذ سنين عديدة تزوَّجَ فجأةً من امرأةٍ أخرى.

إنها صُورٌ للأشخاص الذين أحبّهم، حين أرغبُ في معانقتهم، في حمايتهم، في مداعبتهم وفي شكرهم لأنهم بلا أي حول أو قوة - هذه هي الصور التي تُثير الحبَ لديَّ.

هناك نساءٌ يكنَّ بدون شك أسعد حالاً إذا ما عشنَ وحدهُنَّ، لكنَّهنَّ يشعُرنَ أن عليهنَّ امتلاك شخص ما ليبرهن من خلال ذلك على أنَّ لهُنَّ قيمة.

فإذا شعرنَ بالوحشة، فإنَّ جزءاً من وحشتهم ينشأ من إحساسٍ بافتقادِ شيءٍ ما، لأنَّ المجتمعَ ينظرُ إليهنَّ بازدراء وكأنهنَّ يقُمنَ بأداء دورٍ سيئ : فهنَّ لم يعثُرنَ على شريك. إنَّهنَّ لا يعشن " أزواجاً ".

* * *

أعتقد أنه أقلّ صعوبة أحياناً أنْ أستيقظ وأشعر أني وحيدة حين أكونَ كذلك، على أنْ أستيقظ مع إنسانٍ آخر وأكون معه وحيدة.

* * *

أتمنى أن أجدَ اثنين من الناس ينموان معاً، جنباً إلى جنب، وكل منهما يجلبُ الفرحَ للآخر، بدون أن يكونَ على أحدهما أن يُسحَقَ لكي يبقى الآخرُ قوياً.

لعلَّ النضجَ يعني أيضاً أن ندع الآخرين يُحقِّقون ذواتهم ؛

أن أسمحَ لنفسي أن أكونَ كما أنا.

يقولُ هلمر " لا أحدَ سيضحِّي بشرفِهِ من أجل الحب ؛ وتُجيبه نورا " إنَّ ملايين النساء قد فعلنَ "

وأسألُ سام ووترستن، الذي يقومُ بدور هلمر، إن كان سيُضحي بمهنته طوعاً من أجل امرأة إذا كان هذا العملُ، ولسبب ما، ضرورياً لاستمرار العلاقة بينهما. فيقولُ سام إنه لا يظنُّ ذلك، ويسألني إنْ كنتُ سأفعل.

" نعم، سأفعل " وأفكِّرُ قليلاً، وأردف " أعتقدُ أنَّ النساءَ تفعلُ، لأننا معشر النساء لدينا إيمانٌ راسخٌ بأنَّ الحبَّ هامّ "

ويسألُ سام " ولكن ألا تعطين نفسكِ تقديراً أفضل ؟ "

" هذا ما نفعله. إننا نتخلّى عن مهنتنا لأننا نُعطي تقديراً أفضل لذواتنا "

* * *

إنَّ العيشَ في حالةٍ من الحيرة أمرٌ ممزِّق وصعب. ولكن باتَ من الأفضل الآن أن أقبل بهذا الوضع بوصفهِ جزءاً من الحياة ؛ أن أُعايشه، لا أن أحتقره "

* * *

أتلقّى جائزةَ أفضلِ ممثلةٍ للعام من نقّاد نيويورك. وتُعيرني باربرة، التي تقومُ بدور كريستينا، ثوباً. (غادرتُ النرويج على عجَل، وحزمتُ كلَّ الأغراض الخاطئة)

يفوحُ من ثوبها عبقُ بخورٍ خفيفٍ. إنها لا تشربُ، ولا تأكل إلا الخضروات، وتُكثرُ من التأمُّل ولفتراتٍ طويلة، وتنظُر إلى الحياة وإلى موقعها فيها بجدّية مفرطة.

(بعد ذلك بشهرين قُتِلَتْ في الشارع. والقاتلُ مجهولٌ، وكذا الدافع)

وصلَ إرلند جوزفسن من السويد ليتلقّى جائزةً نيابةً عن انغمار.

نجتمعُ مع الأصدقاء، ونتجوَّلُ في المدينة. لم يكن إرلند قد زارَ نيويورك من قبل.

أعتمرُ قبّعةً للمرة الأولى منذ سنين. وكل ما يحدثُ لي خلال السهرة أختبره عن بُعد، وكأني لستُ مَنْ يمرُ به، وإنما شخصٌ آخر يعتمرُ قبعةً غريبةَ الشكلِ، ويرتدي ثوبَ باربرة.

* * *

إنني أُحرزُ نجاحاً وكل شيء يتَّخذُ بُعداً لا صلةَ لي به.

حارسٌ شخصيٌ يجلسُ في غرفة جلوسي ويُبرِزُ مُسدَّسه لكلِّ مَنْ يطرح أسئلة.

دار المسرح تزدحمُ في كل ليلة. أحاولُ أن أُمثِّلَ دورَ نورا وكأنَّ ليف ليست منهمكة في أمورٍ أخرى كثيرة جداً.

* * *

حين مثَّلتُ وأنا طفلةٌ فإنَّ الحقيقةَ الواقعةَ الوحيدةَ كانت المتعة المُستمَدَّة من خشبة المسرح. السعادة الوحيدة. ولم آبه قط إنْ كنتُ أشاطر الآخرين تجربتي الخاصة.

رسمتُ لوحات - رسمتُها ببساطة - ولم يخطُر ببالي قط أنَّ الناسَ والأشجار والمنازل يجب رسمها بأي طريقةٍ خاصة إنْ كان الآخرون سيُقدِّرونها ويُعجبون بها.

الصورةُ كانت أنا. الدورُ كان أنا.

بوصفي ممثِّلة راشدة، هذا ما أريده : أن تمثِّلَ نورا شخصيةَ نورا. يحدثُ هذا في أفضل اللحظات. إنَّ أجملَ تقريظٍ سمعتُهُ في الولايات المتحدة صَدَرَ عن كاتبٍ اقتطفَ من فلسفة زن : " لقد سمحتِ للثوبِ أن ينسُجَ الثوبَ "

على خشبة المسرح ينشأُ بين سام وبيني اتِّصالٌ رائع. أحياناً نشعرُ أنَّ الجمهورَ هو جزءٌ من هذا ويمثِّلُ معنا : نشاهدُ معاً نورا وهملر. إننا بلا كوابح نفسية ونتبادلُ العطاءَ والأخذ فيما بيننا.

* * *

التقييدُ : هو أن يكونَ المرءُ أداةً وحيدةً يستخدمها كوسيلةٍ تعبير.

بالنسبة إليّ من المستحيلُ ولا يُثيرُ أي اهتمامٍ لديّ مجرَّدَ أن أمُرَّ بحالة تغيُّرٍ كاملٍ في الشخصية من دورٍ إلى دور.

تمرُ عليَّ أيامٌ، أثناء قيامي بالبروفة أو بالأداء على المسرح، تبرز من داخلي خلالها أسرارٌ مجهولةٌ، يستثيرها تكوينُ دور، أو حوار مع شخصيةٍ مفترضة. إنه الابتهاج بإحراز تقدُّم طفيف، يُضافُ إلى أداة المرء الوحيدة.

أنا واقفةٌ على خشبة المسرح، أنا نورا، وفجأةً اكتشفَ أنها استعارت حياةً من الملكة كريستينا التي كنتُ قد جسَّدتُ شخصيتها في السابق. نورا تقومُ بتحرُكاتٍ لم تقُم بها في المرة الأولى التي أدَّتْ فيها الدورَ، فوارقُ دقيقةٌ في الصوتِ لم أكنْ أنسبها إليها في السابق - وإنما نشأتْ من التفاعُل القائم بيني وبين الملكة السويدية.

وكأنَّ كل دور جديد يغدو تلخيصاً للأدوار السابقة.

* * *

أُحبُّ نورا. إنها جميلةٌ، وقد رسمها إبسن بشكل مثالي : بحاجتها لتكونَ مقبولةً، وخوفها من التعريف بنفسها كما هي فعلاً.

إنها امرأةٌ تقولُ شيئاً وتعني شيئاً مُغايراً تماماً ؛ ترغبُ في أن يُصادقها الجميعُ، ويُحبّها الجميع. وتهتفُ " لا تغضبوا مني ! " حالما تشعرُ أنها قد تفوَّهَتْ بشيءٍ قد يكونُ مُهيناً. وهي طوال الوقت تعيشُ حياتها السريّة، وتديرُ بقوةٍ وتصميم صَفَقاتٍ تجاريّة (وهو أمرٌ غير مألوفٍ من امرأةٍ في تلك الأيام) لتُنقذَ حياة زوجها.

هذه المرأة، التي تستغلُّ المُحيطينَ بها وتبرَعُ في التعامل معهم، وفي الوقت نفسه ترغبُ في أنْ تُساعدهم وتحبّهم، ترفضُ القيامَ بأي

شيءٍ تشعرُ أنه بغيضٌ لديها أخلاقياً حين تأتي اللحظة الحاسمة. إنَّ مُخيِّلتها تعجزُ عن استغلال الوضع حين يُعلنُ الدكتور رانك عن حبه لها ويتوسَّلُ إليها أن تقبلَ منه المال الذي هي بأمسِّ الحاجة إليه.

ونورا، مثل هلمر، هي إحدى ضحايا المجتمع، وهي تتصرَّفُ بالطريقة المتوقَّعة من امرأة، من زوجة، من طفلةٍ محبوبة.

إنها تلعبُ دورها تماماً كما يلعبُ هلمر دوره. ولا يُفسِحُ أيٌ منهما للآخرَ أي مجالٍ، لأنَّ كُلاً منهما يعملُ دائماً على خدمة دور الآخر.

وعندما تنجلي بصيرتُها في آخر المطاف، تدركُ أيضاً أنَّ ما يمورُ في داخلها من غضبٍ حيالَ كل زيفٍ قائمٍ بينهما موجَّهٌ بالقدرِ نفسه ضد نفسها كما ضده. لقد كانت مسؤوليتها ثقيلة كمسؤوليته. وهي تأملُ في أن يطرأ التغيير عليه هو أيضاً - ليس لصالحها، وإنما لصالحه. ليس لأنه تتهدَّده نورا جديدة، تُبدي قوَّةً لا يفهمها، وتُخيفه، بل لأنه اكتشفَ مخلوقة بشريةً جديدةً عليه أن يتعرَّف على دوافعها ويفهمها.

أعتقدُ أنَّ أجملَ إعلانٍ، نابعٍ من الحب، صَدَرَ عن نورا هو قرارها بمغادرة زوجها.

إنها تقولُ وداعاً لكلِّ ما هو مألوفٌ وآمن. وهي لا تخرجُ من الباب لتفتِّشَ عن رجلٍ آخر لتعيشَ معه ولأجله ؛ إنها تغادرُ المنزلَ وهي أكثر ضياعاً مما كان يخطُرُ في بالها. لكنها تأملُ في أن تكتشفَ ذاتها ومغزى وجودها.

وفي هذا قدرٌ عظيمٌ من الحرية : في معرفةِ أنَّ عليَّ أن أنفصِلَ عن حياتي الحاضرة. ولا أدري لأجلِ ماذا. لأجل ذاتي ؛ لأكونَ أفضل مما أنا عليه الآن.

وتهتفُ نورا ما يقاربُ العشر مرات : " أه، كم أنا سعيدة ! " وأختارُ أن أجعلها تقولُ ذلك بدون فرحٍ ظاهر - وفي آخر مرةٍ تقولها بحزنٍ، وقلقٍ واشتياقٍ. ويكتبُ أحدُ النقّاد قائلاً إنني أحاولُ أن أساعدَ إبسن، بحيث لا يأتي الوداعُ في الفصل الأخير صاعقاً. لكني واثقةٌ من أنَّ إبسن كان مُدركاً لِما كان يفعل. فهل نحنُ في حاجةٍ إلى أنْ نتجولَّ مُكرِّرين بدون توقُّف أننا في منتهى السعادة إنْ كنا كذلك فعلاً ؟

إنَّ نورا قويةٌ، حتى في الفصل الأول : تذكَّرْ فرحتَها وهي تُخبِرُ صديقتها عن الليالي الطويلة التي قضتْها وهي تقفلُ بابَ غُرفتها عليها وتعمل.

ونورا وحيدة. حين يرنُ جرسُ الباب تقولُ لكريستينا : " إنه ليس من أجلي ".

في الفصول الأولى لا تكونُ نورا فقط العصفورَ المُغرِّدَ والسنجابَ ؛ ولا هي في الفصل الأخير مِثالُ الحكمة الصرف والقوة الأنثوية.

إنني أعتبرُ أنَّ المشهدَ الأخيرَ الذي يجمعُ بين هلمر ونورا ليسَ أداءً بارعاً خاصاً بنورا، فهذا التأويل سهلٌ جداً. ما هكذا نُغادرُ إنساناً أحببناه، وربما ما زلنا نحبه. إننا لا نرحلُ على نفخ الأبواق ودقّ الطبول تاركين ما هو مألوف لدينا ونخرجُ إلى عالمٍ جديدٍ وغريبٍ، بدون أي مخزونٍ من المعرفة.

إنَّ مَنْ تُصفِقُ البابَ من ورائها هي فتاةٌ صغيرةٌ ؛ فتاةٌ صغيرةٌ ما زالتْ في طور النمو.

* * *

إنَّ ما أمثِّله وأنا على خشبة المسرح هو واقعٌ بالنسبة إليّ ؛ أقدِّمه كما يجري في واقعي أنا. وكلٌ منهما يُشكِّلُ جزءاً من كلّ.

* * *

تقولُ نورا : " أنا أولاً وقبل كل شيء كائنٌ بشريّ "

* * *

أنا امرأة - امرأةٌ عاملةٌ وحيدةٌ معها طفلة.

امتلأتْ حياتي بكل ما يمكنُ لكائنٍ بشريّ أن يتوقَّعه - وأكثر بكثير ,

منحتُ الحبَّ وتلقَّيتُه. عرِفتُ الألمَ والحزنَ، لكنني أيضاً عرفتُ سعادةً أكبرَ بكثير مما حلمتُ به وأنا فتاةٌ صغيرةٌ.

لم أعرف معنى الجوعَ ؛ إلا أني في أوقاتٍ معيّنةٍ اضطررتُ إلى عدّ نقودي لأعرفَ إنْ كان في مقدوري أن أشتري الزبدَ بدل السمن.

أحياناً أكونُ سعيدةً وأستيقظُ في الصباح وأبتسمُ لرجلٍ أحببتُه في فترةٍ من السكينة.

إنني أحيا باستمرارٍ في حالٍ من التغيُّر، على الرغم من أني في أعماقي " فتاةٌ صغيرةٌ ترفض أن تموت "

إننا معشر الأحياء في هذه اللحظة ما نحن إلا جزء متناهي الصِغَر من شيءٍ وُجِدَ إلى الأبد وسيظلُ مستمراً حين تصبحُ الأرض أثراً بعد عين.

ومع ذلك، علينا أن نشعرَ ونؤمنُ بأننا كلُ واحدٌ.

هذه هي مسؤوليتنا - ليس فقط تجاه أنفسنا وإنما تجاه كل شيء وكل إنسانٍ نشاركه عيش هذا الزمن وهنا.

ما التغيُّر ؟

أهو شيءُ داخليّ ؟ أم أنه شيءُ أدركه عند الآخرين ؟

لعلّه دافعٌ واعٍ أقوى، وإذا كان كذلك، فإلى أين يقود ؟

لِمَ تراني أكافحُ ؟

ألكي أصبحَ أفضلَ كائنٍ بشريّ ممكن ؟ أم أفضل فنانة ؟

ما الذي أريد حقاً الآن فعله أفعله بما حقّقتُهُ ؟

ما الذي سأفعله بالتغيُّر ؟

ربما ليس من الأهمية بمكانٍ أن أعرفَ.

ربما ليس من الأهميةِ بمكان أن أصل.

* * *

في العشرين من نيسان (أبريل)، من عام ١٩٧٥، أقومُ بتمثيل دور نورا للمرة الأخيرة في نيويورك. بعد تقديم عرضَين في يوم الأحد أستقلُّ طائرةً في طريقي إلى السويد لأعملَ مع انغمار.

الفيلم[١٦] غيرَ عادي من أوجهٍ كثيرة. فهو يُعالجُ قضية الموت. الوحدة. القلق. يحكي قصة امرأةٍ في مثل سني ستصلُ قريباً إلى مفترق الطرق، وهناك تنفصلُ امرأةُ منتصفِ العمرِ عن الصبيّة. ويغدو القلقُ جزءاً من حياتها اليومية، لكنها تعجزُ عن تقبُّل الوضع. لا تستطيعُ معايشته، وتُقرِّرُ أنْ تنتحر.

من خلال مشاهد قصيرة تُركِّزُ الكاميرا على حياتها المهنيّة، على حياتها الخاصة، على محاولتها الانتحار؛ والجزءُ الأخيرُ يواكبها إلى المستشفى، وهناك تواجه نفسها من خلال الأحلام ومن خلال اعترافاتٍ تُفضي بها إلى صديقٍ وفيّ.

بين اللقطات أجلسُ مع دفترٍ أصفر وأدوِّنُ ما أراه وما أسمعه. وحين أُراجعُ ما كتبتُ فيما بعد أُدرِكُ أنَّ أغلبَه لا يعني أي شيءٍ إلا لي، أنا التي تتذكَّرُ الظروف المحيطة وترتبطُ بها ذهنياً. الناسُ في الأفلام يرطنونَ، بالنسبة إلى الشخص الغريب، بلغةٍ خاصةٍ مُبهمةٍ. لكني جمعتُ عدداً من هذه الملاحظات لأنها تكشفُ عن شيءٍ هامٍ بالنسبة إليّ.

* * *

اليوم ١ :

نستأجرُ استوديوين في مؤسسة الفيلم السويدي. في أحدهما بنوا منزلَ طفولة جيني، حيثُ يعيشُ اليوم جدّاها وحدهما.

جيني هي أنا.

في موقع العمل هذا كل شيء يتلوّنُ بتدرُّجات اللون الأخضر. المكان مزدحم بالأغراض التافهة والعتيقة، وهو جذّاب من حيث الأمان والازدحام اللذان يتَّصِفُ بهما ذلك النوع من المنازل . وحين تعودُ جيني بذاكرتها تتبدَّلُ طبيعة الشقَّة من خلال الإضاءة وإعتام الألوان وإعادة ترتيب الأثاث بشكلٍ دقيق.

الاستديو الثاني يحتوي على سرير مرض جين الذي تضُمّه غرفةٌ صغيرةٌ بيضاء لا خصوصيّةَ لها. وهناك أيضاً غرفة مكتبها، والأروقة التي تجتازها ركضاً حين تكونُ في تلك المنطقة الفاصلة ما بين الحياة والموت.

وحين لا يكونُ عندنا تصوير نختارُ غرفةَ مكتب الجدّ لنجلسَ فيها : يتَّكئ انغمار على الأريكةِ الجلدية البنّية اللون، وهو يرتدي القمصان والكنزات والبناطيل والأخفاف التي لم يتغيّر طرازها طوال السنين التي عرفتُه خلالها. وحين يبلى القديم منها يُستَبدَلُ بنُسَخٍ منها.

عادةً أجلسُ مُلتفَّةً في كرسيّ ضخمٍ مريحٍ مع جهاز التسجيل. ونادراً ما أذهبُ إلى الاستديو بدونه. أحبُّ أن أنتقي رُكناً صغيراً وأستمعَ بهدوءٍ، بهدوءٍ تام، إلى الموسيقى. وخلال تصوير هذا الفيلم غالباً ما أُنصتُ إلى موسيقى ألبينوني [١٧].

نتحدَّثُ عن عيش ذواتنا، وأسألُ انغمار إنْ كان يعرفُ أي إنسان يعيشُ، بحقّ، ذاته.

فيجيبُ بدون أي رفّة تردُّد " نعم، أعرفُ "

هذه المبالغة الواضحة تعقد لساني.

وفجأةً تبرزُ أمامي صورة. انغمار وأنا قبل زمن بعيد في مطار كوبنهاغن. إنه يكره السفر وينتابه الخوف - من الناس كلهم، من أي ضجيج. إنه يرتعبُ ؛ يشعرُ بلهفةٍ للعودةِ إلى المنزل، إلى أمان فارو. تتأخَّرُ الرحلة، فيستقلّ مصعداً وينزل بوساطته إلى مرحاض الرجال. أنتظرُ في مكانٍ قريبٍ عند إحدى الطاولات. وبعد قليل يُفتَحُ بابُ المصعد ويخرج انغمار منه، يعتمرُ قلنسوةً وترتسمُ على وجهه ابتسامةُ فخرٍ باهتة. لقد تغلَّبَ على خوفه، استقلَّ مصعداً غريباً، ودخلَ مرحاضاً غريباً، وعاد أدراجه وحده وبدون عونٍ من أحد. يقتربُ مني، محنيَّ الظهر قليلاً، وقد اختفتْ الابتسامة الخفيفة. لكنَّ تعبير الخوف المُطلّ من عينيه لم يعُد مندفعاً، وأدركَ أنَّ الرحلةَ سوف تتواصلُ.

* * *

لين وأخوها غير الشقيق، دانييل، يحضران تصوير الفيلم كل يوم تقريباً. انغمار يتنازعه الصراع بين دوره كأب ودوره كمخرج. وأحياناً يعجز عن أداء أحدهما لإحساسه بفشله في أداء الدور الآخر.

كلبتنا الجديدة، سيفان، مُستلقية في غرفة تغيير ملابسي. إنها كلبة صيد ذهبيّة اللون، عنيفة وغير مهذَّبة، وتفترسُ كل الأحذية والجوارب التي تعثر عليها. وتقضم نُتفاً صغيرةً من أثوابي، وتُبلِّلُ الأرضَ وهي تُحيّي انغمار - وتمزِّقُ رسائلي إرباً.

اليوم ٢ :

الثقة المتبادلة مُهمَّة في العمل السينمائي. إنَّ الممثل الذي يشعرُ بالأمان مع المخرج، الذي بدوره يثقُ في الممثل، سوف يُنجِزُ من خلال شراكة العمل هذه أكثر بكثير مما يفعلُ لو أنَّ مثل تلك الشراكة غير موجودة.

يتحدَّثُ انغمار عن مدى أهمية الإحساس بالأمان بالنسبة إليه كمخرج. وما أسرع ما ينتابه الخوف حين يشعرُ أنه يفقدُ اتِّصاله مع الممثل - فحين يغيبُ الاتِّصال بينهما لا يعودُ يتعرَّفُ أحدهما على الآخر. ثم يلُفُّ الظلامُ الأشياءَ. وفي مثل تلك اللحظات يشهدُ المرءُ إحدى نوبات غضبه الشهيرة.

الدور الذي ألعبه الآن كُتِبَ خصيصاً لأجلي، وفي هذا يكمنُ إحساسي وإحساسُ انغمار بالأمان. كلانا يشعرُ بأنَّ في وسعي أن أتطابقَ مع جيني ؛ أنَّ في إمكاني أن أحوِّلَ جيني إلى ليف.

إنه مبنيٌّ على تجربتي الخاصة، على تجربة الآخرين - على كل ما سمعته ورأيته خلال ستٍ وثلاثين سنة.

يوم أعطاني انغمار مخطوطة الفيلم أعطاني أيضاً الحقَّ في أن أشعرَ منذ ذلك الحين فصاعداً أني أفهمُ الدورَ بشكلٍ أفضل. لقد أضحتْ هي حقيقتي أنا بقدر ما هي حقيقة انغمار. وبفضل عونه، وعبقريته، وحساسيته في الإنصات والنظر، أدركتُ أنَّ معرفتي بها سوفَ تلتقطها الكاميرا.

إنَّ العملَ مع انغمار هو مسافاتٌ من السعادة حين يبدو كل شيءٍ حقيقياً.

اليوم ٣ :

الغُـرَفُ خـضـراء اللون : الكراسي، الجـدران، النبـاتات، الموجـودات، كل شيء يتلوَّنُ بتدرُّجات اللون الأخضر. مع بعض المصابيح التي تنشرُ الضوءَ وتخلقُ ظِلالاً مُغايرة، يَشيعُ سْفن نيكفست، المُصوِّر السينمائي، جوَّ أيامٍ خوالٍ.

يلعبُ غـونار بيـورنسـتراند وإينو تاويه دور الجَدَّين، وأنا أراقبـهما وهما يُمثِّلان مشهداً.

غـونار يجرُّ قدميه بخُفَّيه الكبيرين جداً عليه. وإينو ترتدي جورباً. الوقتُ ليلٌ، والجدُّ ينهضُ ليـمـلأ المنبِّه. إنه قلِقٌ ؛ خـائفٌ من الموت. إنَّ عليـه قريباً أن يموت، ويتشـاءمُ من الساعـة المعطَّلة. إينو تواسيـه، تضمُّـه إليها، توبِّخه قليلاً، وتمزحُ معه.

أفكِّرُ في جدَّتي أنا، التي توفيتْ قبل زمن بعيد، ولا أزالُ أفتقدُها.

أفكِّرُ أيضـاً في مـوتي ؛ يبـدو الآن أقـربَ كـثـيـراً مما كـان قـبل بضع سنوات فقط.

أنا أؤمنُ بالله، وأعـرفُ أنه إنْ كـان في إمكـاني فـعـلاً أنْ أؤمنُ بالحياة الأبدية فسوفَ يتلاشى الموتُ ويختفي الخوف.

لكنَّ هذه تجربةٌ روحيَّةٌ لم أمرّ بها بعد. كلُّ ما حولي يدلُّ على أنه لا وجودَ للموت. وبعد الشتـاء يأتي الربيعُ، ولكن إنْ لم أكن جزءاً من هذا، فأنا غير قادرة على معايشته بوصفه حياة.

إنَّ خوفي من الموت يُقيِّدني ؛ يتركني عرضةً له.

اليوم ٤ :

إنه يومُ أحد وأنا مستلقيةٌ على ملاءة اشتريتُها في أميركا مُغطَّاة بالورود والتفاح ومُخرَّمة الحواف. وفي الأسفل في الحديقة لين تلعبُ مع كلبتها. الساعة لم تتجاوز الثامنة، وهي تضحكُ وتصرخُ. أعرفُ أنَّ الجيران يسعونَ إلى النوم، لكني لا أقومُ بأي تحرُّكٍ، لأنهم يرفعون صوت المذياع وجهاز التلفزيون ليلاً حين أسعى أنا إلى النوم.

أستلقي على وردي الخالي من الشوك، وأعملُ : أحفظُ مناجاة ذاتيّة طويلة تُخبرُ فيها جين زوجها بأنها تفكِّرُ في الانتحار.

تدخلُ لين وتُخبرني بما تعلَّمته الجروة، وأسمعُ صوتَها يقولُ إنها قد ارتقتْ لتوِّها الدَرَجَ وحدها للمرة الأولى، في حين أنَّ جيني تقولُ من داخلي بصوتٍ مُتعب إنها بعد قليل سوف تتناول مائة قرصٍ منوِّمٍ وتموت.

أعلمُ أني بعد بضعة أيام وحين سألقي هذه الأسطر أمام آلة التصوير سوف تتجمَّعُ في عينيَّ لأني سأتذكّر فجأةً لين كما هي الآن : بثوب الرياضة وشارب من الحليب، تحاولُ بلهفةٍ أن تُقيمَ اتِّصالاً، وهي غير مدركةٍ على الإطلاق أني لا أكادُ أسمعُ أي شيءٍ مما تقول.

اليوم ٥ :

أحياناً يرتدي انغمار فردة جورب زرقاء والثانية صفراء - يحدثُ هذا عادة في اليوم الأول لتصوير فيلم. وكلنا مقتنعون بأنَّ هذا سيجلبُ الحظَّ الحسن لعملنا.

انغمار يأكلُ وحده. وغذاؤه يتألَّفُ من بيضةٍ مسلوقة، وقطعة من الخبز المُحمَّص مع مربى الفريز، وطاس من الكريما الحامضة. وعلى طاولة

صغيرة موجودة في الاستديو يحتفظُ باحتياطي من بسكويت هشّ، وشوكولاة وصودا.

هو وأنا نزرع الرواق جيئةً وذهاباً، نناقشُ أمرَ كآبة جيني. لا أحد من حولها يلاحظها إلا بعد فوات الأوان.

لقد ضاعتْ قدرتها على التجريب؛ والتبايُن بين مستويات الشدَّة التي كانت في السابق تواجه بها المِحَنْ، والجمال، والآخرين، وما تشعرُ به الآن قد باتَ أكثر حِدَّة.

لقد كانت جيني حاذقة؛ نجحَتْ في أن تعيشَ دوراً، أن تعيشَ خلف قناع، أن تخفي ألماً. أحياناً كان يتَّخذ شكلاً مادياً، فتشتري لمعالجته أقراصاً ومراهمَ من الصيدلية. لكنها في أغلب الأحيان تكون متماسكة تماماً.

حاولتْ أن تتغاضى عن الخوف ونجحتْ في ذلك إلى أن جاءتْ اللحظة التي واجهَتْ فيها مرابع طفولتها.

هنا ينهارُ الصَرْحُ - هنا تتعطَّل وسائل دفاعها.

في غُرَفْ طفولتها الآمنة هذه لا تجد تفسيرات عقلانية عندما يُداهمها الخوفُ فيما بعد. إنَّ الخطرَ يوجدُ حين تنعدم الوسائل لمكافحته.

أعتقدُ أنه من المنطقي ألاّ تدرك جيني مطلقاً أنها تريدُ أن تموت قبل أن تذهب إلى مسقط رأسها لتزور جَدَّيها.

اليوم ٦ :

أرى نفسي أشبه بمنخل؛ تنفذ من خلالي مشاعر الجميع، لكني لا أقدر بأي حال أنْ أحتفظَ بها.

في المساء أنطرحُ خاويةً - استعداداً للغرق في اليوم التالي في انفعالات جديدة.

أنا صبيانيّة ؛ أغوصُ في السعادة حين أتلقّى مديحاً.

يقولُ لي انغمار بعد الانتهاء من تصوير أحد المشاهد "ما كان في إمكاني صنع هذا الفيلم من دونك. على أي حال، كان سيكونُ مختلفاً تماماً"

إنه ينطوي على الكثير مما لا أعرف عنه شيئاً - على الرغم من أنَّ في استطاعتي أن أشعرَ بأغلبه.

أما ما يُريده فأشعر به بوضوح : هناك أتعرَّفُ على نفسي فيه.

ذلك هو قَدَري كممثلة.

إنَّ نساءه[١٨] ، اللواتي دائماً أجدهنَّ واقعيات، يُصبحنَ جزءاً طبيعياً مني. ولا أصدِّقُ أنهنَّ خُلقنَ على صورتي. وحتى إنْ أسنَدَ إليّ دوراً يبدو غير مألوف لدي، أعرفُ أنه بينما يكتب يعلمُ أنَّ في إمكاني أن أفهم الشخصية - وأنَّ لديَّ احتياطياً من التجارب يمكن الاستفادة منه عندما يُرادُ الكشف عن تجاربها هي.

أحياناً يُثيرُ كلٌ منا دهشةَ الآخر. وهذا أفضل الأمور قاطبة.

أرى نفسي أيضاً هاويةً نهِمة ولا تخجل من جمع الابتسامات والدموع، والعواطف والتعبيرات، الخاصة بي وتلك التي أراها في الآخرين، وذلك لاستخدامها فيما بعد في عملي.

اليوم ٧ :

كان وقتاً متأخِراً من المساء - بالنسبة إليّ على الأقل، بما أني استيقظتُ في الخامسة والنصف. وتقطر سيلا، اختصاصية التجميل،

قطرات في عينيّ - سائلاً أزرق يُحوِّل أشدّ العيون احمراراً إلى صفاءٍ أعجوبي.

مساء أمس ارتديتُ ثوباً قصيراً ووضعتُ شعراً مُستعاراً قصيراً، ولم يكن أيٌّ منهما يشكِّل جزءاً من ذوقي المعتاد في ارتداء الملابس. ولأول مرة منذ زمن طويل يقولُ لي الناس " إنك أصغر سناً بكثير بحيث تتذكَّري ... "

اليوم نتحدَّث عن الموت، بتحريضٍ من الفيلم. إينو تفقد معاً زوجَها وأمَّها في غضون فترة وجيزة. إنها تخبرنا عن أمها، التي لم ينتبْها أي خوف أثناء مرضها ؛ فقط حزِنَتْ واجتاحها نوعٌ من الحنق العقيم لأنه كان عليها أنْ تغادر ابنتها. وزوج إينو توفي إثرَ مرضٍ مزمن مؤلم. وخلال الأشهر الأخيرة من حياته كانت تربطُ رسغها برسغِهِ أثناء الليل، لكي تعرف بهذه الطريقة إذا ما استيقظَ ليلاً أو اضطَرَبَ نومه.

وهذا أيضاً حب.

نتحدَّث عن خوفنا من الموت. في المجتمعات الأضيق يُشكِّلُ الموتُ جزءاً أكثر جلاءً من الحياة اليومية. يُحمَلُ التابوت خلال شوارع ضيّقة، ويتبعه أهالي القرية. وهي طريقةٌ أرقُّ وأكثر خصوصيّة في الوداع. إنَّ الناس هم الذين يقتربون من إنسانٍ فارقَ الحياة، وليس السيارات.

* * *

اليوم يُبيِّن المشهد جيني حين تستيقظ بعد يومين من النوم العميق. لقد نامتْ وأطالتْ النوم، هاربةً بذلك قدرَ إمكانها من عذابها. وما كنتُ لأمثِّل مثل ذلك المشهد قبل بضع سنين. كنتُ سأحاول أن أبذلَ مجهوداً مُضنياً، أنْ أجعله أكثر تعقيداً، أن أكونَ متوتِّرةً وعصبيّة. الآن أنا أمزحُ

في فترات الاستراحة، ومن ثم أستعيدُ تركيزي مع الآخرين حالما يقولُ انغمار " تصوير ! "

وعند الانتهاء أشعرُ برغبةٍ في القفز والرقص ونذهبُ لاحتساء القهوة.

أشعرُ بفخرٍ شديد.

أبدو هادئةً تماماً، وأناقشُ مع سيلا وَصَفات بعض أصناف الطعام، في حين أني من الداخل أشدو " لقد نجحت ! لقد نجحت ! "

اليوم ٨ :

اليوم سنصورُّ مشهد الانتحار. طلبَ انغمار إحضار نسخٍ طبق الأصل من أقراصٍ منومِّة حقيقية. ووعدّ المُصنِّع بأنها ستكونُ مملوءةً بسُكَّرٍ ذي نكهة العنب، فهناك مائة منها، تملأ زجاجةً كاملة.

أكادُ أمرضُ من شدة الخوف، أتخيَّلُ أنَّ المُصنِّع قد ارتكبَ خطأ، وأنها ربما تحتوي على المادة الحقيقية.

يسودُ الاستديو جوٌ من الانقباض ؛ الجميع ظاهرُ العصبية. يوجِّه انغمار إليّ إرشادات مُفكَّكة ويقولُ " الآن سنرى ما يحدثُ "

" تصوير ! "

لا أدري كيف سأؤدي المشهد. إنني في المعتاد لا أكادُ أستطيعُ ابتلاع قرص أسبرين بدون أن أسعل وأتجشّأ، والآن عليَّ أن أبتلع مائة قرص.

تُرتِّبُ جيني غطاء السرير، تنفش وسادتين حتى تنتفخا وتُثبِّتهما بشكلٍ جميل لكي يرتاح رأسها عليهما، وتنزل الستارة المرِنة، وتوصِد

الباب، وتمدّ الغطاء مرةً أخرى، ثم تجلس على حافة السرير، وتملأ كأساً بالصودا، وتفتح زجاجة الدواء، وتضع قرصَين، ثلاثة أقراص في يدها. تحشو بها فمها، وتشرب، وفجأةً تبدأ يد جيني بالارتعاش بعُنفٍ شديد حتى أنَّ الكأسَ تضربُ على أسناني - وبينما جيني تحاولُ أن تنتحر أعرفُ أنا كيف تشعر.

الإعدادُ الطويلُ الأمد، المرضُ الغريبُ. جيني وأنا ننفِّذ الأمرَ معاً. إنني في وقتٍ واحد أعايشه وأقفُ بعيداً أراقبه ؛ أعيشُ واقعَ الانتحار.

في فمي دُفعة واحدة عشرة، عشرون قرصاً تنزل بسهولة. تزدادُ جيني اضطراباً باطِّراد، لكنَّ ملامحها تبقى هادئة. تجلسُ برهةً وهي تنظرُ إلى الزجاجة الفارغة، تهزّ رأسها، ثم تستلقي وتُريحُ رأسها على الوسادتين اللتين أعدَّتهما : تبقى كذلك لبعض الوقت مُحدِّقةً إلى السقف.

يخطرُ لي فجأةً أنه سيكونُ من المناسب جداً إذا ما نظرتْ إلى ساعة يدها لتُحدِّد وقت موتها - وفي اللحظة نفسها تخطرُ الفكرة لي، وتنفِّذها.

ولا يتحوَّلُ الأمرُ إلى تمثيل إلا حين أُديرُ وجهي نحو الجدار ولا أموت.

بعد ذلك أشعرُ أني فارغة. ألاحظُ أنَّ هناك شخصاً يبكي.

ليس فقط الممثل بل أيضاً المشاهِد يمكنه في بعض الأوقات أن يُشارك في الوهم وكأنه واقع.

انغمار هادئ ومستكين ويقول " حسنٌ، على الأقلّ لستُ مضطراً الآن إلى أن أنتحر "

اليوم ٩ :

اليوم وقعَ صِدام بيني وبين انغمار. وبدا وجهه أشبه بوابلٍ من المطر عندما رآني ذاهبة لتناول الغداء مع مراسل صحفي. فيناديَ عليَّ ويهمس لقد مللت. مللتُ منك ومن مراسليك الملاعين، فأردُ عليه همساً " وأنا في منتهى السعادة لأنه لا سُلطةَ لك عليَّ ؛ لأني لستُ مضطرَّة إلى رؤية وجهك طوال الوقت - لأني الآن بتُ أعرفكَ حقّ المعرفة ! "

نفترقُ غاضبين. هو يذهبُ إلى مكتبه وإلى الكريما الحامضة، وأنا إلى الحديث الصحفي، حيثُ أشرحُ للمرة الألف لماذا العمل مع انغمار برغمن رائع جداً.

بعد الانتهاء أعودُ إلى غرفة تغيير ملابسي وأنفجرُ بالضحك لأني أستعيدُ منظرنا نحن الاثنان واقفان في الصالة وكل منا يصرخ في وجه الآخر همساً بينما المراسل، متوهِّج العينين، يُخمِّنُ أنه إنما يشهد مقطعاً من أروعِ علاقةِ عمل أجلسُ على الأريكة، أضحكُ وأضحكُ. أتساءلُ ماذا سأقولُ حين سأقابله في موقع العمل. سأضطرُ إلى التظاهر بالسعادة، وأستعيرُ " النظرة الحزينة " التي تبرع أمي في رسمها أيّما براعة. وبينما أتهيَّأ لهذا، أسمع قرعاً على الباب ويدخل - وأرى أنه كان يضحك مثلي، على الكريما الحامضة. مربى الفريز.

لقد كنا نغضب، ولكن بدون أن ندع ذلك مطلقاً يؤثِّر على عملنا.

كنا فقط نتهامسُ قليلاً - عند اللزوم.

إذا كان التعاون بين المخرج والممثل جيداً، يكونُ في أقصى توتُّره، وغالباً ما تشوبه لمسة عدوانية - تصدر عادة عن الممثل. فإذا رحتَ تتلقى الأوامر من مخرج طوال نهار كامل - كي تمشي وتقف وتتكلَّم،

وتنظر بطريقة معيَّنة، وتأخذ فسحة تناول طعام الغداء الآن وينتهي يوم عملك الآن (حتى وإنْ صَدَرَتْ عن عبقري) - فسيخطر في بالك أحياناً أن تقول : اقتلْ هذا الرجل. أريد أن أتحرَّر، أن أشعرَ بالحرية. أكرهه.

ثم تنفث غضبك على شكل سُحُب صغيرة من البخار، ويعرف الجميع أنَّ الأمرَ ليس ذا أهمية.

اليوم ١٠ :

انغمار يتحدَّث عن أمه، عن خوفه من إساءة التصرُّف وهو طفل. وذات مرة حين ضُبِطَ متلبِّساً بتبليل سرواله ألبسته ثوب أخته الأحمر وأجبرته على الخروج به إلى الشارع.

يتحدَّث عن مذكرات أمه، التي تُعيد إلى الحياة امرأةً لا تعرفُ العائلةُ عنها أي شيء. ولم يتعرَّفوا عليها كما هي إلا بعد وفاتها، من خلال يومياتها السرِّية.

وخلال أيامها الأخيرة، وبينما هي مستلقية وأنبوب موصول بأنفها قالت فجأة لانغمار " إنَّ أمي لم تولِ أي اهتمام بي "، وأخذت تبكي.

وذات مرة، عندما قمتُ بزيارة للنرويج، صحبني انغمار إلى المطار. وفي السيارة قال لي " أمي توفيتْ اليوم "

كانت قد أصيبتْ بنوبتها القلبيَّة الثالثة، وأراد القيِّمون على المستشفى الاتصال به وإخباره، لكنها قالت لهم " إنه كثير المشاغل. دعوه وشأنه "

وعندما اتَّصلتْ الممرضة به أخيراً كان الأوان قد فات. وحين وصلَ إلى جوار سريرها كانت قد توفيت.

كانت أظفارها مطليَّة بطلاء أحمر، وكانت قد وضعته بعناية في اليوم السابق.

وهتفت قائلاً " الآن لم يعُد لي أحد "، وبدا عاجزاً تماماً.

وأدركتُ أنه لا يمكنني أن أتركه أبداً، ولم أفعل، بشكلٍ أو بآخر.

اليوم ١١ :

توصّلنا إلى تفاهم، لكننا لم نتحدَّث عنه، لأنه كان من الممكن أن يُسبب دماراً. وأعتقدُ أنَّ كلينا له الحاجات نفسها. لذا في استطاعته أن يستغلني، وأستطيعُ أنا أن أستغلَّه لأنه يستغلني ؛ فذلك يُتيحُ لي إمكانية أنْ أفعل ما أريد فعله.

اليوم ١٢ :

أحد الأشياء التي أحبها في مهنتي، وأجدها صحّية، أنَّ على المرء على الدوام أن يتفتَّت إلى أجزاء، فلا يُتاح للجِراح أن تتقيَّح.

ممثلةٌ أكبر سناً موجودة بيننا اليوم تحكي عن الخوف الذي ينتابها بعد أن تقاعدت ولم يعُد المسرح بحاجة إليها. ليلاً نستيقظ وهي تصرخ. وأضحتْ الكوابيس تفسد نومها الذي كان طوال حياتها نوماً عميقاً.

* * *

إنّ ما يحدث لدورٍ ما يُشبه الحياة، والآن وأنا جالسة أتحدّث مع زملائي، تعيشُ جيني داخلي. بحيث أني بصورةٍ ما هي ؛ ودموعها وخوفها وغضبها تظل مفتوحة داخلي لكي أستخدمها في تجسيد شخصيتها.

اليوم ١٣ :

يأتينا زائرٌ من هوليـوود، هو تشـارلي تشـابلن - الرجل الودود الحكيم الذي أعرفه من خلال زياراتي العديدة لأميركا.

ابتهجَ من أساليبنا في العمل، المختلفة عن أساليبه التي تعوَّدتُ عليها في استديوهات لوس أنجلوس.

أثناء احتسائنا القهوة يُجري حواراً مع انغمار. وأجلسُ بجوارهما، أصغي. فيتحدَّث انغمار عن الهالة التي تحيطُ ببعض الممثلين. ويأخذُ يتغنّى ويمدح بعض مَنْ سمع عنهم وقد وصلوا إلى مقرّ العمل متأخرين، لكنهم يتمتَّعون بسحرٍ طاغٍ، والذين لا يحفظون حوارهم، لكنَّ جاذبيتهم هائلة ؛ الذين يُحضِرون عشقهم إلى الاستديو، لكنَّ هذا أمر مفهوم فيهم، ويمنحهم طبائعهم الحسَّاسة.

ويقولُ، إنَّ هذا كلّه زاخرٌ بالبهجة والمغامرة، وما يُطلَبُ منهم لا يمكنُ أن يُطلَبَ من محترفي المِهَنْ الأخرى، ويهزُّ تشابلن رأسه موافقاً. ويحمر وجهي غضباً. إنه هنا يقابل كل يوم مجموعةً مُخلِصة من الممثلين، فخورة بالحرفية المطلقة التي يطلبها منهم. وانغمار لا يسمحُ ولو للحظة واحدة لأي كان أن يقوم بما يتغاضى هو عنه الآن وهو يبتسم.

أحقاً يعرف معنى أن يأوي المرء إلى السرير في الساعة السابعة في كل ليلة لكي ينهض من نومه قبل شروق شمس صباح اليوم التالي، ويحفظ دوره، وليصل في الوقت المُحدَّد لوضع المساحيق. وليقف أمام الكاميرا، ويستسلم لفطرته الفاحصة ؟ هل يفهمُ انغمار لماذا أثورُ عندما يتحدث عن هواة متفهمين. في حين أنه يطلب من شركائه في العمل دعماً كاملاً ؟

أحياناً يستشيطُ غضب المرء من المخرجين، من رؤساء العمل، من الرجال عموماً ؛ من افتقارهم العجيبِ للمنطق - فتارةً يُثقلون المُقرَّبين منهم بالمطالب وطوراً يُمطرون المعارضين لهم بشكلٍ مباشر بعبارات الإعجاب. ما أبعدهم عن الواقعية في موقفهم مما يؤمنون به من دخيلتهم وما يُعبِّرون عنه. وفي تعاملاتهم مع بعضهم بعضاً لا توجد إلا حقيقة واحدة، ومع ذلك يحتاجون إلى حقيقة أخرى إذا أرادوا فعلاً أن يعملوا.

ثمة حقيقة للأحاديث - وأخرى للحياة.

اليوم ١٤ :

أحبُّ اللقطات المُقرَّبة ؛ أعتبرها تحدياً. فكلما اقتربتْ الكاميرا ازداد توقي إلى أن أُظهِرَ وجهاً مُجرَّداً تماماً، أو أبرِزَ ما تحت الجلد، وخلف العينين ؛ وما في داخل الرأس، أنْ أكشفَ عن الأفكار التي تتشكَّل هناك.

إنَّ عملي مع انغمار يعني القيامَ برحلةٍ استكشافيّة داخل ذاتي الخاصة ؛ يعني قدرتي على أن أتعرَّفَ على كل ما حلمتُ به وأنا فتاةٌ صغيرة.

يعني أن أطرح القناع وأظهر ما يكمن خلفه.

الكاميرا تقتربُ كثيراً - وتأسر قدراً كبيراً جداً من ذاتي.

على شاشة السينما يظهر الكائن البشري أقرب ما يمكن من الجمهور من أي وسيلة أخرى.

إن الكاميرا تواجهني وأنا أكثر انكشافاً مما يعرفه العاشق الذي يعتقد أنه يقرأ أفكاري.

حتى عندما أقول لنفسي إنني إنما أعبِّر عن دورٍ تمثيليّ، أعجزُ عن أن أُخفي تماماً هويتي، وما يُميِّزني.

حين يصلُ الجمهور إلى لحظة التطابق فإنه يواجه إنساناً، وليس دوراً تمثيلاً، ليس ممثلة، بل وجهاً يُقابله مباشرةً، فيقول :

هذا ما أعرفه عن النساء. هذا ما اختبرته أنا، ورأيته. وهذا ما أريد أن أشارك فيه.

إنَّ المسألة لم تعُد قط قضية مساحيق تجميل، وشعر، وجمال.

إنها انكشاف يذهب لما هو أبعد من ذلك.

حين تقترب الكاميرا أحياناً قدر ما يستطيع انغمار بلوغه، فإنه ليس فقط يُظهِر وجهاً، بل أيضاً نوعَ الحياة التي عاشها هذا الوجه.

الأفكار الكامنة خلف الجبين، شيءٌ لا يعرفُ الوجهُ نفسه عنه أي شيءٍ، لكنَّ النظّارة سيرونه ويتعرَّفون عليه.

إننا، سراً، نتوقُ بالضبط إلى هذا النوع من المعرفة : أنَّ على الآخرين أن يدركوا كياننا الحقيقي ؛ دخيلتنا.

إنَّ الاشتراك في عمل فيلم سينمائي مع انغمار يعني، بالنسبة إليّ، المرور بهذه التجربة.

يعطيني دوراً، يعطيني جيني، وأعمل على خلق الشخصية، ويفهم هو على الفور مَنْ تكون. هنا تكمن عبقريته : مقدرته على تطابقه مع الآخر، والتمييز، وعينه وأذنه الرائعتان.

اليوم ١٥ :

اليوم الإضاءة مُعقَّدة جداً، ونجلس في المكتبة نتبادل أحاديث مُطوَّلة. ويستغرق انغمار في ذكرياته عن الضوء والصوت. ويقول بنبرة

ندم معـينة إنَّ الأصـوات المُثـارة من حـولنا تخـتلف تمامـاً عن تلك التي يتذكَّرها من عهد الطفولة. يحكي عن عِربات الخيل التي يأتيـه صريفها من الخارج عبر النافذة في الصباح، وخبب الخيول في الطرقات، وساعات الجدران التي تتكّ بصـوتٍ عـالٍ وتدقُ كل خـمس عـشرة دقـيـقة، ومـرور الرياح من خلال أنابيب المدفأة.

أنا أيضاً أذكرُ الصوت الذي يُصدِره حذائي في فصل الربيع بعد أن يكون الثلج قد ذاب على حصى شارع مونك.

انغمار نشأ وترعرعَ مع مصابيح الكيروسين، وأنا شاهدت مصابيح الشارع يُضيئها في مساء كل يوم رجل يحمل عصا طويلة. وقد وَصَلَتْ إلينا أنوار النيـون بعـد ذلك بوقتٍ طويـل. الأضـواء في طفـولتي كـانت تتـلألأ. وكانت الأمسيات أكثر حِلكة - حِلكة مختلفة عما نعرفه الآن، تزيد من انتشارها الإعلانات التجارية وواجهات المحلات.

حين كنتُ صغيرة كانت النوافذ كلها أكبر بكثير، وكان كل منزل يُعلّق ستائر مختلفة. وكانت اللوحات المُعلّقة على الجدران تحملُ معها بالنسبة إليّ إيحاءات قوية جداً حتى أني ظللتُ أحتفظ بها على امتداد حياتي بوصفها تجربة خاصة.

في طفـولتي كنا نحـضر محاضرات نشاهد خـلالها صـور الشرائح المنزلقة لبلدان أخرى. أمـا الآن فإنَّ العـالمَ يضـرب ابنتي كل يوم بصـور حيّة على شاشة التلفزيون.

والروائح. هي أيضاً اختلفت. أذكر الروائح العبقة المنبعثة من الفحم ومدافئ الخشب.

وكان لدى انغمار مرحاض إفرادي. ويحكي كيف أنَّ الأطفال كانوا يختبئون تحته ويختلسون النظر إلى كل المؤخرات.

أذكرُ صديقاً نشأ وترعرع في مزرعة صغيرة كنا نمضي فيها عُطُلنا الصيفية، ولم يكن قد شاهد مرحاضاً حديثاً من قبل وجاء ليمكث معنا في المدينة. فشدَّ السلسلة وأعتقد أنَّ البحر برُمَّتِهِ قد بدأ يتدفَّق إلى شقَّتنا. ولم نتمكَّن من ثنيه عن العودة على الفور إلى منزله إلا بعد ساعات من المناشدة.

يُخيَّل إليّ أني حين كنتُ فتاةً صغيرة كان الطعام يستغرق وقتاً أطول في طهيه على المدفأة. وكانت دائماً تفوحُ روائح الطعام - أنواع الحساء، والبهارات وخبيز الكعك المُحلّى.

حين كنتُ صغيرةً كانت الروائحُ أكثر.

رائحةُ جدَّتي. ورائحةُ كرات النفتالين حين تصب على الملابس الشتوية لحفظها. وتضعُ الماما أزهار الخزامى بين البياضات في الخزانة. ورائحة الحبر في المحبرة.

ربما أيضاً لأنَّ الإنسان يجمعُ الكثير من الانطباعات الحيَّة من محيطه المباشر، تغدو الأحاسيس أكثر حدَّة.

بل يبدو أنه في فترة شبابي الأول كانت الأشجارُ والزهورُ تبثُ من الضوءِ أكثر مما تفعلُ هذه الأيام.

اليوم ١٦ :

لدينا الكثير من الممثلين الثانويين. إنهم مرضاي داخل كابوس. جيني طبيبة، وتدخلُ إلى غرفة مكتبها لتجدَ أنها مزدحمة بالمُعانين بأرديتهم البيضاء. تشقُّ طريقها بصعوبة بينهم، تتوقفُ عند بعضهم، وتتبادلُ معهم بضع كلمات، ثم تتابعُ طريقها. وطوال الوقت يمدّون أيديهم نحوها، يتشبَّثون بها.

أيدٍ غريبة دافئة تلمسني، على كل أنحاء جسمي. الجو حارٌ جداً في الاستديو. إنني عصبيّةٌ وأنسى الحوار. انغمار لم ينمْ جيداً وصدره ضيِّق.

يرميني الممثلون الثانويون بنظراتٍ مُرتابة حين نضطرٌّ إلى تكرار مشهد بعد مشهد لأني أرتكبُ أخطاء.

يُطلِقُ بعضهم زفرة ضيقٍ حين أنسى سطراً، اسمعُ تمتمات تدور بين مجموعةٍ من الغرباء بيض الملابس. " إنها ترتكبُ الأخطاء طوال الوقت، "إنها ترتكبُ أخطاءً "

يثورُ حنقي من انغمار الذي يتركني أتعرَّضُ لهذا، وحين يُقرَعُ الجرس إيذاناً بتناول وجبة الغداء أهرعُ إلى الاستديو، وأصرخُ في وجه زوجته في الرواق أثناء مروري قائلةً إنني أكره زوجها.

في وقتٍ لاحق من بعد ظهر ذاك النهار أفتِّشُ عن ارلند وهو زميلٌ عزيزٌ ومؤتَمَنْ. ألِجُ غرفته بدون استئذان، والغضبُ والإحساس بالمذلّة يتأججان داخلي. وأفضي إليه، يملؤني العِداء، بأسرارٍ عن انغمار، وأنسجُ أكاذيبَ حوله. أفضحُ حقيقة وجبات الغداء التي يتناولها وحده قائلةً إنها كومةٌ من الصُحُف المُصغَّرَة[19] لا يريدُ لأحدٍ أن يدري أنه يقرؤها.

يرتسمُ على وجه ارلند تعبيرُ غريبٌ جداً ؛ لا ينظرُ إليّ، ولا يُجيبني. يرين صمتٌ فوري، وألتفتُ وأنظرُ باتجاه النقطة التي تتركَّزُ عليها عينا ارلند. أرى انغمار جالساً في أحد الأركان ويرسمُ على وجهه ابتسامةً صغيرةً غريبةً، ويبدو حزيناً.

من مكانِ وقوفي أموتُ قليلاً وأهتفُ " لا أحتملُ هذا ! " وأنطلقُ مسرعةً خارج الغرفة، خارج مؤسسة السينما، بعيداً في الفناء إلى أنْ

أرى قفصاً له غطاء. أدخُلُ فيه، على الرغم من أني أكبر منه بكثير، وأضعُ الغطاءَ فوقي وأقرِّرُ أن أبقى فيه حتى آخر حياتي.

تصلُ سيلا، وتُحدِّجني بنظرةٍ وتطلبُ مني أن أخرج.

يحاولُ ارلند إقناعي، لكنني أرفض الخروج. أقرِّرُ أن أجلسَ حيث أنا وإلى الأبد.

أخيراً - وبعد وقتٍ طويل، طويل - يأتي انغمار ويقرعُ على الغطاء.

ينتظرُ أن أفتحَ، إلى أن أهمسَ " ادخل "، فيسألني " هل تريدين أن نعودَ أصدقاء ؟ " ويكون وجهه لطيفاً.

تزحفُ أولمن خارجةً ويتواصلُ العمل.

اليوم ١٧ :

عَرَضَ انغمار في الليلة الفائتة كاملَ الفيلم، الذي لم يكن قد شاهدَ أي جزءٍ منه أثناء عمله.

اليوم الجو العام مُتوتِّر.

عَقَدَ لقاءات خاصة مع ممثلي كل دائرة رسمية على حدَة. بدا الرضا على البعض، وانسحبَ آخرون إلى أحد الأركان يغلُب عليهم مزاجُ متأمِّل.

إنني متوتِّرة الأعصاب حتى قبل أن أقابلَ انغمار. اليوم سوف تتذبذبُ جيني ما بين الرغبة في الحياة والرغبة في الموت، بين الوعي واللاوعي. إنه حلمٌ من سلسلة أحلام، حلمٌ جميلٌ ويبدو في المخطوط مُفعماً بالخيال والتجدِّي، لكنه لم يتكلَّم كثيراً عن هذه المشاهد - ربما

لأنه لم يتوصَّل بعد في ذهنه إلى الشكل النهائي لتنفيذها. إلى أي حدٍ أنا حيَّة ؟ أو ميتة ؟ إلى أي حدّ الموتُ حقيقيٌ ؟

تحدَّثتُ مع الناس عن أحلامهم. إنَّ أغلبهم يرى أنَّها تحدُثُ على حافة الواقع - التفاصيل وحدها تفصِلُ الأحلامَ عن الحياة الواقعيّة : الألوان، الظلال، الرؤى المفاجئة، اللقاءات غير المنطقية.

عنَّفَني انغمار لأنَّ صوتي خلال التصوير في اليومين الأولَين كان أجش كصوت غراب، والآن توجَّبَ علينا أن نُعيدَ كل شيء. أشعرُ بالذنب، على الرغم من علِمي أنَّ ذلكَ مردُّه جزئياً إلى التعب. إذ فورَ عودتي من أميركا بالطائرة - في اليوم التالي لآخر عَرضٍ لي على مسرح برودواي - جلستُ على كرسي وضع المساحيق هنا، ولعبتْ الأعصابُ والتوتُّر أيضاً دورهما، وكانت حالةٌ من تواتُرٍ في الحنجرة تشكِّلُ مُشكلةً خلال السنوات القليلة الأخيرة. ربما لأني كنتُ أرهِقُ نفسي بالعمل. وأنا أجتمعُ بمدرِّبِ إلقاءٍ في كل يوم بعد انتهاء التصوير، غالباً لِما يُقاربُ الساعتين. وقد اجتمعتُ أيضاً باختصاصيّ في أمراض الحُنجرة، فدهَنَ لي حنجرتي المسكينة، وتفكَّرَ فيها، وسلَّطَ عليها ضوءاً - ليصلَ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ حِبالي الصوتيّة أصبحَتْ أشبه بحزَمٍ من الفولاذ.

أعدَ انغمار بأني سأذهبُ إلى اختصاصيّ أمراض الحُنجرة مرة أخرى في الغدَ لأخضعَ لفحوصاتٍ جديدة. وأعدَه، وأنا متوتِّرة الأعصاب، بأنَّ صوتي لن يكونَ أجش بعد الآن. ثم يطلبُ مني أن أكُفَّ عن تناول الشطائر المفتوحة الوجه مع قهوتي. وهو أيضاً يُفضِّل أن ألغي وجبة العشاء لدى عودتي إلى المنزل، وأضع يدي على معدتي، أيضاً كما وعدته، لأغطِّيها.

فيما عدا ذلك هو يدَّعي أنه راضٍ عن عملي. يشعرُ أني أفهمُ ما يريد أن يفعله بجيني.

أرتدي ثوب جيني الأحمر، الذي ترتديه في أحلامها، ثوبٌ أحمر طويل، غالباً ما يكونُ أيضاً ذات قلنسوة حمراء. أنا واثقة من وجود شيءٍ له صلِة هنا مع الجدران الحمراء في فيلم انغمار " صرخات وهمسات"، التي قال عنها إنها تمثِّلُ لونَ الروح.

تدخلُ جيني مُسرعة إلى شقَّة خالية ؛ ثمة إضاءة مخفية تُنيرُ أثاثَ جدَّيها. تنادي جيني على أمها، وجدّها، وجدَّتها، وأقربُ الأشخاص إليها. لا يأتي أحد. الصمتُ يلفُّ الغُرف كلها. تجلسُ مُنهارة عند الطاولة، وترى وجهها مُنعكساً على سطحها الصقيل. ومن بين أخيلةٍ تظهرُ عند الزاوية تبرُزُ المرأةُ التي ترمزُ إلى قلق جيني من قلب ذلك العدم المُظلم.

تلعبُ هذا الدور توره سيغليكه، وهي إحدى أعظم ممثلات النرويج.

إنها تُحيطُ كتفيها بشال، وتجرّني برقَّة متناهية نحوها وتقول " الآن لم يعُد هناك ما تخشينه "

توره تقومُ بأداء أول دورٍ سينمائيّ لها وهي في سن السبعين. إنها شخصيةٌ رائعةٌ ؛ الجميعُ يُحبُّها. ويقولُ انغمار إنها تُجسِّدُ بالنسبة إليه كل ما تعنيه المرأة. ولكن في هذا الفيلم لا تُتاحُ لها فرصةٌ كبيرةٌ لإظهارِ ذلك.

اينو أيضاً تلجُ حلمَ جيني. ويقول انغمار إنَّ أمراً غريباً يحدثُ لفمها لدى استعدادها لتصوير لقطةٍ مُقرَّبة. وتقول اينو " أعلمُ، أعلم. هذه طريقتي للدفاع عن نفسي "، فيسألها انغمار بلطف " هل الدور صعبٌ عليك ؟ " فتجيبه الممثلةُ " في مجال الفن، لا يهتمُ المرء كثيراً بنفسه "

اليوم ١٨ :

نتحدَّثُ عن الحياة، انغمار، غونار، اينو وأنا. يقول انغمار " كلما كبرتُ في السن أفكِّرُ أكثر في أمي. وحين أنظرُ إلى أخي يُخيَّلُ إليّ أننا بالأمس فقط كنا نركضُ حُفاةً في الحديقة، ويتململُ الخوفُ داخلي "

يقولُ غونار إنَّ الموتَ ظاهرةٌ غريبة. وهو مرعوبٌ منه. ثمة رجلٌ كان يعرفه، أوى إلى سريره حين قيلَ له إنَّ القيامة باتت وشيكة. ورَقَدَ هناك وظلَّ ينتظرُ عشرينَ عاماً.

ذهبتُ إلى الطبيب وأجريتُ فحص دمٍ جديداً، وفحصاً جديداً للحُنجرة. ثمة خطب، وأنا قلقة. لقد أثَّرَ بي كل ذلك الحديث عن الموت. وأشعرُ بصورةٍ غامضةٍ أنه أقربُ من ذي قبل. قبل ذلك لم أكن أُفكِّرُ فيه مطلقاً، لم أكن أفهم عندما أسمعُ الناسَ يتحدثون عن توقهم إلى انتهاء الحياة.

الوقتُ بعد الظهر، وأنا جالسةٌ وحدي أستمعُ إلى الموسيقى. يمرُّ بي انغمار، يتوقَّفُ برهةً ويربتُ على رأسي. يسودُ سكونٌ بيننا. ثم يقولُ "أشعر كأني على متن قطار - درجة أولى - أعبرُ الزمن. أمر غريب جداً"

يجلسُ على الأريكة الخاصة به، ويضعُ ساقيه على الطاولة. إنه يرتدي جورباً رماديّ اللون - يشبه تماماً ذلك الذي كان يرتديه قبل خمس سنوات، قبل عشر سنوات.

وفجأةً يقولُ، مُخاطباً الهواء " أنت وأنا أنجبنا معاً طفلاً "

ومضةٌ من الذاكرة :

لين في الأسبوع الرابع من عمرها، ومصابة بالمغصّ وتبكي وتبكي. انغمار جالسٌ معها على السرير، ينزعُ عنها ملابسها - ثم ينزعُ ملابسه

هو ؛ ثم يضعُ جسمها الصغير المتيبِّس والمتشنِّج، على بطنِهِ العارية. فإذا بها تهدأ، ويستغرقان معاً في النوم متلفِّعَين بدفئهما.

اليوم ١٩ :

في عيد العنصرة أذهبُ إلى كوخي في ساندفجورد. إنه يقعُ فوق قمة جرفٍ عالٍ. أمامي لا أرى إلا البحر. أحبُ هذا المكانَ. مساحةٌ ممتدَّةٌ تكتنفني من كل جانب : طبيعةٌ. حجارةٌ، أشجارٌ، وطحالب.

أستطيعُ أن أركض بعيداً، بعيداً، بعيداً.

ثمة كلبٌ، يكادُ يُجنُّ تيهاً، يحفرُ حفرةً في الأرض، ويغطِّيه الوحلُ ويكادُ يختفي داخل الأرض، ولا يبرز منه إلا ذيله.

لين لديها أسرارٌ وأماكنُ للإخفاء. تعودُ إلى المنزل قادمةً من الغابة المسحورة والغابة البيضاء - أماكنُ لن اعرف عنها أي شيء. تُحدِّثني عن صديقها المُقرَّب " يرْ "، الذي يعيشُ في مكانٍ ما بعيد لا تستطيعُ أن تأخذني إليه. ثمة أناسٌ شريرون وآخرون طيِّبون، ولين تقودُ حرباً تدور بينهما وهي حربٌ ضروس.

طفولتي برُمَّتها هناك في مكانٍ ما تُرافقها.

نحن الراشدون نجلسُ أمام الموقد ونراقبُ الأشكالَ الغريبة لألسنة اللهب، ونستشعرُ الحرارة على وجوهنا، أو نذهبُ للتمشّي لمسافاتٍ طويلة، أو نقرأ، أو نراقبُ الأيامَ والليالي عبر النوافذ الكبيرة تأتي وترحل.

أراقبُ البحرَ، يتغيَّرُ على الدوام.

أمواجٌ صغيرةٌ، صغيرة تُغضِّنُ سطحَ الماء وكأنها تهتفُ " انظري

إلينا - انظري كيف نجعلُ البحرَ يبدو كبيراً وقوياً ". إنها لا تعرفُ كم من مليون منها يوجد. ومن ثم تتحطّمُ على الصخور.

سُحُبُ السماء، الألوان، الظلام الذي يهبطُ ويُغلّفنا.

كل شيء يُشكّلُ جزءاً من منزلي القائم فوق قمة جرفٍ، في مكانٍ ما من النرويج.

اليوم ٢٠ :

نعودُ إلى ستوكهولم. اليوم ستشتركُ لين في الفيلم. ثمة قصفُ رعود في الجو، وأعتقدُ أنَّ انغمار تأثَّرَ من ذلك. وزهو غاضبٌ جداً لأنَّ لين أُصيبتْ بالبرد. إنه يخافُ حتى الموت من الجراثيم، ويرميني بنظرةِ حنقٍ أخرس ألاحظه بوضوحٍ تام. الإحساسُ القديم بفقدان الأمان الذي كنتُ أشعرُ به في مواقف مشابهة يمنعني من قول ما أريد قوله له : أي أنَّ لين كانت تترقَّبُ حلولَ هذا اليوم منذ أشهر طويلة لكي تشتركَ مع البابا في تصوير الفيلم، وأنها استيقظتْ في الخامسة والنصف صباحاً لتطيرَ من النرويج إلى السويد. وكيف استعجلتْ الأمورَ وهي في السيارة، وفرحتُها بثوبها الجديد وحذائها الجديد.

والآن قيلَ لها إنَّ الدورَ الذي كانت قد وعِدتْ به قد اختُزِلَ إلى مشهد " طفلةٍ نائمة".

أهذا عقابٌ لها لأنها أُصيبَتْ بالبرد ؟

ويقولُ لي حين تطلبُ أن تُعفى من القيام بدور "طفلة نائمة" وأن تُعطى على الأقلّ دور"طفلة مُنصتة" : "سوف تصبح ممثلة في المستقبل".

لين تتعلَّمُ الكثيرَ اليوم. أعلَمُ هذا. وأعلمُ أيضاً أنَّ هذا مؤلمٌ، وأني عاجزةٌ عن مساعدتها فيما عدا إفراطي في حُسنِ معاملتي لها لاحقاً.

تظهرُ الشمسُ حين نذهبُ نحن الاثنتان إلى سكانسن بعد الظهر. في حديقة حيوان الأطفال ثمة صيصانٌ وقطيطات. هناك مسرحيةٌ يُعَدُّ لها. نجلسُ متقاربَين على مقعدٍ قاسٍ، نتفرَّج. أمٌ تغلي غضباً من الداخل على والد الطفلة الذي لا ينسى للحظة واحدة خوفَه من المرض. وفتاةٌ صغيرةٌ تبدو سعيدة.

أطبخُ ذرة وهي على قولحتها[٢٠] على العشاء، وهو طبقنا المفضّل - مع الكثير من الزبد والملح. انكببنا على الأكل بنهَم. يدور بيننا حديثٌ حقيقي - ونأخذ وقتنا. بعد ذلك نشتركُ في حمّامٍ غزير الرغوة، ونشاهدُ نشرة الأخبار في التلفزيون، نتناقشُ، ونحتسي الشوكولاة الحارة.

في السرير نجلسُ ونرسم. هي ترسمُ فتاةً تضحكُ وموفورة الصحة وفتاة أخرى تبكي لأنها مريضة.

نُطفئ الأنوار. هذه الليلة ستنامُ لين في سريري. أضبطُ ساعة المنبه على الساعة الرابعة والنصف من صباح اليوم التالي، لكي أستطيع أن احفظ دوري حينئذٍ بدل الآن.

إنني حتى لا أهتمُّ بمعرفةِ ما يجولُ في تفكير والدها بعد انتهاء يوم العمل هذا.

لعلَّه كان فقط يفكِّرُ في فيلمه. وهذا ما يسمحُ للآباء بفعلِه.

اليوم ٢١ :

في اليوم التالي نمثّلُ المشهدَ الذي يدورُ في مكتب جيني. إنني لا أحفظُ حواري، على الرغم من أني راجعتُهُ مراراً في ذلك الصباح. أنا يائسة، وأتذكّر ما قاله لورانس أوليفييه : فقد ظلّ طوال

سنين عديدة يُعاني من رهبة خشبة المسرح العنيفة لأنه كان ما إن يبدأ بإلقاء أول سطرٍ حتى ينسى كيف ينتهي.

أشعرُ كأني حيوانٌ في قفص. الجميعُ يشعرون بورطتي. يتحدثون فيما بينهم بأصواتٍ منخفضةٍ ويتجنّبون مخاطبتي مباشرة.

سيلا تغمزني غمزات مُشجِّعة، لكني أفهمُ من عينيها أني في حالٍ يُرثى لها. وأضمُّ لبرهةٍ رأسي بين يديَّ.

صبرُ انغمار لدى الاضطرار إلى إعادة المشهد مراراً لأني أنسى حواري لا يُعزّيني البتّة.

الممثل الذي أؤدي معه هذا المشهد يشتركُ في أول يوم تصوير له، وأشعرُ أني أُفسدُ أيضاً عمله هو. إنَّ عصبيتي مُعدية.

أقفُ وحدي أواجه الكاميرا. أؤسسُ الدور. أُظهِرُ موهبتي من خلاله. أقولُ الحوارَ كله. وأنا محطّ الأنظار طوال الوقت. والجمهور يُحيطُ بي ليشهد اندحاري.

أخيراً يأخذني انغمار من يدي ونتمشّى جيئةً وذهاباً في الرواق. أستعيدُ أحداثَ اليوم السابق مع سيل كم الدموع، وأُريه الرسمَ الذي رَسَمَته لين في الليلة الفائتة.

يطلبُ انغمار مني الصفحَ بكل عناية ويقولُ إنه لم يحظَ بقدرٍ كافٍ من النوم منذ وقتٍ طويل. إنه قلق على فيلمه، يخشى أن يمرض، ويفشل في إنجازه.

ويقودني ببطء إلى فوق حيثُ غرفة وضع المساحيق، حيثُ تنتظرُ سيلا لتتولّى أمرَ ما تبقّى من وجهي.

* * *

بينما أقودُ السيارةَ باتجاه المنزل، ألاحظُ شيئاً جديداً في مشهد المدينة. هناك مزيد من البيوت التي يقفُ على أبوابها حرس مسلَّحون. فقد قُتِلَ عددٌ من الناس في إحدى السفارات قبل قُرابة الأسبوعين. فأرسلوا رجلاً إلى النافذة وأطلقوا الرصاصَ على ظهرِهِ، أمام عيون كل مَنْ كان يقفُ في الشارع.

وحلَّ الخوفُ لكي يبقى.

يمكنُ أن أواجه الموتَ فجأةً وأنا أسيرُ في الشارع الذي أقطن.

اليوم ٢٢ :

الكوابيس تراودُ لين فتزحفُ لتأوي إلى سريري. أستلقي وأراقبها بينما ما زال الصباحُ باكراً في الخارج.

أراها طفلةً تستيقظُ بشكلٍ يختلفُ تماماً عن طريقة الكبار. بصدرها الذي لا هو لذكَر ولا لأنثى - بل مجرَّد صدر عصفور صغير نحيل.

تُحيطُ بثغرها ابتسامةٌ تخصُّ الوجه كله - غاية في الرقَّة.

تشعُّ ومضَةُ سعادة من بين رموش عينيها عندما تشعر أني أستلقي معها، وأنَّ لدي متَّسعاً من الوقت.

الطفلةُ، التلقائيَّةُ والرقيقة، التي تربتُ عليَّ، وتعودُ إلى النوم من جديد - تتقلَّبُ وتتنهَّدُ وتحلمُ.

اليوم ٢٣ :

نُحضرُ اليوم ممرِّضةً مُخلصةً إلى الاستديو وثمة أنابيب موصولة إلى أنفي وإلى ذراعي. الممثلة التي ستقوم بدور الممرضة تتلقَّى إرشادات من ممرضةٍ مُحترفة.

أمرٌ بالتجربة المُشابهة لتلك عندما ابتلعتُ مائة قرصٍ من الدواء.

هذا واقع. الفيلم والواقع يندمجان. وفي الفترة الأخيرة بتُّ شديدة الانغماس في التفكير في الموت بحيث أصبحَ لكل ما له رائحته ذكرى خاصة عندي.

لستُ خائفةً من الموت في هذه اللحظة، ومع ذلك لا تني هذه الأفكارُ تراودني.

الجوّ مشحونٌ. يبدو انغمار مضطرباً، ولا أدري السبب. لديَّ إحساسٌ بأنه يبذلُ مجهوداً ليكونَ ودوداً. وحين يبيِّنُ لي إلى أين يجب أن أذهب، لم يمسكني من ذراعي بحميميّة وخِفَّة كعادته. أصابعه. أصابعه تقبضُ عليَّ بقسوة وتشنُّج.

أعتقدُ أنَّ هذا الفيلمَ يؤثِّرُ فيه أكثر من أيٍ من أفلامه السابقة، كأنه يعيشه. ولاحقاً، حين سيُصدِر الآخرون حكمهم عليه، يشاهدونه، ويتحدثون عنه، سيصبح ط أعزلَ فقطس.

* * *

إنني أقطنُ في شقة قديمة. لا يفصلني عن منزل انغمار وانغريد إلا عرض الشارع. وهما اللذان أعادا زخرفتها لأجلي. لكل غرفة لونها الخاص البهيج والقويّ. في غرفة النوم ستائرُ من فيلم " صرخات وهمسات "، وفي غرفة الجلوس أثاثٌ من فيلم " مشاهد من حياةٍ زوجية". ثمة ملصقات على الجدران، وفي غرفة لين دُمى أحضَرَتها انغريد من منزل طفولتها.

أحياناً نقفُ عند نوافذنا ونلوِّحُ لبعضنا بعضاً أثناء تبادُل الحديث عبر الهاتف. وإذا كنتُ مسافرةً في رحلة قصيرة أراه في انتظاري

لخشيتهِ من أن يكونَ قد وقعَ لي مكروه. أحياناً يُعلِّقُ قائلاً " لاحظتُ أنكِ في الليلة الفائتة كنتِ تُضيئينَ الشموع - يا سلام، يا سلام " أو " يبدو أننا بالأمس أوينا إلى السرير مُبكِّراً "

أشعرُ كأني عدتُ طفلةً من جديد، حين كانت الماما تتحقّقُ من الوقت الذي عدتُ فيه إلى المنزل، ومع مَنْ كنتُ في الرواق، وكم أمضيتُ من الوقت هناك.

اليوم ٢٤ :

يقولُ انغمار " الآن أشعرُ أني وجدتُ التوازن. ولم يعد العيشُ يُعذِّبني "

وفي كل مرة يُعلِنُ هذا يُصدِّقه، لأنه دائماً يقوله في يومٍ حَسَن.

ويُعلِّقُ ارلند " ليتَ هذا صحيح ! إذن لما اضطررنا إلى المجيء إلى هنا والانتحار ؛ لما عانينا ووقفنا في الزوايا وشعرنا بالخزي "

ويضحكُ انغمار. إننا في منتصف الأسبوع. وكلنا في أحسن أحوالنا. لقد مر وقت طويل منذ أن حظينا بفترة راحة ؛ وتطلَّعنا إلى يومِ عطلةٍ تالٍ لم يُعكِّره بعدُ روتين عملنا. الآن، بالنسبة إلينا، ليس هناك إلا الفيلم. وخاصةً بالنسبة إلى انغمار، الذي يتجوَّلُ في المكان وهو سعيد. بل إنَّ الرضا يتمثَّلُ في خفِّه وفي كنزته الصوفيّة.

أضواءٌ وكاميرا - كل شيءٍ يعملُ - أو إحساسٌ أجمل بالعمل الجماعي. مثل هذه الأيام، مثل تلك الغبطة المتواصلة، هي ما أتوقُ إليه وأنا في هوليوود، مُحاطة بمائة شخص.

اليوم ٢٥ :

اليوم جيني ستصرخ. وكانت ذاتَ مرة في طفولتها قد جاشتْ في صدرها صرخةٌ ألم لَمْ تخرج أبداً. ويحاولُ ارلند، الذي يقومُ بدور صديقها الطبيب، أن يُعيدها إلى تلك اللحظة.

ربما ليس فقط إلى هذه الصرخة الوحيدة، بل إلى كل ما انطوتْ عليه وحَمَلَته داخلها، إلى المؤلم، المخيف، الحقود، اليائس. تصوَّر، إننا هنا على الأرض ما نحن إلا جيشٌ كاملٌ من النساء نكبتُ كل صرخاتنا الخرساء، وجيشٌ كاملٌ من الرجال يصرخون. ولا يسمعُ أحدنا الآخر.

يكتبُ انغمار قائلاً إنه ربما لا توجدُ كلمات لتصلنا، ربما لا يوجدُ واقعٌ، وإنَّ الواقعَ لا يوجدُ إلا كتوق.

لا أدري. إنْ كان الأمرُ كذلك، أليسَ التوقُ واقعياً ؟ وأيضاً رغبتنا في أنْ نتبادلَ الحديث حول ذلك، وشوقنا إلى قبولِ إحساسنا نحن وإحساس الآخرين بالخوف.

اليوم ٢٦ :

أحبُ التحدّي التقني. أقفُ عند علامة رُسِمَتْ بالطباشير وسط مشهد عاطفي صعب. أعلمُ طوال الوقت أين تقفُ الكاميرا وفي أي زاوية يجب أن أكونَ بالنسبة إليها.

أشعرُ في داخلي بصوتٍ يوجّهني وفي الوقت نفسه أستسلمُ إلى وضعٍ لم يكن قط يخصُّني، على الرغم من أنه من الآن فصاعداً سيُشكِّلُ جزءاً من تجربتي في الحياة وكأنه قد حدثَ في الواقع.

إنَّ خوفَ جيني يُذكّرني بشيٍ كان ذات مرة حياتي ؛ ذكرى نائية من

عهدِ الطفولة : الخوف من الظلام، والأصوات التي كنتُ أنصتُ إليها خلالَ الليل، وأنفاسٌ لم أكن أجرؤ على ترديدها حتى أكادُ أختنقُ وأنا مستلقيةٌ أحبسها.

وتنهُّدات لم أُطلقها أبداً.

مُعظم ما خبرتُهُ أستخدمه في مهنتي : الإرهاق، الاشمئزاز الخوف الذي عرفتُه.

إنَّ تجاربي في الحياة تتحول إلى تجارب في التمثيل، والتي بدورها تصبح تجارب حياتيّة.

أصرخُ مع جيني في مواجهة الكاميرا، وبعد ذلك أشعرُ بارتياحٍ غامر.

تخيَّل كمْ من تجربةٍ يمكنُ للمرء أن يُضيفها إلى عمله بعد موته، ناهيك عن التجارب التي يقدِّمها للأحياء.

اليوم ٢٧ :

يوم الجمعة. تطلُّع للقيام بنزهات، للاجتماع العائلي، وقوارب ومنتجعات صيفيّة. وضعتُ خُططاً لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في كوخٍ مع بعض الأصدقاء. لين تُحضِرُ كيسَ النوم. وخلال الأسبوع يذهبُ الأصدقاءُ ليُعِدّوا المكان.

لكنَّ انغمار يرى رؤى، ولا يريدني أن أذهب. فقد حلُمَ بأنَّ حادثاً مؤسفاً ما سيقطعُ تنفيذَ الفيلم.

وأعلمُ أني سأضطر إلى التخلُّف، وإلا كانت بداية الأسبوع لا تُحتمل : سيرميني انغمار بنظرات مرتابة حالما يقعُ بصرَه عليّ. هل

أنا مصابةٌ بالبرد، هل ألمَّ بي خطبٌ ؟ هل أنا مُرهقةٌ ؟ هل تلاشى تركيزي على الفيلم ؟ وموقفه هذا مُعدٍ، فسوف تتوتَّر أعصابي، وأنسى الحوار، وتزداد حماستي. وأقومُ بفعلِ أي شيءٍ لكي لا أُفسِحَ له المجال لانتقادي - وبهذا أمنحه كل الأسباب.

إذا غادرتُ، سأعرفُ أنَّ سهرة انغمار ليوم الأحد ستكون مسرحاً للقلق. سوف يزرعُ المكان جيئةً وذهاباً من النافذة وإليها، ليرى متى سأعود، هذا إذا عدتُ.

واضطرُّ إلى المكوث في المنزل.

وبينما الآخرون يُخطِّطون لتوزيع نشاطاتهم، أجلسُ أنا بشكلٍ دراميّ وأعاني في أحد الأركان وأفكِّرُ بكل الطعام الذي سأتناوله خلال عطلة نهاية الأسبوع، بعد أن ألوِّحَ مودِّعةً لين والآخرين.

سوف أمدُّ مائدةً بجوار النافذة وأبدأ برمي شرائح اللحم السميكة على مرأى من انغمار واحدةً إثر أخرى. سوف أرفعُ كأساً بعد كأس من النبيذ والخمر نخب المقطع الجانبي لوجهه الظاهر من خلف الستارة. وكل لقمة من بودنغ الكاراميل أزدردها ستكونُ أشبه بطعنةٍ أسدِّدها إلى الستارة.

اليوم ٢٨ :

جيني تُصابُ بهستريا. إنها عاجزة عن إقامة أي تواصُل مع أي إنسان. ترى ابنتها في الحلم، تركضُ خلفها، تناديها. وتختفي الابنة، تتوقفُ جيني، تصرخ، تميلُ برأسها وتسنده إلى الجدار. هنا من المفترض أن ينتهي المشهد، ولكن فجأةً تبدأ جيني بضرب رأسها بقوةٍ على

الجدار. وأكتشفُ متأخرةً أنَّ الحرفَ حادّ، لكني لا أستطيعُ أن أتوقَّف ؛ الكاميرا تدور. ثم إنَّ جيني، في حالتها تلك، لن تشعر بأي ألم، وتستمرُ بضرب رأسها، وتضرب، وتضرب.

وتقفُ ليف جانباً في حالةِ توتُّرٍ عصبيّ ورأسها مملوء بالكدمات.

اليوم ٢٩ :

جيني لديها طفلةٌ في الرابعة عشرة من عمرها. اليوم جاءَ دور مشهدها.

الممثلة الصغيرة ناعمة ورقيقة، وذات صوت صافٍ. من السهل أن أتعرَّفَ فيها على لين بعد بضع سنين، وأكتشف هذا بكل حنان وحزن.

أحاولُ أن أتخيَّل نفسي وأنا في ذلك السن الصغيرة، لكني أكتشفُ أنَّ ذاكرتي لا تصلُ إلى تلك الحقبة.

أحياناً أشعرُ بالغضب لأني لن أكونَ مثلها مطلقاً ؛ لن أعود رقيقةً ثانية، أو أن أحتفظ في سداخلي، وأمامي، بكل إمكانات الحياة.

ما أغرب أن أجلس وأنظر إليها وأعلمُ أني أنا التي بتُّ أقربَ إلى منتصف العمر، أن أرى في عينيها أنها لا تفهمُ أني أنا، أيضاً، في الرابعة عشرة من عمري، ولا أرغبُ إلا في توفُّر بعض الوقت لأكونَ هي.

مرَّت السنونُ بسرعةٍ كبيرةٍ وشكَّلتْ منذ الآن جرفاً من الزمن لا يمكنني أن أعبره من جديد بوصفهِ جسراً بيني وبين ما كُنتُه ذات مرة.

فتاتان صغيرتان تجلسان وتتبادلان الحديث - لكنَّ إحداهما لا تراها الأخرى.

اليوم ٣٠ :

جَدُ جيني مستلقٍ على السرير. نهايته تقترب. زوجته معه، تتكلم بهدوء في أذنه. إنهما متّحِدان من خلال موقفٍ وداعٍ تقفُ جيني خارجه وتتفرَّج.

بعد ذلك يتحدَّثُ غونار عن الموت ؛ هو نفسه كان مريضاً جداً، لكنه الآن غالباً ما يمزحُ ويتحدَّثُ عن الأمور التي كانت تُخيفه.

" كانت أمي تقول إنها تتصوَّرُ الموتَ رجلاً وسيماً، آخر الرجال، يأتي ليأخذها "

ويضحك الجميع. ويتابعُ غونار " أتعلمون مَنْ هو صاحب أعمق عينين وأوسع ابتسامة، وأدفأ عِناق ؟ " وتتركَّزُ عيناه عليَّ، فأرى فيهما أعمق فأعمق داخل ما يقوله. يقول بهدوء" لمْ أعُدْ أجدُ الموتَ مُرعباً. فبعد أن أصلَ إلى أرذل العمر ويهدّني التعبُ، سيبدو الموتُ طبيعياً أكثر من المولد "

اليوم ٣١ :

هذا أحد آخر أيام تصوير هذا الفيلم. جيني تحلمُ بأنها تسير في جنازتها. إنها موضوعة داخل تابوت، وشعرها مُزيَّن بالزهور، ويداها معقودتان فوق صدرها، وثمة ورودٌ منثورة فوق جثّتها.

عليَّ أن أتمدَّدَ بسكونٍ تام حتى لا أُفسدَ الزينة.

أشعرُ أني معزولةٌ عن الآخرين. لا أحد يُكلّمني وكأنهم يخافون من تابوتي. وخلال فترة الاستراحة يلجؤون جميعاً إلى المكتبة، وأسمعهم

يضحكون ويتجاذبون أطراف الحديث.

أطلبُ إحضـارَ ورقةٍ وقلمَ رصـاص. أرفعُ ذراعي بحـذَر لأكتبَ بعض الملاحظات.

تسـألني اينو بجـفـاف أثنا ء مـرورها بي " أأنتِ مـسـتلقـيـة هناك لتكتبي مذكراتك ؟ "

بيننا صحفيٌ أميركي تابعَ مسيرة تنفيذ هذا الفيلم، من غرفة مكتبه في الغـالب، لأنَّ انغـمار لا يـسمحُ للدخلاء بالتـواجُد في الاستـديو. اليـوم هو يعـملُ كـمـثّـل إضـافـي. حتى بالنسبة إليـه، هو الذي ربما عـايشَ كل شيء في هـوليـوود، يبـدو غـريبـاً أنْ يرى ممثلةً كـبـيـرةً تكتبُ وهي داخل تابوت. لقد لاحظَ وجودي. وهو طوال الوقت لا يولي انتباهه إلا لكلّ ما يقوله انغمار ويفكّر فيه ويفعله.

يسـعدني أن أُقـيمَ أخيـراً اتِّصـالاً مع كائنٍ بشـريّ فأُخبره عـن الكتـاب الذي أؤلِّفه، فينفحني بابتسامةٍ ودّية ويقولُ إننا يجب أن نتحدَّث عنه لاحقاً.

في بعـد ظهـر ذلك اليـوم ألـتقـي به في الرواق، وهو فـي طريقـه إلى مكتب البـريد فـيُريني وهو فـخور رسـالةً كـتـبـهـا إلى صـاحب عـمـود في صـحـيـفـة أمـيـركـيـة، تقـول " ليف إنسـانة عـذبة ومُسلّيـة. اليـوم كـانت مستلقيـة فـي تابوتها وتكتب. كأنها تؤلِّفُ كتـاباً. أنا مـتـأكِّد من أنه لن يكونَ شيـئاً هاماً، ولكن ربما وجدناها كاتبةً جيدة تُحسِنُ الصيـاغة. على أي حال أعتقدُ أنَّ فيه من المواد ما يكفي لكتابة مقالتين "

يشـحبُ لوني من شـدَّة الغـضب وأسـأله كـيف يـفـكِّرُ في إرسـال مـثل تلك الرسـالة بدون إذنٍ مني، بدون أن يعرفَ ما أكتب.

اضطَرَبَ وتأذّى وقـال " عـزيزتي، لقـد أردتُ فـقط أن أسـاعدك. أنا

حتماً لن أُرسلها "
ويُجعِّد الورقة ويرميها في سلة الأوراق.
بعد ذهابه أستردُّها، وأمسِّدها، وأحتفظُ بها.

اليوم ٣٢ :
الكلّ يُبدي علائمَ صغيرة على التعب.
الفيلمُ يعالجُ أموراً لا نناقشها عادة.
لعلّ من المفيد أننا نفَّذناه. يفيدُ أولئك الذين سيشاهدون نسخته النهائية، التي لا سبيل إلى معرفتها الآن.
يقولُ ثيو كاليفاتيس " يجب أن تفكِّري في الموت قُرابة الثلاث مرات يومياً، بعد ذلك يفوحُ من قبرك ضوعُ المسك "

* * *

أسألُ انغمار " هل ستُحبُ فيلمنا ؟ "
فيُجيبُ " انظري إليه وكأنه مِبضَع الجرّاح ؛ ليس كل إنسانٌ يُرحِّبُ به "

الخاتمة

نتحدَّثُ، لين وأنا، عن الحياة والموت.

أعـتـقـدُ أنَّ لدينا نحن الاثنتـان مـعـاً جـواباً، يـكمنُ في تـضـاعـيف صمتنا ونحن جالستان هنا.

يدايَ في يديكِ.

عزيزتي لين،

لقد كانت مطالب العالم الخارجي كثيـرةٌ جداً. طلبَ الناسُ جزءاً من الوقت الذي كان يجب أن نقضيه معـاً، وبقيتِ وحيـدةً مع مـا كنا نصبو إلى تقاسمه معاً.

إنَّ لكِ أُمـاً مـحـمـومـةً بالقلق وبالـضـغـوط، تمنحُكِ عناقـات سريعـة، وتُصغي إليكِ وهي تنقرُ بأصابعها بصبرٍ نافد على الطاولة.

كنت مُـتـعـبـةً وطلبتُ منكِ ألاّ تكوني لجوجـاً، لأنَّ أعـصـابي على الحافّة.

ورأيتك أحياناً تنسحبين مُبتعدةً عني.

وخِفتُ أن أُنادي عليك. خِفتُ لأنَّ إحساسي بالذنب كان يُثقلُ عليَّ.

خِفتُ لأنَّ النجاحِ الخارجي الذي حقَّقتُـهُ تمَّ على حسـاب شيءٍ كـان

يمكنُ لنا أن ننجزه معاً.

وأخشى ما أخشاه أن يكون قد فات الأوان على وصولي إلى اليوم الذي أستطيعُ أن أمنحك فيه كل وقتي.

سوف تعرفين أني أَحببتُكِ طوال الوقت.

لقد صارعتُ مهنتي على مرّ السنين ؛ حاولتُ أن أكتشف مَنْ أنا ولماذا أنا موجودة.

جسمك الصغير النحيل قريب من الحياة كاقترابي منها.

حين ألمسكِ تصبحين الحياةَ ذاتها، تصبحين ثقيلةً الوزن ودافئة ونحيلة على جسمي، وحين تربتين على خدي وتقولين " ماما الصغيرة " تفهمين أكثر مما أدركه أنا ؛

وحين تقولين إنني يجب ألاّ أحزن، لأنكِ موجودةٌ معي،

وحين تُغنين حياتي، بمجرَّد وجودكِ.

عزيزتي لين ...

يا اتِّصالاً بلا كلام ولا لمس.

أقفُ عند النافذة وأراكِ تحفرين في التراب ببنطالٍ مهترئ عند الركبتين وفي المؤخِّرة.

لديكِ أفكارٌ ومغامراتٌ لن أستطيع أبداً مشاركتكِ فيها. أقفُ وأنظرُ إليكَ وأنا أَقْربُ إليكِ من أي شيءٍ آخر أعرفه.

أنتِ جزءٌ حرٌ تماماً مني.

وأتابعك، وأتمنى لو كان لديَ الوقت لأتابعكِ عن كثب أكثر، لأرى كيف تحيا حرِّيتكِ فيك.

هل تفهمين، عزيزتي لين – وأنتِ هناك مع الأطفال الذين تضحكين

معهم والألعاب السرّية التي تلعبينها وحدكِ، والأريج والألوان وكل الجمال الذي ما زال يكوِّنُ عالمكِ - هل تفهمين أَنه في الحقيقة لا يوجدُ أي سبب صحيح يمنعني من أن أهرَع إليكِ وأعيشَ حياتكِ ؟

لعلَّ ما أفتِّشُ عنه على الدوام هو مملكَةُ الطفولة الضائعة.

- انتهى -

الهوامش

١ – ثاليا : في الميثالوجيا الإغريقية ، هي ربَّةُ التمثيل ، بوجهيه الهزلي والمأساوي . – المترجم .

٢ – كارين بليكسن (١٨٨٥ – ١٩٦٢) : كاتبةُ قصص قصيرة دانمركية باللغتين الدانماركية والإنكليزية .

٣ – أيزاك دينيسن هو الاسم المستعار للكاتبة كارين بليكسن .– المترجم .

٤ – زهرة الجدار : شخص (فتى أو فتاة) يقنعُ بمشاهدة الرقص إما حياءً أو لأنَّ أحداً لم يدعُه إلى الرقص معه .– المترجم .

٥ – المؤشِّر : العصا التي يشيرُ المعلِّم بها إلى ما كتبه على السبورة . – المترجم .

٦ – أي المنتسبة الجديدة إلى عالم النضج الأنثوي . – المترجم .

٧ – جيمس ستيوارت : الممثل الأميركي المعروف .– المترجم .

٨ – نورا : بطلة مسرحية إبسن " بيت الدمية " .

٩ – غلين ميللر (١٩٠٤ – ١٩٤٤) : قائد فرقة لموسيقى الجاز ، وعازف على آلة الترومبون أميركي . توفي إثر حادث تحطُّم طائرة .– المترجم .

١٠ – ستيوارت غرينجر : ممثل سينماني إنكليزي .

١١ –آن فرانك (١٩٢٩ – ١٩٤٥) : ألمانية يهودية . لها مذكرات تسجِّل فيها التجارب التي مرَّتْ بعائلتها أثناء اختبائها من النازيين في أمستردام (١٩٤٢ – ١٩٤٤) . وقد أُفشيَ أمرها وماتت في أحد معسكرات الاعتقال . – المترجم .

١٢ – ماي ويست (١٨٩٢ – ١٩٨٠) : ممثلة إغراء أميركية . ازدهرت خاصّةً في ثلاثينات القرن الماضي . عُرِفَتْ بالتعابير والتلميحات الجنسية الصريحة في أفلامها الكوميدية ، وفي استعراضاتها المسرحية ..

١٣ – ماريان : هي بطلة الفيلم المذكور . – المترجم .

١٤ – يوهان : بطل الفيلم .– المترجم

١٥ –هولمز هو زوج نورا في مسرحية " بيت الدُمية " .

١٦ – الفيلم الذي ستتحدّث عنه ليف من الآن وحتى نهاية المذكَّرات هو فيلم " وجهاً لوجه " . وقد شاركتها في بطولة الفيلم الممثلة الكبيرة انغريد برغمن . – المترجم .

١٧ – توماسّو ألبينوني (١٦٧١ – ١٧٥٠) : موسيقي إيطالي ، وعازف كمان . له أوبرات وكونشيرتوات على الكمان . كان مصدر إعجاب باخ .– المترجم .

١٨ – المقصود هنا النساء في أفلامه .– المترجم .

١٩ – الصحيفة المُصغَّرة : صحيفة ذات قَطْعٍ نصفي تشتمل على أنباءٍ موجزةٍ ومقدارٍ كبيرٍ من الصور والرسوم .

٢٠ – القولحة : هي الجزءُ الخشبيُّ من كوز الذرة .

الفهرس

(أتغير) كتاب يتسلل إلى احترامك ويفوز به خلسة، في أول الأمر يخزك بالشك والعدائية.. تجد أنك تفكر في ما خطر للسيدة أولمن نفسها.. في أنه لو لم تكن المؤلفة نجمة سينمائية عالمية شهيرة لما وجد كتابها ناشراً ينشره. ولكن في موقع ما على الطريق تبدأ بملاحظة نزاهتها الواقعية الخارقة..

نيويورك تايمز

أتغير هو نظرة إلى أعماق قلب..

بوسطن غلوب

إنه وثيقة رقيقة، منفتحة، وتكاد تكون غنائية عن حياة أمرأة.. إن المرأة الحساسة، المعقدة التي تبرز من تلك الصفحات تمتلك جمالاً داخلياً يسود وينير هذا الكتاب الرائع، الراقي والصادق..

ببليشر ويكلي

كتاب مبهج . متقن، يتسم بالتبصر والإدراك، والظرف، لطالما بدت ليف أولمن في السينما.. ذكية، متعاطفة، ومحبوبة جداً، وأتغير يؤكد على هذه الصفات كلها، إلى جانب كونها كاتبة مُجيدة..

فيليج فويس

هذا الكتاب يشكل نوعاً من الكتابة قائماً بذاته، أحد الأشياء الخارقة في سيرة ليف أولمن الذاتية هو قلة اعتمادها على شهرة المؤلفة كمصدر للقوة..

واشنطن بوست


ISBN:2-84305-857-X
9 782843 058578